بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية اللغة العربية

نموذج رقم : (٨)

إجازةُ أُطروحةٍ علميّةٍ في صيغتها النّهائيّةِ بعدَ إجراء التّعديلات :

الاسمُ الرُّباعيُّ : خديجة محمد أحمد بناني الرّقم الجامعيّ : (٤١٦٩٧٢٢٧)

كلّيّة : اللغة العربيّة قسم : الدّراسات العليا العربيّة فرع : الأدب

الأُطروحةُ مقدّمةٌ لنيلِ درجة : الدّكتوراه في تخصُّص : البلاغة

عنوانُ الأُطروحةِ : سورة النساء دراسة بلاغية تحليلية

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين،والصّلاةُ والسّلامُ على أشرفِ الأنبياءِ والمرسلين،وعلى آله وصحبه أجمعين ؛ وبعد :

فبعد إجراء التّصويبات المطلوبة التي أوصتْ بها اللجنةُ التي ناقشتْ هذه الأطروحةَ بتاريخ : ٤ / ٢ / ١٤٢٢ هـ : توصي اللجنةُ بإجازتها في صيغتها النّهائيّة المرفقة

والله الموفّق ،،،،

أعضاء اللجنة :

المشرف : عبد العزيز أبو ربيع الكسبي المناقش الدّاخليّ : حسن الله محمد الصحفي المناقش الخارجيّ : محمد علي الصامل

التوقيع : التوقيع : التوقيع :

يعتمد : رئيس قسم الدّراسات العليا العربيّة

أ.د : سليمان بن إبراهيم العايد

التوقيع :



المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى بمكة المكرمة

كلية اللغة العربية

قسم الدراسات العليا



سورة النساء

دراسة بلاغية تحليلية

بحث مقدم من الطالبة

خديجة محمد أحمد البنّاني

للحصول على درجة التخصص (الدكتوراه)

في اللغة العربية وآدابها (قسم البلاغة)

إشراف

الأستاذ الدكتور / عبد العزيز أبو سريع ياسين

١٤٢٢هـ ٢٠٠١م


بِسْمِ
اللهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيْمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الرسالة : **سورة النساء دراسة بلاغية تحليلية** . الدرجة العلمية : **الدكتوراه** .

الطالبة : **خديجة محمد أحمد البناني** .

لما كان إيماني راسخاً بأن خدمة القرآن من أوجب ما يجب على كل مسلم ، ولما احتوته سورة النساء المباركة من أمور جليلة – صياغة ومعنى – ، ولم أجد مَن وقف معها هذه الوقفة كان أن قدمتُ على هذه الدراسة البلاغية التحليلة . وقد استقام البحث في تمهيد وخمسة فصول وخاتمة ، فأما التمهيد فقد أفضت الدراسة الاستقرائية فيه لآراء العلماء أن أظهر وجوه إعجاز القرآن نظمه البلاغي وهذا ما كان أولاً ، أما ثانياً فقد كان حديثاً عن سورة النساء .

وأما الفصل الأول فقد كان دراسة لنظم المفردات في سورة النساء في مبحثين ، المبحث الأول : بلاغة المفردة من حيث هيئتها ، وتحته مطالب أربعة : الأول هيئة التعريف ، والثاني : هيئة التنكير ، والثالث : هيئة الإفراد والتثنية والجمع ، والرابع : هيئة التذكير والتأنيث . والمبحث الثاني : بلاغة المفردة من حيث مادتها ، وتحته أربعة مطالب : الأول : أدوات الشرط ، والثاني : أدوات النفي ، والثالث : حروف العطف ، والرابع : حروف الجر .

أما الفصل الثاني فدرس نظم الجملة في سورة النساء في مبحثين : المبحث الأول : الجملة الخبرية ، وتحته مطلبان ، الأول : من حيث التقديم والتأخير ، والثاني : من حيث الذكر والحذف . والمبحث الثاني : الجملة الإنشائية ، وتحته مطالب خمسة : الأول : الاستفهام ، والثاني : الأمر ، والثالث : النهي ، والرابع : التمني ، والخامس : النداء .

أما الفصل الثالث فهو نظم الجمل والأفكار ، وفيه ثلاث مباحث ،المبحث الأول :القصر ، والمبحث الثاني : الإيجاز والإطناب ، والمبحث الثالث : الفصل والوصل .

والفصل الرابع يدرس الصور البيانية في ثلاثة مباحث ، المبحث الأول : التشبيه ، ويضم ثلاثة مطالب : الأول : التشبيه المرسل ، والثاني : التشبيه الضمني ، والثالث : التشبيه التمثيلي . والمبحث الثاني : المجاز ، ويضم مطلبين : الأول : المجاز اللغوي ممثلاً في المجاز المرسل والاستعارة ، والثاني : المجاز العقلي .والمبحث الثالث : الكناية ، ويضم مطالب ثلاثة : الكناية عن الصفة ، والكناية عن الموصوف ، والكناية عن النسبة .

أماالفصل الخامس ففي الفنون البديعية ، ويحتوي على مبحثين : المبحث الأول : المحسنات المعنوية ، وفيه مطالب : الطباق والمقابلة والتورية والتوجيه والجمع والتفريق وحسن التقسيم ومراعاة النظير والتناسب والائتلاف والمشاكلة. والمبحث الثاني : المحسنات اللفظية ، وفيه الجناس والسجع ورد العجز على الصدر . أما الخاتمة ففيها مجمل نتائج البحث والتوصيات والمقترحات .

الطالبة	المشرف على الرسالة	عميد كلية اللغة العربية
خديجة محمد أحمد البناني	**أ . د . عبد العزيز أبو سريع ياسين**	**أ . د . صالح بدوي**

المقدمة

المقدمة :

الحمـــد لله صـــاحب الحمد العظيم الكريم المنان ، أحمدك ربي حتى ترضى ، وأحمدك إذا رضيت ،و أحمدك بعد الرضا ، فأنت أهل للحمد كله إذ وفقـــت ويســـرت وهديت وأعنت ، فتفضل عليَّ بالصفح عن التقصير ، وبقبول هذا العمل الصغير ، وارزقنا به رضاك وجنتك ، فأنت جواد كريم واســـع العطـــاء ، وصلِّ اللهم على خاتم النبيين والمرسلين ، سيدنا محمد وعـــلى آله وصحبه أجمعين ، القائل : " اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد " وسلم تسليماً كثير .

وبعـــد فقد كانت دراسة القرآن الكريم مُناي ومقصدي منذ البواكير الأولى للدراسات العليا ولا تزال ، وكل تلك السنين التي قضيتها في رحاب الدراســـات القرآنية في مرحلة الماجستير وهذه الدراسة لم تشف غليلي بعد من هذا النبع الصافي والمورد العذب ، ولا غرو ؛ فإن من تذوق منه قطرة لا يحتمل البعد عنه البتة ، ذلك أنه كلام رب العالمين .

لقـــد خضـــت غمار هذه التجربة في مرحلة الماجستير ، حيث كان بحثي عن " أسلوب الالتفات في القرآن الكريم " ، وقادتني تلك الدراسة إلى الوقـــوف عـــلى ألوان شتى من أساليب العرب في كلامها ، وأوقفتني على الـــبون الشاســـع بين أسلوب القرآن وتلك الأساليب ، ووثّقت تلك الدراسة صلتي بكتاب الله ، وأكدت في نفسي اعتقاداً راسخاً بأنه لا أجمل ولا أجدر مـــن أن يقضي المرء عمره في تلك الرحاب العطرة ، وهذا ما دفعني بأن أحـــجّ إلى هـــذا الكتاب مرّة أخرى ، فاخترت سورة النساء لأقوم بدراستها دراسة بلاغية ، وميدان هذا البحث – مع أنها في كتاب الله الكريم – إلاّ أن القـــول فيـــه يجب أن يحاط بمحاذير شديدة ، مما أحوجني إلى اللجوء إلى مصـــادر متفرقة في علوم القرآن وإعجازه وتفسيره ، وإلى كثير من كتب الحديـــث وأسباب النزول والفقه والعقيدة وعلم الفرائض ، بجانب المراجع الأساسية في مادة البحث ، وهي كتب متون اللغة والنحو والصرف والبلاغة

العـربية وكتب إعجاز القرآن قديمها وحديثها ، فإن مادة هذا البحث مبثوثة فـي تلك المصادر والمراجع ، مع ما فيها من قدر كبير يرتكز على التذوق الخـاص والـرأي الشخصي بما تقتضيه طبيعة الدراسة البلاغية التحليلية لـلوقوف على الجوانب البلاغية المعجزة في كل موضع من تلك المواضع الـتي شـكلت صلب الدراسة ، وأهم محور في هذه الدراسة هو المحاولة الجـادة للوقوف على النواحي الإعجازية في أسلوب القرآن ممثلاً في آيات سورة النساء التي قد يُظنُّ أن ما بها من أحكام وتنظيمات وتشريعات وأسس بـناء المجتمع الإسلامي الجديد إبّان نشأته الأولى قد يميل بها إلى الأسلوب الـتقريري ، ولكـن الوقوف مع أول آية من آياتها يبطل ذلك الظن ، فكم حوت تلك الآية الكريمة من ألوان بلاغية تدل على عظم قدر هذه السورة ، وحسـن الاستهلال فيها ، وبراعة مطلعها ، وكان الوقوف مع أكثرها قصداً لإظهار هذا الغرض .

وحـاولت الدراسة أن تكون شديدة العناية بالأمانة العلمية في النقل ، كمـا حـاولت استقصـاء جميـع ما قيل في الموضع مجال الدرس بلاغياً ونحويـاً ، والإلمـام بأكبر قدر من آراء المفسرين أصحاب الذوق الأدبي والحس البلاغي قبل اختيار ما تكتبه مع الحذر الشديد الذي يتناسب وطبيعة الدراسـات القـرآنية ؛ لما في هذا المنبع الصافي من توازن دقيق في كافة مفاهيمه .

وألتمس العذر من القارئ الكريم إن وقع على خطوة عاثرة أو فكرة جامحـة ، فما فيه من صواب فمن فضل الله وكرمه وتوفيقه ، وما فيه من زلل وخلل فمن نفسي وضعفي وتقصيري ، وأسأل الله العفو والغفران .

وقد استقام البحث في خمسة فصول ، يتقدمها تمهيد وتقفوها خاتمة ، فأمـا الـتمهيد فهو قائم على إثبات أن معظم العلماء قديمهم وحديثهم اتفقوا عـلى أنّ إعجـاز القـرآن في نظمه البلاغي ، هذا الوجه الذي إن لم يكن

الأوحد فهو الأظهر ، ذلك أنه هو الذي قام به التحدي وثبتت به المعجزة ، هذا ما كان أولاً . أما ثانياً فقد كان حديثاً بين يدي سورة النساء .

– وأما الفصل الأول فقد كان عن نظم المفردة القرآنية ، ممثلة في مفردات سورة النساء ، وقد اقتضت طبيعة التنظيم والتبويب أن يُقسم هذا الفصل إلى مبحثين :

المبحث الأول : بلاغة المفردة القرآنية من حيث هيئتها ، وتحته أربعة مطالب :

المطلب الأول : هيئة التعريف .

المطلب الثاني : هيئة التنكير .

المطلب الثالث : هيئة الإفراد والتثنية والجمع .

المطلب الرابع : هيئة التذكير والتأنيث .

ثم المبحث الثاني : بلاغة المفردة القرآنية في سورة النساء من حيث مادتها ، وقد اقتصرت الدراسة في هذا المبحث على حروف المعاني فقط لأسباب منها : أن كون اللفظة اسماً أو فعلاً ستقف الدراسة معه في فصل آخر هو نظم الجملة ، ومنها : لما لحروف المعاني من أثر ظاهر في ربط معاني مجموع أجزاء الجملة وإبراز مكنونات النفس فيها إلى العيان ، ومنها : تجنب التكرار حتى لا يُدرس الاسم والفعل مرتين . وقد حاولت الدراسة جهدها القيام بعمل مقارنات بين تلك الحروف للوقوف على الاختيار المعجز لها في القرآن الكريم ، وقُسم هذا المبحث إلى مطالب أربعة :

المطلب الأول : أدوات الشرط .

المطلب الثاني : أدوات النفي .

المطلب الثالث : حروف العطف .

المطلب الرابع : حروف الجر .

وقد شغل هذا الفصل بمبحثيه حيزاً كبيراً في الدراسة وذلك يعود إلى طبيعة تنوع اللفظة هيئةً ومادةً .

- أما الفصل الثاني فكان في نظم الجملة ، وقد احتوى أيضاً مبحثين :

المبحث الأول : الجملة الخبرية ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : التقديم والتأخير .

المطلب الثاني : الحذف والذكر .

المبحث الثاني : الجملة الإنشائية ، وتحت هذا المبحث مطالب خمسة هي :

المطلب الأول : الاستفهام .

المطلب الثاني : الأمر .

المطلب الثالث : النهي .

المطلب الرابع : التمني .

المطلب الخامس : النداء .

- أما الفصل الثالث فقد كان في نظم الجمل والأفكار ، وبه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : القصر ،وبه أربعة مطالب :

المطلب الأول : القصر بـ (إنما) .

المطلب الثاني : القصر بالنفي والاستثناء .

المطلب الثالث : القصر بأدوات العطف .

المطلب الرابع : القصر بتقديم ما حقه التأخير .

المبحث الثاني : الإيجاز والإطناب ، وبه مطلبان :

المطلب الأول : الإيجاز .

المطلب الثاني : الإطناب .

المبحث الثالث : الفصل والوصل ، وبه مطلبان :

المطلب الأول : الفصل .

المطلب الثاني : الوصل .

- أما الفصل الرابع فقد عالج الصور البيانية ، واحتوى على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : التشبيه ، وتحته مطالب ثلاثة :

المطلب الأول : التشبيه المرسل .

المطلب الثاني : التشبيه الضمني.

المطلب الثالث : التشبيه التمثيلي.

المبحث الثاني : المجاز ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : المجاز اللغوي ، ويحتوي على :

أولاً : المجاز المرسل .

ثانياً : الاستعارة .

المطلب الثاني : المجاز العقلي .

المبحث الثالث : الكناية ، ويحتوي على ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : الكناية عن صفة .

المطلب الثاني : الكناية عن موصوف .

المطلب الثالث : الكناية عن النسبة .

- أما الفصل الخامس : الفنون البديعية ، وهي مبحثان :

المبحث الأول : المحسنات البديعية المعنوية ، وتحته سبعة مطالب :

المطلب الأول : الطباق .

المطلب الثاني : المقابلة .

المطلب الثالث : التورية .

المطلب الرابع : التوجيه .

المطلب الخامس : الجمع والتفريق وحسن التقسيم .

المطلب السادس : مراعاة النظير والتناسب والائتلاف .

المطلب السابع : المشاكلة .

المبحث الثاني : المحسنات البديعية اللفظية ، وبه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : الجناس .

المطلب الثاني : السجع .

المطلب الثالث : رد العجز على الصدر .

ويتبع ذلك خاتمة تحتوي على أهم نتائج الدراسة والمقترحات والتوصيات .

والشكر لله المتعال المنعم المتفضل أولاً وآخراً ، ثم لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل لجامعة أم القرى عموماً ، ولكلية اللغة العربية خصوصاً ؛ لما تبذله من جهد مثمر لمنسوبيها ومنسوباتها ، ثم أتقدم بعظيم العرفان والامتنان للمشرف الأستاذ الدكتور عبد العزيز أبو سريع ياسين ، الذي لن تفيه الكلمات حقه ، فقد كان لي شرف التلقي على يديه وقد رعى بحثي بمنتهى الأمانة والصدق والإخلاص ، فلا أملك له إلا دعوات مخلصات إلى العلي القدير أن يجزيه خير الجزاء ، ويجعل ما بذله من جهد تجاه بحثي في ميزان حسناته وشاهداً له يوم يقوم الأشهاد ، ثم أتقدم خافضةً جناحيّ الذل والرحمة لأبي الذي أورث أفراد أسرته حب العلم ، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته ، ولأمي الغالية – أمد الله في عمرها – التي بذلت عمرها كله في سبيل رعايتنا صابرة محتسبة ، وأبتهل إلى الله العلي القدير أن يكافئها بكل ذلك أعلى الدرجات في جناته .

والشكر والامتنان موصولان إلى الأستاذين المناقشين ، لتكرمهما بقبول مناقشة هذا البحث ، وأدعو الله مخلصة أن ينفعني بعلمهما وتوجيهاتهما وأن يتولى عني جزاءهما ، ثم الشكر الجزيل لكل قلبٍ خفق من أجلي ، وكل يد امتدت لمساعدتي من أساتذتي وزميلاتي ، وصديقاتي وكل من له حق عليّ ، وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين .

كتبته الفقيرة إلى رحمة الله خديجة محمد أحمد البناني ،

في ١٤٢٢/٦/١ هـ


تمهيد



تمهيد

أولاً : إعجاز القرآن البلاغي :

غلب على أقوال العلماء أن أهم وجوه إعجاز القرآن وأظهرها إعجازه البلاغي . هذا الوجه لم يظهر في تفسير السلف من الصحابة والتابعين – رضوان الله عليهم أجمعين – مع أنه كان القوة الخفية التي تغلغلت في نفوسهم وأخضعتهم إلى سلطان القرآن طائعين مختارين . ومرد ذلك إلى أنهم أهل ذلك اللسان ومعرفتهم بأساليب البلاغة مما لا يحتاج إلى بيان[١] .

وبتقدم الزمان ظهرت عوامل كثيرة[٢] جعلت التعرف على أساليب القرآن وما يمكن أن ينطوي وراء تعبيراته من المعاني والمقاصد غاية عظمى ، فتسابق إلى الوصول إليها أئمة العلماء ممن حملوا مشعل الهداية لإنارة السبيل الصحيح الموصل إلى فهم إعجاز كتاب الله الكريم ، وغيره من علوم العربية وعلوم الشريعة .

١ـ انظر (البرهان في علوم القرآن) للزركشي ، ج١ ، ص٣١٢ ، تحقيق / محمد أبي الفضل إبراهيم ، الطبعة الثانية ، جامعة أم القرى .

٢ـ من أهمها اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب وإسلام كثير منها ، فظهر في الأفق القريب أمور منها :

أ ـ استفسار الأعاجم عن أمور دينهم ، خاصة فيما يتعلق بفهم القرآن .

ب ـ ضعف اللسان العربي للعرب أنفسهم بهذا الاختلاط الجديد .

ج ـ ظهور مرحلة الشك ثم مرحلة التشكيك في الدين ، فأصبح بذلك الدفاع عن القرآن من أوجب ما يجب على علماء المسلمين .

انظر (القرآن الكريم معجزة وتشريع) لعبد الكريم النيازي ، ص١٢٠ ، مطبوعات نادي مكة الأدبي ، الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ .

من بين أولئك الرواد **أبو عبيدة**(*) معمر بن المثنى (ت ٢١٠هـ) في كتابه (مجاز القرآن) .

لقد عالج فيه كيفية الوصول إلى فهم المعاني القرآنية ورآها لا تتجلى إلا بالدربة الكافية لاحتذاء أساليب العرب في كلامها وسننها في وسائل الإبانة عن المعاني ، وذلك لأنه أحس حاجة الناس إلى وصل حاضر اللغة بسالفها[١] ، فالانقطاع بينهما مما يعود وباله على فهم معاني القرآن والوقوف على إعجازه البلاغي ، ولذا قال : (إنما أُنزل القرآن بلسان عربي مبين ، تصداق ذلك في آية من القرآن – **{ نزلَ بهِ الروحُ الأمينُ * على قلبِكَ لتكونَ منَ المُنذِرينَ * بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ }**[٢] – وفي آية أخرى : **{ وما أرسلْنا منْ رسولٍ إلاّ بلسانِ قومِهِ }**[٣] ، فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يسألوا عن معانيه ؛ لأنهم كانوا عرب الألسن ، فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه وعمّا فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص . وفي القرآن مثل مافي كلام العرب من وجوه الإعراب ، ومن الغريب والمعاني)[٤] .

ولاشك أن هذه الوجوه التي في القرآن لا تظهر إلا عندما يمتلك المرء آلة فهمه الموجودة في المأثور من كلام العرب من المنظوم

* أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي ، وُلِدَ سنة ١١٠ هـ ، وتوفي بين سنتي ٢٠٩هـ – ٢١٣ هـ ، وهو من علماء البصرة .

(وفيات الأعيان) لابن خلكان ، ج٢ ، ص١٥٧ . أشرف على تحقيق الكتاب شعيب الأرناؤوط ، الناشر مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م .

١ـ انظر (البيان العربي) للدكتور بدوي طبانة ، ص٢٨ ، الطبعة السادسة ، مكتبة الأنجلو المصرية .

٢ـ الآيات (١٩٣، ١٩٤ ، ١٩٥) ، سورة الشعراء .

٣ـ جزء من الآية (٤) ، سورة إبراهيم .

٤ـ انظر (مجاز القرآن) ، ج١ ، ص٨ ، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ، الطبعة : بدون ، والآية (٤) من سورة إبراهيم .

والمنــثور ، وهــو المجال الخصب للدراسة التطبيقية الهادفة معرفة ما في القرآن الكريم من إعجاز بلاغي ، بعد المقارنة والقياس .

والــذي يهمنا هنا هو أن أبا عبيدة وهو من أوائل من تصدى لدراسة بلاغــة القــرآن يــنوه بلفــتاته تلك إلى أن إعجاز القرآن الكريم في نظمه الــبلاغي ، مشــيراً إلى شدة الحاجة إلى المطالعة والدرس في كلام العرب لأن القرآن نزل بلسانهم وتفوق عليهم فيه .

ثــم نمضــي قليلاً في القرن الثالث الهجري ليطالعنا **الجاحظ**(*) (ت ٢٥٥هـــ) بمؤلفاتــه الكثيرة في القرآن الكريم التي ضاع أكثرها ، ومنها كتابه (نظم القرآن) الذي يدل اسمه على فحواه .

وفــي كتابه (البيان والتبيين) يقول : (إن الله إنما جعل نبيه أمياً لا يكتب ولا يحسب ولا ينسب ولا يقرض الشعر ولا يتكلف الخطابة ولا يتعمد الــبلاغة ليكــون إذا جاء بالقرآن الحكيم تكلم بالكلام العجيب كان ذلك أدل على أنه من الله)[1] ، فهو ينوه ببلاغة القرآن وعجيب نظمه .

وفــي كــتابه (حجــج النــبوة) يقرر أن إعجاز القرآن في نظمه البلاغي ، يقول : (ألا ترى أن الناس قد كان يتهيأ في طبائعهم ... ويجري عــلى ألســنتهم ... أن يقول الرجل منهم الحمد لله ... وعلى الله توكلنا ... وحســبنا الله ونعم الوكيل ... وهذا كله في القرآن ... غير أنه متفرق غير

---

* العلامــة المتــبحر ذوالفنون أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصري المعتزلي صاحب التصــانيف الكــثيرة ، أخــذ عن النظام ، مات سنة ٢٥٠هــ ، أشهر مؤلفاته " البيان والتبيين " و " الحيوان " و " البخلاء " ، وله رسائل عدة .

انظر (تهذيب سير أعلام النبلاء) ، ج١ ، ص٤٤٢ ، أشرف على تحقيق الكتاب شعيب الأرناؤوطي ، هذبه أحمد فايز الحمصي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ، ١٤١٣هــ – ١٩٩٢م .

١ـــ انظــر ج٤ ، ص٣٢ ، تحقيــق وشرح عبد السلام هارون ، الناشر المجمع العلمي ، بيروت ، الطبعة الرابعة .

مجـــتمع ، ولـــو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه وتأليفه ومخرجه لما قدر)[١] .

ويزيدنا الجاحظ ما نرمي إليه توكيداً بقوله : (إن رجلاً لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة من القرآن لتبين لهـــذا الـــرجل أنـــه عاجز عن الإتيان بمثلها ... ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها ، وليس ذلك في الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين)[٢] ، يقصـــد إنمـــا ظهـــر عجزه في الإتيان بنظم مثل القرآن أي بأسلوب مثل أســـلوب القرآن[٣] وإن لم يقل هذا صراحة ، وهذا يدل على أن الجاحظ قد انضم إلى أبي عبيدة في إرجاع إعجاز كتاب الله إلى نظمه البلاغي .

ولا يـــبعد عنهم **ابن قتيبة**[*] (ت ٢٧٦هـــ) حين تصدى للرد على الطاعنين في القرآن لما خفي عليهم ما فيه من فنون القول وأساليب الكلام ، (فـــأراد أن يـــبين أن القـــرآن نـــزل بألفاظ العرب ومعانيها ومذاهبها في الإيجـــاز ، والاختصـــار ، والإطالـــة ، والتوكيد ، والإشارة إلى الشيء ، وإغماض بعض المعاني ، حتى لا يظهر عليه إلا اللقن ، وإظهار بعضها ، وضرب الأمثال لما خفي)[٤] .

وقـــد سمى كل تلك الفنون التي تكوّن نظم القرآن البلاغي مجازاً ، لذلـــك يقول : (وللعرب المجازات ، ومعناه طريق القول ومأخذه ، ففيها

١ــ انظـــر الكـــتاب ضمن كتاب (رسائل الجاحظ) ، م٢ ، ج٣ ، ص٢٣٩ ، تحقيق ، عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى .

٢ــ انظر المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

٣ــ انظر (القرآن الكريم معجزة وتشريع) ، ص٢٢٤ ، بتصرف .

* ابـــن قتيبة العلامة الكبير أبو محمد عبد الله ابن مسلم الدينوري ، نزل بغداد ، ومن تصانيفه : غريب القرآن ، وغريب الحديث ، مات سنة ١٧٦هــ .

انظر (تهذيب سير أعلام النبلاء) ، ج١ ، ص٥٢٥ ، ٥٢٦ .

٤ــ انظر (البيان العربي) للدكتور بدوي طبانة ، ص٣٣ .

الاستعارة والتمثيل والقلب ...)[١] ، وأخذ يعدد فنون القول إلى أن يقول : (وبكل هذه المذاهب نزل القرآن ، ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة كما نُقِل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية ، وتُرجمت التوراة والزبور وسائر كتب الله تعالى إلى العربية ؛ لأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب)[٢] ، ولو كان إعجاز القرآن في غير نظمه البلاغي لصح التعبد بمعناه في أي لغة من لغات الأرض ، ولكن سر إعجازه في ذلك النظم العجيب .

ويضم القرن الرابع الهجري جهابذة هذا العلم . من أشهرهم : **أبو سليمان حمد بن محمد الخطّابي**[*] (ت ٣٨٨هـ) الذي خصص لإعجاز القرآن رسالةً أسماها : (بيان إعجاز القرآن) خَلُص فيه إلى أن (القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظم التأليف مضمناً أصح المعاني)[٣] ، وقد أصاب الخطابي المحز حينما أرجع الإعجاز البياني إلى تلك العناصر الأساسية لبناء الكلام الجيد ؛ (لأن الصورة البيانية بجميع عناصرها كيان واحد تفضي هنا إلى معجزة إلهية عظيمة هي " نظم القرآن " وهو الذي أعجز العرب عن القيام له ، والوقوف إزاءه)[٤] ، وبعجزهم ثبت عجز غيرهم من الأمم على مر الزمان .

١ـ انظر (تأويل مشكل القرآن) ، ص٢٠ ، شرح وتعليق السيد أحمد صقر ، الطبعة الثانية ، الناشر دار التراث ، القاهرة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

٢ـ انظر المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

* هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطّابي ، من ولد زيد ابن الخطاب ، كان محدثاً فقيهاً ، أديباً ، شاعراً ، لغوياً .. صاحب "غريب الحديث" .

انظر (تهذيب سير أعلام النبلاء) ، ج٢ ، ص٢٣٩ .

٣ـ انظر (بيان إعجاز القرآن) ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ، ص٢٨ .

٤ـ انظر (الإعجاز في دراسات السابقين) ، ص١٨٧ ، الدكتور عبد الكريم الخطيب ، دار الفكر العربي ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م ، بتصرف يسير ، والمقصود بالصورة البيانية هنا العناصر=

ومن أعلام القرن الرابع الهجري أيضاً : **أبو الحسن على بن عيسى الــرماني**[*] (ت ٣٨٦هــ) صاحب كتاب (النكت في إعجاز القرآن) . الــذي يعدد للقرآن وجوهاً سبعة في إعجازه ، ولكنه يعتني بالوجه الأرجح والأخص وهو إعجازه البلاغي . يقول – رحمه الله – : (فأما البلاغة فهي ثــلاث طبقات ، منها ما هو من أعلى طبقة ، ومنها ما هو من أدنى طبقة ، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة . فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز وهو بلاغة القرآن)[١] .

ويقول في موضع آخر : (فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن ، وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم)[٢] .

ثم يمضي في كتابه شارحاً أبواب البلاغة مدللاً على ذلك بشواهد من كــتاب الله ؛ ليقرر أن إعجاز القرآن في نظمه البلاغي ، يقول : (وظهور الإعجــاز فــي الوجوه التي نبينها يكون باجتماع أمور يظهر بها للنفس أن الكلام من البلاغة في أعلى طبقة ، وإن كان قد يلتبس فيما قلّ بما حسُنَ جداً لإيجــازه ، وحســن رونقــه ، وعذوبة لفظه ، وصحة معناه ، كقول علي

= متكامــلة في الأسلوب بدءً بصوت الحرف إلى اتساق السياق كاملاً ، لا تلك الصور المعتمدة على علم البيان ، وهي ما تسمى اليوم بــ (المسرح اللغوي) .

انظر (التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن) للدكتور عودة خليل العودة ، ص٨٠، ٨١ ، مكتبة المنار الأردنية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هــ – ١٩٨٥م .

وكــذا (المشــاهد في القرآن الكريم) للدكتور حامد صادق القنيبي ، ص٣٠٢ وما بعدها ، مكتبة المنار الأردنية ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م .

وكذا (التصوير الفني في القرآن) لسيد قطب ، ص٣٤ ، الطبعة الشرعية الثامنة ، ١٤٠٣ هــ – ١٩٨٣م .

* أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني النحوي المتكلم ، أحد الأئمة المشاهير ، وله تفسير القرآن الكريم ، كانت ولادته في بغداد سنة ٢٩٦هــ وتوفي سنة ٣٨٤هــ وقيل ٣٨٢هــ رحمه الله .

انظر (وفيات الأعيان) ، ج٣ ، ص٢٩٩ .

١ــ انظر (النكت في إعجاز القرآن) ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم) ، ص٧٥ .

٢ــ انظر المرجع السابق ، ص٦٧ .

– رضـــي الله عـــنه – : " قيمة كل امرئ ما يحسن " . فهذا كلام عجيب ، يغني ظهور حسنه عن وصفه . فمثل هذه الشذرات لا يظهر بها حكم ، فإذا انـــتظم الكـــلام حـــتى يكـــون كأقصـــر ســـورة أو أطول آية ظهر حكم الإعجاز)[١].

وهـــو فـــي هـــذا الكـــتاب (لم يكتب في الإعجاز كتاباً يضيء فيه الجوانـــب المتعددة للقضية ، وإنما أوجز رسالة تشبه المقال أو المحاضرة التي فيها شيء من البسط)[٢] ، ولكن تلك النكات التي وقف عندها كان لها عظيم الأثر في التنبيه على الإعجاز البلاغي كما أنبأت عن فحولة صاحبها في هذا الميدان .

ومـــع نهايـــة القرن الرابع الهجري يظهر كتاب (إعجاز القرآن) للـــباقلاني[*] (ت ٤٠٣هـــ) ، وقد بين الباقلاني في هذا الكتاب لقومه ثم للدارســـين من بعدهم أن إعجاز القرآن يأتي من جهة مفارقته لجميع وجوه الـــنظم المعـــروفة فـــي كلام العرب ومباينته لأساليبهم في الشعر والسجع والكـــلام الموزون غير المقفى[٣] . وهو يهدف في المقام الأول إلى أن هذا الإعجاز إنما يدوم ويستمر استمرار الدهر إذ كان كاملاً في سمو بلاغته عن

١ـــ انظر (النكت في إعجاز القرآن) ، ص٧٨ .

٢ـــ انظر (الإعجاز البلاغي) للدكتور محمد أبي موسى ، ص٨٥ ، الطبعة الأولى ، مكتبة وهبة ، ١٤٠٥هـــ – ١٩٨٤م .

* القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم ، المعروف بالباقلاني البصري ، المتكـــلم المشهور ؛ كان على مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري ، سكن بغداد ، وصنف التصانيف الكثيرة ، توفي سنة ٤٠٣هـــ .

انظر (وفيات الأعيان) ، ج٤ ، ص٢٦٩ ، ٢٧٠ .

٣ـــ انظر (القرآن الكريم معجزة وتشريع) لعبد الكريم النيازي ، ص١٤٦ .

بلاغـة البشـرية ليـس غير ، أي أن هذا الوجه هو الأوحد في الإعجاز القرآني[١] فهو الأظهر والأدوم والأشمل لكل القرآن ، ومناط التحدي .

والمتتـبع لفكر الباقلاني يلحظ أن ثمةَ هدفاً عظيماً يرمي إليه ويروم تـأكيده هو : أن القرآن خارق للعادة وهو معجز جملة وتفصيلاً . يقول بعد أن عدد أصناف الكلام عند العرب : (فلما لم نجد في ذلك ما يداني القرآن فـي الـبلاغة ، أو يشاكله في الإعجاز ، مع ما وقع من التحدي رأينا أنه خـارق للمعروف في الجبلة ، وخرق العادة إنما يقع بالمعجزات على وجه إقامة البرهان على النبوات)[٢] .

(ثم ينبه الباقلاني إلى حقيقة أخرى من حقائق الإعجاز ليست راجعة إلى إحكـام بـنائه ، وإنمـا تـرجع إلى أمـر إلهـي فيه ، وهو أثره في الـنفوس)[٣]، واعتقد أن هذا هو ما أسماه سيد قطب – رحمه الله – سحر القرآن[٤] وهو حق يقر به الأعاجم قبل العرب ؛ ولكن إعجازه البلاغي آكد وأدخَل في النفس .

١ـ انظـر (دراسـة الـباقلاني للنظم القرآني) للدكتور عبد العزيز أبو سريع ياسين ، ص٨٧ ، مطبعة السعادة ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ – ١٩٩١م

٢ـ انظر (إعجاز القرآن) للباقلاني ، ص٢٨٧ . تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الثالثة .

وكذا (الباقلاني وكتابه وإعجاز القرآن) د. عبد الرؤوف مخلوف ، ص٣١٩ ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٣م .

٣ـ انظر (الإعجاز البلاغي) د. أبي موسى ، ص٢٤٨ .

وقـد قـال هـذا من قبل الخطابي وعلله بأن بلاغة القرآن قد حازت من كل قسم من أقسام الكـلام غيـر الهجيـن المذمـوم ، وأخذت من كل نوع من الأنواع شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصـاف نمط من الكلام يجمع بين الفخامة والعذوبة مع أنها متضادتان ، فكان اجتماع الأمرين في نظمه ... فضيلة خُص بها القرآن يسرها الله بلطف قدرته من أمره ... وهذا سبب أثره في النفوس .

انظر (بيان إعجاز القرآن) ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ، ص٢٦ .

٤ـ انظر (التصوير الفني في القرآن) ، ص١١ وما بعدها .

ومن معاصري الباقلاني : **القاضي عبد الجبار المعتزلي**(*) (ت ٤١٥هـ) فقد أفرد في كتابه (المغني) جزءً خاصاً بالإعجاز نقتطف منه ما نحن بصدده . يقول أبو الحسن : (اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام ، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة . ولابد من أن يكون لكل كلمة صفة ، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم ، وقد يكون بالإعراب الذي له مدخل فيه ، وقد يكون بالموقع ... وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع ... لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة أو حركاتها أو موضعها ، ولابد من هذا الاعتبار في كل كلمة ، ثم لابد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض ؛ لأنه قد يوجد لها عند الانضمام صفة ، وكذلك كيفية إعرابها وحركاتها وموقعها ، فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها) .

إذن لا فصاحة ولا بلاغة إلا بالنظم ؛ لأنه يعول عليه في ذلك مهما كان اللفظ فصيحاً والمعنى شريفاً ، يؤكد ذلك قوله : (والذي تظهر به المزية ليس إلا الإبدال أو التقديم أو التأخير الذي يختص بالموقع أو الحركات التي تختص بالإعراب ، فبذلك تقع المباينة بين الكلام الفصيح وغيره) . ثم يجعل حسن النغم وعذوبة القول مما يزيد الكلام حسناً على السمع .

كذلك ينوه القاضي عبد الجبار بالفطرة الذاتية في الإنسان التي تدعوه إلى الاختيار وحسن النظم والرصف وإخراج المعاني بصورة واضحة رائعة ، وهي هبة من الخلاق العظيم . يقول : (ولابد مع كل ما ذكرناه من تأييد وإلطاف يرد من قبل الله تعالى ؛ ولذا نجد المتكلم يروم طريقة في الفصاحة فتقرب عليه مرة وتبعد أخرى وحاله في العلم لا تكاد تختلف) .

---

* هو عبد الجبار ابن أحمد بن عبد الجبار العلامة المتكلم شيخ المعتزلة ، تصانيفه كثيرة منها (المغني) ، مات سنة ٤١٥هـ .

انظر (تهذيب سير أعلام النبلاء) ، ج٢ ، ص٢٧٣ .

ويخرج من هذا كله إلى أنه مهما تسابق المتسابقون في الحسن والمزية لا يمكن أن يقاربوا ما وصل إليه كلام الله المعجز ، مع أنه سلك نفس الطريق . ثم يقول : (والمعجزة القرآنية جاءت على هذا الاتجاه في النظم الذي يتفاضل منه الكلام ويتقدم بعضه على بعض . ثم حين انتهت غايات البيان العربي وحيث لم يكن للبلغاء والفصحاء مذهب وراء هذا ، فأخذ القرآن المجيد راية البيان وسار بها أشواطاً بعيدة ، وأرباب البيان والبلاغة واقفون مشدوهين مأخوذين)[1] .

ما نلبث أن نمضي في القرن الخامس الهجري حتى يستوقفنا إمام البلاغيين وشيخهم الشيخ **عبد القاهر الجرجاني**(*) بمؤلفاته العملاقة في البلاغة والإعجاز .

يلخص نظريته في إعجاز القرآن قائلاً : (أعجزهم مزايا ظهرت لهم في نظمه ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ، ومجاري ألفاظه ومواقعها ، وفي مضرب كل مثل ، ومساق كل خبر ، وصورة كل عظة ، وتنبيه وإعلام وتذكير ، وترغيب وترهيب ومع كل حجة وبرهان ، وصفة وتبيان ، وبهرهم أنهم تأمّلوه سورة سورة ، وعشراً عشراً وآية آية فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ،

١ـ انظر (المغني) للقاضي عبد الجبار ، ج١٦ ، ص٣٢١ – ٣٣٠ . تحقيق أمين الخولي ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٢٨٠هـ – ١٩٦٠م .

وكذا (الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق) د. عائشة عبد الرحمن ، ص١٠٧ – ١١٠ . دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الثانية .

وكذا (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري) د. محمد أبي موسى ، ص١٢٧ . مكتبة وهبة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م .

وكذا (القرآن الكريم معجزة وتشريع) لعبد الكريم النيازي ، ص١٥٢ – ١٥٣ .

* شيخ العربية أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني . أخذ النحو بجرجان وتبحر فيه وصنف كثيراً ، وأهم كتبه (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) ، توفي سنة ٤٧١هـ .

انظر (تهذيب سير أعلام النبلاء) ج٢ ، ص٤٠٥ .

ولفظـــة يُــنكر شأنها ، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه ، أو أحرى وأخــلق ، بــل وجــدوا اتســـاقاً بهر العقول ، وأعجز الجمهور ، ونظاماً والتــئاماً ، وإتقانـــاً وإحكاماً . لم يدع في نفس بليغ منهم ولو حكّ بيافوخه الســماء موضع طمع ، حتى خرست الألسن عن أن تدّعي وتقول ، وخذيت القروم فلم تملك أن تصول)(١) .

وقــد حــاول الإمــام عــبد القاهــر جاهداً نفسه في كتابيه (دلائل الإعجــاز) و(أسرار البلاغة) – حاول إجلاء الطريق الصحيح الموصل إلى كشــف بعض أسرار كتاب الله البيانية مشيراً إلى (أن الإعجاز يحتاج فــي فهمــه إلى ملكة بيانية ناضجة . وذوق بلاغي صحيح يستطيع القارئ بكــتاب الله أن يفهمــه عــلى ضوئهما وأن يدرك معناه من الأسلوب الذي استفاده منهما)(٢)

مــن الذين ساروا على منهج عبد القاهر التطبيقي وتفننوا فيه العالم **جار الله محمود الزمخشري**(*) (ت ٥٣٨هــ) .

حيــث أكّد أنه لا يصل إلى ما دق من معاني كتاب الله ولطائفه (إلا رجــل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعاني وعلم البيان ، وتمهــل في ارتيادهما آونة ، وتعب في التنقير عنهما أزمنة ، وبعثته على تتــبع مظانهمـــا همة في معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح

١ــ انظــر (دلائــل الإعجــاز) ، ص٣٩ . قرأه وعلق عليه الشيخ محمود شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة ، الطبعة الثالثة ١٤١٣ هــ – ١٩٩٢ م .

٢ــ انظــر (نظــرية إعجــاز القرآن عند عبد القاهر) للدكتور محمد حنيف فقيهي ، ص ، المكتبة العصرية للنشر والتوزيع ، الطبعة لثانية ، ١٤٠٧ هــ – ١٩٨٧ م .

* هــو أبــو القاســم محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري الإمام الكبير في التفسير والحديــث والــنحو والــلغة وعلم البيان . معتزلي الاعتقاد ، كانت ولادته سنة ٤٦٧هــ بزمخشر ، ووفاته سنة ٥٣٨هــ بجرجانيا ، وأهم مؤلفاته مما – يخصنا – (الكشاف) .

انظر (وفيات الأعيان) ، ج٥ ، ص١٦٨ – ١٧٤ .

معجـــزة رسول الله)[١] . ورأيه هذا يدل على أن النظم عنده هو أمُّ إعجاز القرآن ، وأنه القانون الأولى بالرعاية والنظر حين التصدي لتفسير القرآن ، لذلـــك فقـــد عالجـــه عـــلى نطـــاق واسع في تفسيره الشامل لسور القرآن جميعاً[٢] ، فوقف على مزية نظم القرآن من ناحية الجمال الحادث من أحكام معاني النحو ، وتنبه إلى إيحاءات الألفاظ وما تلقيه من ظلال معنوية ونفسية اســتجلى جمالهـــا بـــبراعة ، وعرض للألفة النفسية والمعنوية بين الألفاظ المـــنظومة وحـــلل جمالياً المعاني النفسية الكامنة وراء النظم أي نظر إليها بوصفها وحدة معنوية[٣] .

ومـــن المفســـرين الذيـــن أكدوا أن معجزة القرآن الكريم في نظمه الـــبلاغي **ابن عطية**[*] (ت ٥٤١هـــ) ، يقول في مقدمة تفسيره : (وهذا هو القول الذي عليه الجمهور والحذاق ، وهو الصحيح في نفسه أن التحدي إنما وقع بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه)[٤] .

ثـــم يقـــول : (ووجه إعجازه أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً وأحـــاط بـــالكلام كله علماً ، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظـــة تصـــلح أن تلي الأولى وتبين المعنى تلو المعنى ، ثم كذلك من أول

١ــ (الكشـــاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) ، ج١ ، ص٣ . دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة بدون .

٢ــ (القرآن الكريم معجزة وتشريع) ، ص١٦٣ .

٣ــ (منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه) لمصطفى الجوني ، ص٢٩ .

* هو الإمام أبو بكر أحمد بن القاسم بن عطية ، أحد الحفاظ الرحالة ، قيل عنه أنه ثقة . ولد سنة ٤٨٠ هـــ ، ومات سنة ٥٤٠ هـــ ، وقيل ٥٤٦ .

(تهذيب سير أعلام النبلاء) ، ج١ ، ص٥٠٤ .

٤ــ (المحـــرر الوجيز) ، ج١ ، ص٥٢ . تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٣هـــ - ١٩٩٣ م .

القـــرآن إلى آخــــره ، والبشر معهم الجهل ، والنسيان ، والذهول ، ومعلوم ضرورة أن بشراً لم يكن قط محيطاً)[١] .

ثم يؤكد رأيه بقوله : (فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصـــاحة)[٢] . وبتأكيده أن إعجاز القرآن يعود إلى نظمه المتفرد يدحض حجـــة القائلين بالصرفة . ثم يقول : (والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكـــن قط في قدرة أحد من المخلوقين ... وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب بأن يوجد أحسن منها لم يوجد)[٣] .

وقـــد نهج الإمام **فخر الدين الرازي**[*] (ت ٦٠٦هـــ) هذا النهج ، وعقـــد فصلاً في كتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) لإثبات معجزة القـــرآن ، خـــلص فيه إلى أن القرآن معجز بنظمه البلاغي بعد أن رد كل حجة سواها .

يقـــول الـــرازي بعد أن نقض وجوهاً عدة لإعجاز القرآن : (ولما بطـــلت هـــذه المذاهب ولا بد من أمر معقول حتى يصح التحدي به ويعجز الغيـــر عنه ، ولم يبق وجه معقول في الإعجاز سوى الفصاحة ؛ علمنا أن الوجه في كون القرآن معجزاً هو الفصاحة)[٤] .

١ـــ انظر (المحرر الوجيز) ، ج١ ، ص٥٢ .

وكـــذا (الإتقـــان في علوم القرآن) لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، ج١ ، ص١١٩ ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة بدون .

وكذا (أسرار ترتيب القرآن) للسيوطي ، ص١٥ ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا .

٢ـــ انظر (المحرر الوجيز) ، ج١ ، ص٥٢ .

٣ـــ انظر (المحرر الوجيز) ، ج١ ، ص٥٢ .

* هـــو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الملقب بفخر الدين والمعروف بابن الخطيب ، الفقيه الشـــافعي ... لـــه التصانيف المفيدة في فنون عديدة منها تفسير القرآن الكريم . توفي سنة ٦٠٦هـــ بمدينة هراة .

انظر (وفيات الأعيان) ، ج١ ، ص٢٤٨ – ٢٥٢ .

٤ـــ انظـــر (نهايـــة الإيجـــاز في دراية الإعجاز) لفخر الدين الرازي ، ص٣٤ ، تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور محمد بركات أبو علي ، دار الفكر للنشر .

ثم يقول في فصل شروط الفصاحة : (لما ثبت أن عجز العرب إنما كـــان عن المزايا التي ظهرت لهم في نظم القرآن والبدائع التي راعتهم في مضـــرب كل مثل ومساق كل خبر وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام وتذكير وجب على الغافل أن يبحث عن تلك المزايا والبدائع ، ما هي ؟ وكم هي ؟ وكيـــف هـــي ؟ ولا يمكـــن ذلـــك إلا بالبحث عن حقيقة المجاز ، وحقيقة الاســـتعارة ، وحقيقـــة التشبيه والتمثيل ، وحقيقة النظم والتقديم والتأخير ، والإيجاز والحذف ، والوصل والفصل ، وسائر وجوه المحاسن المعتبرة في النظم والنثر)[١] ، وهذه الوجوه بجملتها هي ما شكلت نظم القرآن المعجز.

ولـــم يقتصـــر هـــذا الـــرأي في وجه إعجاز القرآن على البلاغيين ومفسري القرآن الكريم بل كان شائعاً بين كافة العلماء وكأنه الرأي المسلم بـــه بداهـــة . فهذا هو **ابن خلدون**[*] يذكره في مقدمته ويؤكد عليه قائلاً : (واعلم أن ثمرة هذا الفن – يقصد علوم البلاغة – إنما في فهم الإعجاز من القـــرآن لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومـــة ، وهـــي أعـــلى مراتب الكمال ، وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهـــام عـــن إداركـــه . وإنمـــا يدرك بعض الشيء منه مَن كان له ذوق بمخالطـــة اللســـان العربي وحصول ملكته ، فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه)[٢] .

١ـــ انظر (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) لفخر الدين الرازي ، ص٣٤ .

* هـــو عـــبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن خلدون الحضرمي ، استوطن القاهرة آخر حياته ، وتولى القضاء فيها ، وتوفي سنة ٨٠٨ هـــ ، وله من العمر ست وسبعون سنة .

انظر (مقدمته) ، ص٨ .

٢ـــ انظر (مقدمة ابن خلدون) ، ص٥٥٣ . تحقيق درويش الجودي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤١٦هـــ – ١٩٩٦ م .

وهكذا لا نكاد نجد عالماً من علماء السلف إلا وقد أدلى بدلوه في هذه الفضيلة التي استحوذت على اهتمام الجميع . فهاهو ذا **السيوطي**(*) صاحب (الإتقان) و(تفسير الدر المنثور) يستعرض في إتقانه الآراء المختلفة في وجـــوه إعجـــاز القـــرآن(١) ، ثم (يرى أن إعجاز القرآن متعلق بفصاحته وبلاغـــته ، والفصـــاحة ليست في ألفاظ القرآن ، فإن ألفاظه ألفاظهم ... وبلاغـــته ليســـت فـــي معـــاني القرآن ؛ لأن كثيراً منها موجود في الكتب المـــتقدمة ، وظهر من هذا أن الإعجاز المختص بالقرآن إنما يتعلق بالنظم المخصـــوص وحسن التأليف والتئام الكلمات ، فجاء أسلوبه الغريب مخالفاً لأساليب كلام العرب ، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له)(٢) .

وهكـــذا يجد الباحث في كتب الأولين أن فكرة الإعجاز البلاغي في القـــرآن الكـــريم قد رسخت واستقرت وتمكنت أيما تمكن عبر الأجيال فلا يمضـــي قـــرن من الزمان دون أن يكون حاملاً بين ذراعيه رجالاً يرددون ذلك في مؤلفاتهم دراسة أو تقليداً حتى أسلمتها يد الزمان إلى علماء عصرنا الأفاضل ؛ وما ذاك إلا لأنها هي الحق دون مراء .

فمـــن عـــلماء عصرنا الحديث المرحوم **مصطفى صادق الرافعي** ، وكتابه (إعجاز القرآن) . يقول الرافعي : (لولا أن القرآن الكريم قد ملك سر هذه الفصاحة وجاءهم منها بما لا قبل لهم برده ولا حيلة معه مما يشبه عـــلى التمام أساليب الاستهواء في علم النفس ، فاستبد بإرادتهم وغلب على طبائعهم وحال بينهم وبين ما نزعوا إليه من خلافة حتى انعقدت قلوبهم عليه

---

* شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي ، توفي سنة إحدى عشرة وتسعمائة . انظر مقدمة كتابه (الإتقان) .

١ـــ انظر (الإتقان) ، ج١ ، ص١١٦ – ١٢٣ .
وكذا (تهذيب الإتقان) للدكتور محمد بازمول ، ص٥٤ –٦٢ .

٢ـــ انظر (من علوم القرآن وتحليل نصوصه) للدكتور عبد القادر حسين ، ص١١٣ .

وهـم يجهدون في نقضها ، واستقاموا بدعوته وهم يبالغون في رفضها ... فكـانوا يفرون منه في كل وجه ثم لا ينتهون إلا إليه ، إذ يرونه أخذ عليهم بفصـاحته وإحكـام أسـاليبه جهات النفس العربية . والمكابرة في الأمور النفسـية لا تتجاوز أطراف الألسنة ، فلو أن القرآن غير فصيح ، أو كانت فصاحته غير معجزة في أساليبها التي ألقيت إليهم ، لما نال منهم على الدهر مـنالاً ، ولخـلا مـنه موضعه الذي هو فيه ، ثم لكانت سبيله بينهم سبيل القصـائد والخطـب والأقاصيص وهو لم يخرج عن كونه في الجملة كأنه موجود فيهم بأكثر معانيه ، قبل أن يوجد بألفاظه وأساليبه ، ثم لنقضوه كلمة كـلمة ، وآية آية ، دون أن تتخاذل أرواحهم ، أو تتراجع طباعهم ، ولكان لهـم ولـه شأن غير ما عرف ، ولكن الله بالغ أمره ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً)[١] .

ومن تصدى لهذه القضية في العصر الحديث الدكتورة **عائشة عبد الـرحمن** ، تقـول في كتابها (الإعجاز البياني في القرآن) : (ومن قديم فرضـت قضـية الإعجـاز نفسها على السلف من العلماء المسلمين على اخـتلاف مذاهـبهم وتعددت أقوالهم في وجوه هذا الإعجاز ، وأياً ما قالوا فيها ، فالذي لا ريب فيه هو أن إعجازه البلاغي لم يكن قط موضع جدل أو خـلاف ، وإنمـا كـان الجدل بين الفرق الإسلامية في اعتباره الوجه في الإعجاز أو القول معه بوجوه أخرى)[٢] .

١ـ انظر (من علوم القرآن وتحليل نصوصه) للدكتور عبد القادر حسين ، ص١٦٠ ، ١٦١ .

٢ـ انظر (الإعجاز البياني في القرآن) ، ص٨٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية .

وخلاصة القول : إن الإعجاز البلاغي – وإن لم يكن الوجه الأوحد فـــي إعجـــاز القـــرآن – هو المقصود بالتحدي عند نزوله فهو الذي أعجز العـــرب المعاصرين لنزوله ، وبعجزهم ثبت عجز غيرهم ،ولا يزال نظمه الـــبلاغي معجـــزاً على مر الزمان وسيظل مهما تكشف للقرآن من أسرار وأســـرار ، ومهما خاض في تفسيره أجيال وأجيال ؛ لأنه كما قال منزله – سبحانه وتعالى – :

{ كتابٌ أُحكِمَتْ آياتُهُ ثمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حكيمٍ خبيرٍ }[١] .

ثانياً : بين يدي سورة النساء :

هذه السورة العظيمة من السور المدنية إلا آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح في عثمان بن طلحة الحجبي ، وهي قوله تعالى : **{ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلأى أهلها }**[٢] . وهي من أواخر ما نزل من القرآن الكريم وأيضاً من السبع الطوال في هذا الكتاب العظيم ، وكلا الأمرين يثير اهتمام المسلم ، الباحث عن الترابط القوي بين آي وسور المصحف الشريف .

يـــروي الإمام البخاري – في فضائل القرآن – (إن عراقياً سأل أم المؤمـــنين عائشـــة رضي الله عنها أن تريه مصحفها فقالت : لِمَ ؟ ، قال : لعلي أؤلف القرآن عليه ، فإنه يقرأ غير مؤلف ، قالت : وما يضرك ؟ أيَّه قرأتَ قَبِل ، إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل ، فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام ، نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شـــيء : لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل : لا

١ـــ جزء من الآية (١) ، سورة هود .

٢ـــ جزء من الآية (٥٨) .

انظر (فتح القدير) للشوكاني ، ج١ ، ص٤١١ .

وكذا (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج٢ ، ص٣ .

تـــزنوا ، لقالوا : لا ندع الزنا أبداً . لقد نزل بمكة على محمد وإني لجارية ألعـــب : { **بــل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر** } وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده ، قال : فأخرجت له المصحف فأملت عليه آي السور)[١]

ويعــلق الإمــام البقاعي على هذه القصة ، فيقول : (وقد عنت بهذا رضـــي الله عنها أن القرآن حاز أعلى البلاغة في إنزاله مطابقاً لما تقتضيه الأحــوال بحســب الأزمان ، ثم رُتِّب على أعلى وجوه البلاغة بحسب ما تقتضيه المفاهيم من المقال – كما نشاهده من هذا الكتاب البديع المثال البعيد المنال)[٢] .

فضلها :

روي في فضل هذه السورة ما أخرجه الحاكم في مستدركه عن عبد الله بن مسعود قال : (" إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أن لي بهــا الدنيا وما فيها { **إن الله لا يظلم مثقال ذرة** }[٣] الآية ، و{ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه** }[٤] الآية ، و { **إن الله لا يغفر أن يشرك به** }[٥] الآية ، { **ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم** }[٦] الآية)[٧] .

وعن ابن عباس قال : " ثمان آيات نزلت في سورة النساء هن خير لهــذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت " وذكر ما ذكره ابن مسعود ،

١ـــ انظر صحيح البخاري

وكذا (نظم الدرر) للبقاعي ، ج٥ ، ص١٦٩، ١٧٠ .

٢ـــ المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

٣ـــ جزء من الآية (٤٠) .

٤ـــ جزء من الآية (٣١) .

٥ـــ جزء من الآية (٤٨) ومن الآية (١١٦) .

٦ـــ جزء من الآية (٦٤) .

٧ـــ انظر (فتح القدير) ج١ ، ص٤١٦ .

وزاد : **{ يـــريد الله ليبين لكم }**[١] الآية ، **{ والله يريد أن يتوب عليكم }**[٢] الآية ، و **{ يريد الله أن يخفف عنكم }**[٣] الآية[٤] .

سبب تسميتها :

قال أحد المفسرين : (لما كان مقصودها الاجتماع على مادعت إليه السـورتان قبـلها من التوحيد وكان السبب الأعظم في الإجتماع التواصل والـتراحم عـادة الأرحام العاطفة التي مدارها النساء – سميت (النساء) لذلك ، ولأن بالاتقاء فيهن تتحقق العفة والعدل الذي لبابه التوحيد)[٥].

كماأن السورة جمعت أحكاماً كثيرة تتعلق بأمور النساء وفصلت فيها القـول مـن أهمها وأبرزها : إثبات حقهن في الإرث لأول مرة في تاريخ البشرية ، فقد كان قبلُ أمراً مستنكراً لا عهد للناس به ، ولعل هذا هو أخص الأسباب وأقواها في التسمية .

المحور الأساسية التي دارت حولها مفاهيم هذه السورة المباركة:

المحـور الأول : تطهيـر المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية في الفرد والجماعة ، وذلك في مثل قوله تعالى : **{ يا أيها اللذين آمنوا لا يحل لكـم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلاَّ أن يـأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتوهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً }**[٦] .

١ـــجزء من الآية (٢٦) .

٢ـــ جزء من الآية (٢٧) .

٣ـــ جزء من الآية (٢٨) .

٤ـــ انظر (فتح القدير) ج١ ، ٤١٧ .

٥ ـــ انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج٥ ، ص١٧١.وقد غفل البقاعي حين قال : السورتان التي قبلها ، لأن ما قبلها الفاتحة والبقرة وآل عمران .

٦ ـــ الآية (١٩) .

لقد كانت المرأة في الجاهلية تورث كالسائمة أو البهيمة فأنقذها الإسلام من ذلك في هذه الآية الكريمة ، وطهّر المجتمع المسلم من هذه الجريمة ، كما حرّم العضل الذي كانت المرأة تُسامهُ وجعل لها حريتها في اختيار من تعاشر وأوجب على الرجال العشرة بالمعروف ، حتى في كراهية الزوجة مالم تصبح العشرة متعذرة[١] .

ومنه أيضاً قوله تعالى : { **ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشةً ومقتاً وساء سبيلاً** }[٢] .

ومن أمثال ذلك كثير فيما يخص النساء والمعاملات والعلاقات العامة والخاصة .

المحور الثاني : تحقيق علم المواريث .

وذلك بتقرير المبدأ العام للتوارث في مثل قوله تعالى : { **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً** }[٣] .

ثم بالتفريع والتوزيع للأنصبة في ظل تلك الحقيقة الكلية في آيتين ، أولاهما خاصة بالورثة من الأصول والفروع وذلك في قوله تعالى : { **يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ...** }[٤] . والثانية خاصة بحالات الزوجية والكلالة في قوله تعالى : { **ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ...** }[٥] . ثم تجيء بقية أحكام الورثة في آخر آية في السورة استكمالاً لحالات

---

١ ــ انظر (ظلال القرآن) لسيد قطب ،ج٢ ، ص٢٨٥ــ٢٨٦

٢ ــ الآية (٢٢) .

٣ ــ الآية (٧) .

٤ ــ جزء من الآية (١١) .

٥ــ جزء من الآية (١٢) .

الكلالة[١] وربطاً لبداية السورة بنهايتها في قوله تعالى : **{ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ... }**[٢] .

المحـــور الثالث : بناء المجتمع الجديد على أسس المنهج الإسلامي الجديد .

وذلـــك قائم على أساس التكافل والتلاحم والتناصح بنظم الشرع وهو كـــثير جداً ، منه على سبيل المثال قوله تعالى : **{ وليخش اللذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافو عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً }**[٣] . وهـــي رحمة من الله باليتيم لشدة ضعفه وعوزه إلى من يرق له ويتلطف به ويـــتكفل بشؤونه . ومنه قوله تعالى : **{ واعــبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبـــالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الحنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً }**[٤] .

كم جمعت هذه الآية من ضروب الحق والخير التي تعتبر الدعامات الأساســية فـــي بناء الفرد والمجتمع بناءاً سليماً يقوم على التكافل والتراحم ومثل ذلك قوله تعالى : **{ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمـــتم بيـــن الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعمّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً }**[٥] .

---

١ ـــ انظر (ظلال القرآن) لسيد قطب ،ج٢ ، ص٢٦٠ .

٢ ـــ جزء من الآية (١٧٦) .

٣ ـــ الآية (٩) .

٤ ـــ الآية (٣٦) .

٥ ـــ الآية (٥٨) .

المحـــور الـــرابع : الـــتأكيد عـــلى التكاليف الشرعية في العبادات والمعاملات .

مـــثل قولـــه تعـــالى : **{ يا أيها اللذين ءآمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً }**[١] .

فمن أخص التكاليف الشرعية في العبادات طاعة الله وطاعة رسوله وتتـــبعها طاعـــة أُولي الأمر فإنها عنوان الإيمان ، هذا ما أكدته هذه الآية الكريمة وأمثالها كُثر في هذه السورة وفي غيرها .

ومن ذلك قوله تعالى : **{ فليقاتل في سبيل الله اللذين يشرون الحياة الدنيـــا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يغلب فسوف يؤتيه أجراً عظيماً }**[٢] . أعظم العبادات بعد طاعة الله ورسوله بيع الدنيا بشراء الآخرة رغبةً فيما عند الله .

ومّمـــا جاء في المعاملات قوله تعالى : **{ يا أيها اللذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غـــنياً أو فقيـــراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً }**[٣] .

تؤكـــد الآيـــة الكـــريمة عـــلى إقامة العدل بين الناس جاعلةً القاعدة الأساسية في هذا العدل تعامل الفرد والجماعة مع الله مباشرةً طلباً فيما عنده سبحانه .

ومـــن أمثـــلة المعـــاملات أيضاً قوله تعالى : **{ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلاّ من ظُلم وكانم الله سميعاً عليماً }**[٤] . لقد أكدت هذه

---

١ ــ الآية (٥٩) .

٢ ــ الآية (٧٤) .

٣ ــ الآية (١٣٥) .

٤ ــ الآية (١٤٨) .

الآيـــة الكـــريمة مبدأ حماية الإسلام لسمعة الناس مالم يظلموا فإذا ظلموا لم يســـتحقوا هذه الحماية وأُذن للمظلوم أن يجهر بكلمة السوء في ظالمه وهو الاستثناء الوحيد من كف الألسنة عن كلمة السوء[١] .

المحور الخامس : كشف أعداء الإسلام وكيدهم والتحذير منهم .

مـــن مثل قوله تعالى : **{ ألم تر إلى اللذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشـــترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل ، والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً }**[٢] .

هكـــذا يصـــرح المولى بالعداء المتأصل بين الجماعة المسلمة وأهل الكتاب ويكشف نواياهم الخبيثة ضد الإسلام والمسلمين .

كـــم تكشـــف آيات هذه السورة المباركة حبائل الخداع الذي انطوت عـــليه نفوس المنافقين المندسين بين صفوف المسلمين وظهرانيهم مثل قوله تعـــالى : **{ ألم تر إلى اللذين يزعُمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به فيريد الشـــيطان أن يضـــلهم ضلالاً بعيداً ، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً }**[٣] .

وأعجب العجب من هؤلاء المنافقين أنهم لا يفعلون هذا عن جهل ولا عـــن ظـــن وإنما هم يعلمون يقيناً ويعرفون تماماً أن هذا الطاغوت محرمُ الـــتحاكم إليه ولكنهم انساقوا وراء الشيطان الذي يريد بهم الضلال الذي لا يُرجى منه مآب[٤] .

وقـــد وقفت الآيات أيضاً مع المشركين وقفةً كشفت دخائلهم الخبيثة مـــن ذلـــك قوله تعالى : **{ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى**

---

١ ـــ انظر (ظلال القرآن) لسيد قطب ، ج٢ ، ص٥٧٨ ، ٥٧٩ .

٢ ـــ الآيتان (٤٤ ، ٤٥) .

٣ ـــ الآيتان (٦٠ ، ٦١) .

٤ ـــ انظر المرجع السابق ، ج٢ ، ص٤٢٢ .

ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولّى ونصله جهنم وساءت مصيراً }[١] .

فالآية لفظ عام في كل مشرك ونزلت في طُعمة بن أُبيرق لأنه ارتدّ وسار إلى مكة[٢] .

الخصائص الأسلوبية في سورة النساء :

انفردت سورة النساء المباركة عن بقية السور بخصائص أسلوبية من أهمها :

١ـ احتواء السورة الكريمة على الجملة الإسمية التي يكون المسند إليه فيها لفظ الجلالة ودخلت عليها (كان) الناسخة وقد اقترنت بأن الناسخة احدى وعشرين مرة وذلك من مثل قوله تعالى : **{ إن الله كان عليكم رقيباً }**[٣] ، وقوله تعالى : **{ إن الله كان عليماً حكيماً }**[٤] ، وقوله تعالى : **{ إن الله كان تواباً رحيماً }**[٥] .

كما أتت (كان) الناسخة وحدها دون (إن) الناسخة ثلاث وعشرين مرة ، من مثل قوله تعالى : **{ وكان الله بهم عليماً }**[٦] ، وقوله تعالى : **{ وكان الله على كل شيءٍ مقيتاً }**[٧] ، وقوله تعالى : **{ وكان الله غفوراً رحيماً }**[٨] ، فكان مجموع ذلك أربعاً وأربعين مرة .

---

١ ـ الآية (١١٥) .

٢ ـ انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ،ج٢ ، ص١١٢ .

وقصة طُعمة بن أُبيرق سيرد ذكرها ـ إن شاء الله ـ في صفحة ٤٥١.

٣ ـ جزء من الآية (١) .

٤ ـ جزء من الآية (١١) .

٥ ـ جزء من الآية (١٦) .

٦ ـ جزء من الآية (٣٩) .

٧ ـ جزء من الآية (٨٥) .

٨ ـ جزء من الآية (٩٦) .

وأحسب أن هذا التأكيد الذي تحمله (إن) و (كان) والتعظيم الذي يحملـــه لفـــظ الجلالة (المسند إليه) يتناسب مع المحاور الأساسية في هذه السورة المباركة .

٢ــ ومـــن الخصائص الأسلوبية أيضاً تلك التفصيلات الدقيقة لكثير من الأمور المجملة فيما قبلها ، مثل :

أ ــ خـــلق الإنســـان الـــذي ورد فـــي الآية الأولى من هذه السورة المـــباركة : **{ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءاً واتقوا الله الذي تسائلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً }**[١] . جاء مثل هذا النداء في سورة البقرة بيـــن يدي الأمر بالعبادة كتعليل لها وحجةً على العباد بخلقه لهم وذلك في قـــولـــه تعالى :**{ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون }**[٢] .

ذُكر الخلق فيها مجملاً بالنسبة لما فُصل في آية النساء : **{ خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءاً }**.

ب ــ الإحســـان إلى الـــناس : جاء في سورة البقرة : **{ وإذ أخذنا ميـــثاق بـــني إسرائيل لا تعبدون إلاّ الله وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً... }**[٣] ، فما أُجمل في قوله تعالى : **{ وقولـــوا للـــناس حسناً }** فُصِّل في سورة النساء في قوله : **{ والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ...}**[٤] .

---

١ ــ الآية (١) .

٢ ــ الآية (٢١) من سورة البقرة .

٣ ــ جزء من الآية (٨٣) من سورة البقرة .

٤ ــ جزء من الآية (٣٦) .

ج ــ الصــلاة : لقــد ذُكرت في سورة البقرة في ثمان مواضع كلها أتــت مجمــلة ، ومن ذلك قوله تعالى : **{ اللذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم يُنفقون }**[1] ، وقوله تعالى : **{ وأقيموا الصلاة وآتوا الــزكاة واركعــوا مع الراكعين }**[2] ، وقوله تعالى : **{ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلاَّ على الخاشعين }**[3] ، ونجدها في سورة النساء في ســتة مواضــع حملت معظمها تفصيلات دقيقة ، بل ناقشت بعض الآيات الاســتعداد النفســي والذهني لها قبل أدائها كما فصلت في أنواعها كصلاة الأمن والخوف والصلاة في وقت الأذى ، ومن ذلك قوله تعالى : **{ يا أيها الــلذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جُنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحدٌ منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءاً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً }**[4] .

ومــن تلك التفصيلات قوله تعالى : **{ وإذا ضربتم في الأرض فليس عــليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم اللذين كفروا إن الكافــرين كانوا لكم عدواً مبيناً ، وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طآئفــة مــنهم معــك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولــتأتي طآئفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ودَّ الــلذين كفــروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلةً واحــدة ولا جــناح عــليكم إن كان بكم أذى من مطرٍ أو كنتم مرضى أن تضــعوا أســلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً ، فإذا**

---

١ ــ الآية (٣) من سورة البقرة .

٢ ــ الآية (٤٣) من سورة البقرة .

٣ ــ الآية (٤٥) من سورة البقرة .

وكذا الآيات (٨٣ ، ١١٠ ، ١٥٣ ، ١٧٧ ، ٢٣٨) .

٤ــ الآية (٤٣) .

قضـــيتم الصـــلاة فاذكـــروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فإذا اطمَأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً }[١] .

د ــ الـــتوبة والاســـتغفار : جاء ذكرها في سورة البقرة في خمس مواضـــع كـــلها مجملة مثل قوله تعالى : **{ وإذ قال موسى لقومه يا قومي إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم ... }**[٢] ، وفي سورة آل عمران في ثلاثة مواضع منها قوله تعالى : **{ وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربكـــم وجـــنة عرضها السماوات والأرض أُعدت للمتقين }**[٣] ، أما سورة النســـاء ذُكـــر فيهـــا الـــتوبة والاستغفار في عشر مواضع تحمل معظمها تفصيلات دقيقة منها قوله تعالى : **{ إنما التوبةُ على اللذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيماً ، وليســـت التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنِّـــي تـــبت الآن ولا الـــلذين يموتـــون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً }**[٤] .

٣ــ الوحدة الموضوعية :

ظهـــرت تـــلك الوحدة الموضوعية بين هذه السورة والسور السابقة عـــليها فـــي كثير من القضايا الدينية كما قال أحد المفسرين : (مقصودها الاجتماع على التوحيد الذي هدت إليه آل عمران ، والكتاب الذي حدَّث عليه البقرة لأجل الدين الذي جمعته الفاتحة)[٥] ، وفي موضع آخر يقول : (لما

---

١ ــ الآيات (١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣) .

٢ ــ جزء من الآية (٥٤) من سورة البقرة .

بقية المواضع الخمسة الآيات (٥٨ ، ١٦٠ ، ١٩٩ ، ٢٢٢) .

٣ ــ جزء من الآية (١٣٣) من سورة آل عمران .

وكذا الآياتين (١٣٥ ، ١٣٦) .

٤ ــ الآيتان (١٧ ، ١٨) .

وبقية المواضع التي ذُكر فيها هذا الغرض الآيات (١٦ ، ٢٧ ، ٤٨ ، ٦٤ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٤٦) .

٥ــ انظر (نظم الدرر للبقاعي) ج٥ ، ص١٦٩ .

تقرر أمر الكتاب الجامع الذي هو الطريق ، وثبت الأساس الحامل الذي هو التوحيد ، أُحتيج إلى الاجتماع على ذلك فجاءت هذه السورة داعيةً إلأى الاجتماع والتواصل والتعاطف والتراحم)[١] ومن أمثلة تلك الوحدة الموضوعية معجزة خلق الإنسان فقد تضمنت سورة البقرة ابتداء الخلق وإيجاد (.آدم) ـ عليه الصلاة والسلام ـ من غير أبٍ ولا أمٍ ، ثم عقبت سورة آل عمران ببيان أمر (عيسى) ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأنه كمثل (آدم) في عدم الافتقار إلى أبٍ وعلم الموقنون من ذلك أنه تعالى لو شاء لكانت سنته فيمن بعد (آدم) ـ عليه السلام ـ ألا يتوقف الخلق إلا على أمٍ فقط ؛ أعلم سبحانه الخلق أن مَن عدا هذين المذكورين عليهما السلام سبيله سبيل الأبوين فقال سبحانه وتعالى في أول هذه السورة : **{ يا أيها الناس ...}**[٢] ، ثم أعلم سبحانه وتعالى كيفية النكاح المجعول سبباً في التناسل أو ما يتعلق به ، كما بيّن حكم الأرحام والمواريث ، فتضمنت السورة المباركة ابتداء الأمر وانتهائه ، إنه سبحانه علمنا كيفية التناكح وصور الاعتصام واحترام بعضنا البعض وكيفية تناول الإصلاح فيما بين الزوجين عند التشاجر والشقاق .

بعض النواحي الإعجازية التي احتوتها الآية الأولى من سورة النساء:

لقد أتت هذه الآية الكريمة في تناسق محكم عجيب جامع لكثير من فنون البلاغة ، من هذا التناسق ما جاء في علم المعاني وذلك في النداء الكريم الذي افتتحت السورة به **{ يا أيها الناس }** فهو نداء لجميع الخلق غرضه التنبيه والإيقاظ من الغفلة واللهو على حقيقة الوقوف على قدرة الخالق ، ومن ثم الحذر من مغبة مخالفته وعقوق أمره **{ اتقوا ربكم الذي**

١ـ انظر (نظم الدرر) للبقاعي ج٥ ، ص١٧١ ، ١٧٢ .
٢ ـ جزء من الآية (١) .

خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءاً }.

والاتقاء من هذا الخالق يوحي للنفس الإنسانية بالخوف ، لهذا كان مفعول هذا الفعل مضافاً إلى الخالق مباشرةً ليكون مُشعراً بالرعاية الحسنة والعطف على هذا المخلوق المقهور ، ومُشعراً أيضاً بأن على هذا المخلوق أن يلتفت إلى عمق معنى التربية والإشفاق ، خاصةً أنه يزاولها فيما بين يديه من الأولاد والأنعام والطيور والنباتات ، وكل ما هو من مقومات سعادته في هذه الحياة ، مع الفارق الرائع بين من يربي وينتظر الانتفاع مما ربَّى ، ومن يربي وهو غني عن العالمين .

ومن علم المعاني أيضاً الاطناب بتكرار الأمر بالاتقاء ، وإسناد النسبة الإيقاعية إلى الذات المقدسة المستعلية ، وتذكير المخلوق بالتعلق بهذه الذات عند الشدائد الشديدة ، كما يتعلق بأنصاره من ذوي رحمه في قضاء حوائجه البسيطة ، فضلاً عن التذييل المستعلي بالرقابة والهيمنة **{ إن الله كان عليكم رقيباً }** .

كما أن التناسق المحكم في الآية الكريمة فيه من علم البيان الكناية عن الموصوف في متعلقي الفعل (خلق) ، أعني الكناية عن (آدم) في القول الكريم **{ خلقكم من نفسٍ واحدة }** ، والكناية عن (حواء) بالقول الشريف **{ وخلق منها زوجها }** .

وأيضاً الفعل في القول الكريم **{ وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءاً }** يُجسد عن طريق الاستعارة بالكناية حقيقة انتشار البشر وتزاحمهم في كل أرجاء المعمورة ، حيث شُبه التناسل الفائق الحصر عبر القرون والأجيال بالشيء الذي ينبث فينتشر ويتطاير فيتباعد حيناً ويلتحم آخر ، حسبما يجري عليه من صروف الدهر ونوازعه ، ثم أُستعير هذا الشيء الذي ينبث فينتشر لهذا التناسل العظيم ظن ثم حذف تاركاً الفعل (بثَّ) مُشعراً به كلازم من أخص صفاته .

كمـــا أن من علم البيان أيضاً العدول عن اسم الفاعل الذي يمكن أن ينـــتقل معـــناه ويـــتغير إلى الصـــفة المشبهه الدائمة المعنى مسبوقةً بأداة الاستعلاء المفيدة للتهديد بالقول الكريم **{ إن الله كان عليكم رقيباً }** .

أما عن علم البديع في هذه الآية الكريمة فإن تناسق عرض مضمون معـــناها ــ أعني معنى خلق النفس الواحدة ــ آدم عليه السلام كذكر يخلق مـــنه الأنثى ، ومعنى خلق الناس وبثهم في هذه المعمورة بطريق التناسل الكائن بين الذكر والأنثى بعد حديث خلق (آدم) في سورة البقرة دون ذكَرٍ ولا أنـــثى ، وخلق (عيسى) ــ عليه السلام ــ في سورة آل عمران دون ذكـــر ، أقـــول تناســـق عرض هذا المعنى بعد ذلك هو حديث حُسن تقسيم المعـــاني ، هـــذا فضلاً عن الطباق الواقع بين لفظتي (رجالاً ونساءاً) ، ومـــراعاة الـــنظير الـــذي تستند في فهمها على المناشدة المعروفة في كلام العرب عندما يقول بعضهم لبعض (أناشدك الله والرحم إلاّ فعلت كذا) .

هـــذا نموذج تحليلي ذكرت فيه شيئاً من علوم البلاغة في هذه الآية وقـــد دُرِســـت خلال البحث في غير هذه المواضع خمس عشرة مرة دليلاً ساطعاً على حسن الإستهلال في هذه السورة المباركة .

وبالله التوفيق .

الفصل الأول

نظم المفردات

المبحث الأول: بلاغة المفردة القرآنية في سورة النساء من حيث هيئتها.

المبحث الثاني: بلاغة المفردة القرآنية في سورة النساء من حيث مادتها.

مدخل :

إذا كـــان علم النظم وثيق الصلة بصحة تراكيب الكلام وسداد معناه وحســن رصفه الناتج عن علاقة كل كلمة بجاراتها وما تشعه مع أختها من إيحـــاءات معــنوية ذات تأثير نفسي [١]، فإن قرآننا الكريم يفوق كل ما قيل ويقـــال فـــي هـــذه الجوانب وفي أكثر منها مجتمعة ومتفرقة . والإحساس بالمفردة القرآنية وأثرها في التراكيب وتأثيرها على نمط الأسلوب هو نوع من الإدراك للإعجاز القرآني . ولأن جمال النظم ودقته لا يتأتى إلا بدراسة المفردة في سياق متكامل مترابط مع الجو المحيط بها ؛ ستقف الدراسة مع بعـــض أجــزاء هـــذا السياق كلما دعت الحاجة إلى ذلك استلهاماً لإعجاز المفردة موطن الدراسة .

ووقفتــنا الأولى – بحول الله وقوته – ستكون مع المفردة القرآنية في ســـورة النســـاء مـــن حيث هيئتها في تعريفها وتنكيرها ، وإفرادها وتثنيتها وجمعهـــا ، وكذا في تذكيرها وتأنيثها . وثَمَّ وقفة أخرى معها في مادتها – بعون الله وتوفيقه – .

---

١ ـــ انظر (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني /٨٠/ وما بعدها . تحقيق وتعليق الشيخ محمود شاكر، دار المدني ، جدة، الطبعة الثالثة ، ١٤١٣هـــ = ١٩٩٢م

المبحث الأول

بلاغة المفردة القرآنية في سورة النساء من حيث هيئتها

المطلب الأول: هيئة التعريف.

المطلب الثاني: هيئة التنكير.

المطلب الثالث: هيئة الإفراد والتثنية والجمع.

المطلب الرابع: هيئة التذكير والتأنيث.

المبحث الأول : بلاغة المفردة القرآنية في سورة النساء من حيث هيئتها .

الهيئة تعني الشكل الذي وردت فيه المفردة في سياق معين ، وقد تفارقه إلى شكل آخر في سياق آخر . مثل تذكير الاسم أو تعريفه بأل أو الإضمار ، أو اسم العلم ، أو الاسم الموصول . ونحوُ ذلك تنكيرُ الاسم أو تذكيره أو تأنيثه ، أو ضرورة إفراده لمقام يقتضي ذلك ، أو تثنيته أو جمعه لمقام آخر . ووراء كل هيئة منها سر بلاغي تحاول هذه الدراسة تفهُّمَه بعون الله وتوفيقه .

المطلب الأول : هيئة التعريف .

١ـ التعريف بالإضمار في هذه السورة المباركة :

حاولت الدراسة إحصاء هذا التعريف على النحو التالي :

ورد ضمير الغائب متصلاً ومنفصلاً ثلاثمائة وتسعين مرة ، وورد ضمير المخاطب مائة وإحدى وتسعين مرة ، أما ضمير المتكلم فقد ورد إحدى وخمسين مرة . هذا إحصاءٌ للضمائر البارزة فقط ، أما المستترة فلم تتعرض الدراسة لها ؛ لأنها خارجة عن اللفظة الظاهرة .

وبالاستقراء وجدت أن أهم الأغراض التي صورها الضمير هي : التعظيم ، والتأكيد ، وتصوير خلجات النفس ، والتهديد والوعيد . وأكثر ما يمثل هذه الأغراض ضمير المتكلم .

أما ضمير المخاطب فالغرض الرئيس فيه طلبُ المواجهة بأمر (ما) ، قد يكون للتنبيه والحث ، وقد يكون للتكريم ، وقد يكون للملكية ، وقد يكون للإلزام بالتشريع ، وقد يكون لإيقاظ النفس وتحريك المشاعر ، إلى آخره .

وضـــمير الغائب يخدم أغراضاً أهمها الملكية ، أو تأكيد المعنى ، أو التعظيم أو التحقير . وستتناول الدراسة هذه الأغراض كلاً على حدة بمشيئة الله .

أ ــ ضمير المتكلم :

أولاً : التعظيم .

هــذا الغرض كثيراً ما يصاحب نون العظمة التي ترد في حق الله – جل جلاله - في القرآن الكريم . وذلك مثل قوله تعالى :

{ فكيفَ إذا جِئنا مِن كلِّ أمّةٍ بشهيدٍ وجِئنا بكَ على هؤلاءِ شهيداً}[١]

ســياق الآيـــات الســـابقة [٢] واللاحقة [٣] يركز على عقيدة التوحيد ومعالمـــه الرئيسية ، ويجعلها القاعدة الأساسية للسلوك في هذه الحياة بحيث لا يُــتَرَقَّبُ إلا رضاه سبحانه ولا يُخشى إلا سخطه . هذا مفاد تلك الأوامر والـــنواهي الـــتي تتابعت تحمل معها الترغيب والترهيب ، وتنتهي بتصوير مشـــهد عظيم (من مشاهد يوم القيامة يرسم حركة النفوس والمشاعر كأنها شاخصة متحرّكة) [٤] : { فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هــؤلاء شهيداً } هي (ساحة العرض الواسعة ، وكل أمة حاضرة ، وعلى كل أمة شهيد بأعمالها)[٥] جاء به الملك الديان بقدرته العظيمة ، ثم تتناهى العظمة بمجيء الرسول الرؤوف الرحيم[٦] شهيداً على كافة الأمم .

---

١ ــ الآية : (٤١) من سورة النساء .

٢ ــ انظر الآيات (٣٦ – ٣٩) من سورة النساء .

٣ ــ انظر الآية (٤٣) من ذات السورة .

٤ ــ انظــر (فــي ظلال القرآن) لسيد قطب ، ج٢ ، ص٣٧٢ ، دار إحياء التراث العربي ، ودار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة السابعة ، ١٣٩١هــ – ١٩٧١م .

٥ ــ المرجع السابق ، ج٢ ، ص٣٧٣ .

٦ ــ قــال تعــالى : **{ لقد جاءكم رسولٌ من أنفسِكم عزيز عليه ما عنتّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم }** ، الآية (١٢٨) من سورة التوبة .

أي موقــف هــذا ، وأي عظمة يحملها ضمير العظمة في " جئنا " ، وقد زاده هيبة لفظ الاستفهام الذي قد تصدّرت الآية به " كيف " الذي يوحي بالــتعجب والحيرة والرهبة التي ملأت صدر الرسول صلى الله عليه وسلم حتى فاضت عيناه حينما تُليتْ عليه هذه الآيات[١]. فكان ضمير العظمة خير ما يمثّل هذا المشهد الناطق بالهيبة والوقار .

ومنه قوله تعالى :

{ أم يحسُــدونَ الــناسَ عــلى ما آتاهُمُ اللهُ من فضلِهِ فقد آتينا آلَ إبراهيمَ الكتابَ والحكمةَ وآتيناهُمْ مُلكاً عظيماً } [٢].

لقد وردت نون العظمة في قوله تعالى : " آتينا " لتدل دلالة واضحة على عظم الهبة التي منحها الله آل إبراهيم - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتســليم . وتتضــح مكانة هذه الهبة بمقارنة الآية بما سبق عليها من قوله تعــالى : { ألــم تــر إلى الذيــن أوتــوا نصيباً من الكتاب }[٣] ببناء الفعل لــلمجهول، وهــؤلاء المتعجب من حسدهم في قوله تعالى : { أم يحسدون الــناس ... } ضــاقت أعينهم بما أنعم الله به على نبينا محمد صلى الله عليه وســلم من نعمة النبوة ، وعلى أمته من نعمة الإسلام ، فأنكروا ما يعرفونه وقلــبوا الحقائق ، فألزمهم المولى بما هو مسلم عندهم وهو نبوة إبراهيم – عــليه السلام - وتكريم آله بعده ؛ لاعتنائهم بآثاره حسماً لمادة حسدهم[٤] .

---

١ ــ عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال : قال لي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " اقــرأ عليّ " ، فقلت : يا رسول الله ، أقرأ عليك وعليك أُنزل ؟ قال : " نعم ، إني أحب أن أسمعه من غيري " ، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية { فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً } قال : " حسبك الآن " ، فإذا عيناه تذرفان) .

انظر (تفسير ابن كثير) ، ج١ ، ص٤٩٩ .

٢ ــ الآية (٥٤) .

٣ ــ جزء من الآية (٥١) .

٤ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج٥ ، ص٥٢٦ .

فـــإن كنـــتم تعـــترفون بأن الذي آتى إبراهيم هذا الفضل العظيم هو الله فلم تجحدونه محمداً - صلى الله عليه وسلم - ؟

ومما جاء فيه هذا الضمير دالاً على العظمة قوله تعالى :

{ يـــا أيهـــا الـــناسُ قد جاءكُمْ برهانٌ من ربِّكُمْ وأنزلْنا إليكُم نوراً مبيناً}[١]

قـــال فيـــه الـــبقاعي : (ولما كان القرآن صفة الرحمن أتى بمظهر العظمة فقال : " أنزلنا " أي بما لنا من العظمة والقدرة والحكمة) [٢] فكان ضمير المتكلم مؤكِّداً على هذه المعاني الدالة على عظمة الله في إنزاله هذا النور المبين الذي أشرقت به نفوس المؤمنين .

وقـــد تـــتحد العظمـــة مع التأكيد على الحدث وذلك كثير في القرآن الكريم ، وسأشير إلى ذلك في الحديث عن التأكيد بعدُ .

ثانياً : التأكيد :

ومما يمثله قوله تعالى :

{ يـــا أيُّها الذينَ أوتوا الكتابَ آمنُوا بما نزَّلْنا مصدقاً لِما معَكُمْ من قـــبلِ أنْ نطمِـــسَ وجُوهاً فَنَرُدَّها على أدبارِها أو نلعنَهم كما لعنّا أصحابَ السّبْتِ وكانَ أمرُ اللهِ مفعولاً }[٣] .

---

١ ـــ الآية (١٧٤) .

٢ ـــ انظر (نظم الدرر) ، ج٥ ، ص٥٢٦ ، دار الكتاب الإسلامي ،القاهرة ، مصر ، الطبعة الثانية ، ١٤١٣هـــ - ١٩٩٢م .

٣ ـــ الآية (٤٧) .

بدأت الآية بخطاب اليهود والنصارى [١] في ظل الكناية عنهم بإيتاء الكتاب تأكيداً على أن ما نزله سبحانه وتعالى على المصطفى صلى الله عليه وسلم حقيقة ثابتة ومؤكدة في كتابهم فلا حجة لكفرهم به ، وهم القوم الذين يعلمون يقيناً أن الله سبحانه منزل كتاباً بعد كتابهم مصدقاً لما معهم فكان ضمير المتكلم في قوله تعالى :{ نزلنا } حجة ملزمة لهم بما يعلمون من خبره ، لذا هددهم الحق تبارك وتعالى بقوله : { من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً} مؤكداً استحقاقهم للعن بضمير المتكلم في :{ لعنا } عند عدم إيمانهم كما استحق أصحاب السبت ذلك وهي حقيقة مؤكدة لديهم أيضاً، ولا يخلو الضمير هنا في الموضعين من التعظيم المصاحب للتأكيد .

ومما جاء ضمير المتكلم فيه للتأكيد قوله تعالى : **{ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً }**[٢]

---

١ ـ الذين أوتوا الكتاب هنا اليهود والكتاب التوراة قاله الجمهور أو اليهود والنصارى قاله الماوردي وابن عطية والكتاب التوراة والإنجيل وبما نزلنا هو القرآن بلا خلاف ولما معكم من شرع وملة لا لما معهم من مبدل ومغير .

انظر (البحر المحيط) لابي حيان ، ج ٣ ، ص ٢٦٦ ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

وكذا (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج ٢ ، ص ٦٣ . وقد عبر المولى سبحانه عن الكتابين : التوراة والإنجيل بصيغة المفرد في قوله تعالى : { أوتوا الكتاب } لوحدة مقاصدهما ومصدرهما .

والطمس : الرد على الأدبار ، أي تنكس الرؤوس إلى الوراء ، وإن كان الطمس هنا مجازاً وهو الظاهر ، فهو وعيد بزوال وجاهة اليهود في بلاد العرب ،ورميهم بالمذلة بعد أن كانوا هناك أعزة .

انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٥ ، ص ٧٩ ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٨٤م .

٢ ـ الآية (٦٤) .

وكذا قوله تعالى :

{ ولــو أنَّا كتبْنا عليهِمْ أنِ اقتلوا أنفسكُمْ أوِ اخرجوا مِنْ ديارِكُمْ ما فعــلوهُ إلاّ قليلٌ منهُم ولو أنَّهم فعلوا ما يوعظونَ بِهِ لكانَ خيراً لهُمْ وأشدَّ تثبيتاً }[١]

وقوله تعالى :

{ وإذاً لآتيــناهُمْ مِنْ لدُنَّا أجْراً عَظِيماً * ولهديناهُمْ صِراطاً مستقيماً }[٢]

فضــمير المتكــلم فــي قوله تعالى : { أرسلنا } قوى معنى الإلزام بالطاعة وأوجبها على من أرسل إليهم رسول من لدن الله سبحانه وتعالى[٣].

وكذلــك نلمح معنى التأكيد في كل من :{ أنا كتبنا } وكذا { لآتيناهم من لدنا } وكذا { لهديناهم } .

عــلى أن الأخــبار من لدن الحق سبحانه لا يرقى إليها الشك البتة ، ولكن الضمير هنا يلفت إلى معنى التأكيد وينبه عليه بشكل خاص .

ثالثاً : تصوير خلجات النفس :

إن أبرز ما يميز أسلوب الذكر الحكيم تلك الدقة المتناهية في تصوير الــنفس البشــرية حتى كأن المكنون المخبأ باد للعيان ، ولهذا ترى (الحالة النفســية لوحــة أو مشــهد ؛ والنموذج الإنساني شاخص حي ، والطبيعة البشرية مجسمة مرئية)[٤] .

ومما جاء مصوراً لخلجات النفس قوله تعالى :

---

١ ــ الآية : (٦٦) .

٢ ــ الآيتين : (٦٧ ، ٦٨) .

٣ ــ انظر تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٥٢٠ ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٠م – ١٤٠٠هـ

٤ ــ انظــر (التصــوير الفني في القرآن) لسيد قطب ، ص٣٦ ، بتصرف يسير ، دار الشروق ، بيروت والقاهرة ، الطبعة الثامنة ، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م .

{ وليسَــتِ الــتوبةُ لــلذينَ يعملونَ السيئاتِ حتى إذا حضرَ أحدَهُمُ المــوتُ قــالَ إنّي تُبْتُ الآنَ ولا الذينَ يموتونَ وهُمْ كُفَّارٌ أولئكَ أعْتَدْنا لَهُم عذاباً أليماً }[١]

الضــميران المصوران لهذه الخلجات في الآية وهما (الياء والتاء) فــي قــول المحتضــر : " إني تبت " جاءا متتاليين وقد سبقا بأداة التوكيد (إن) . لقــد جــاء الحق ولا مجال بعدُ للعناد والمكابرة ، بل إذعان وذل وفــزع ، لــذا لم يقل : تبتُ وحسب ، بل " إني تبتُ " . تنقل لنا الآية هذا الحــدث عــلى لســان القائل مباشرة ؛ لتصور مقدار حاجته للتوبة ، ولكن هيهــات فقد كان في سعة ولم يتب . ولذا لم يُسَمَّ تائباً كما قال الألوسي[*] : (بــل أُثِرَ "قال" على "تاب" لإسقاط ذلك عن درجة الاعتبار والتحاشي عن تسميته توبة ولو أكّد ورغب فيه)[٢]

إن ضــمير المتكــلم هــنا يصور حالة نفسية مضطربة تعج بالهلع والرغــبة في الخلاص[٣] ، وهل أكثر من رؤية ملك الموت رادعاً . { وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون }[٤] . واستحقوا بذلك أن يجمعوا مع

---

١ ــ الآية (١٨) .

* هــو أبــو الثــناء شهاب الدين السيد محمود أفندي الألوسي البغدادي ، ولد في سنة سبع عشرة ومائــتين وألــف من الهجرة ، خلف ثروة علمية كبيرة ، من ذلك تفسيره لكتاب الله في كتاب (ر وح المعاني في تفسير الكتاب العظيم والسبع المثاني) . توفي سنة سبعين ومائتين وألف للهجرة .

انظر (التفسير والمفسرون) للذهبي ، ج١ ، ص٣٥٢ .

٢ ــ انظــر تفســير (روح المعاني) للألوسي ، المجلد ٢، ج٥، ص٢٣٩ ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، طبعة جديدة مصححة ومنقحة ، ١٣٩٨هــ - ١٩٧٨م .

٣ ــ لقد ذكر المولى في آيات عدة إخلاص هؤلاء الضُلّال في الدعاء وقت الشدة ، منها قوله تعالى **{ وظــنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشاكرين }** يونس، جزء من الآية (٢٢) ، وكذا قوله تعالى : **{ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا }** غافر ، جزء من الآية (٨٥) ، وغير هذا كثير .

٤ ــ جزء من الآية (١١٧) ، آل عمران .

الذيـــن يموتون وهم كفار ، وقد توعدهم المولى بقوله : " أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً " بنون العظمة الدالة على ذلك .

وعـــلى نقيض هذه الفئة الضالة التي لم يقبل الله توبتها يأتي ضمير المتكـــلم أيضـــاً مصوراً لنا مشاعر فئة مؤمنة تدعو الله بإخلاص عميق ، فيستجيب المولى لها ، ويسخّر عباده لخلاصها وذلك في قوله تعالى :

{ ومـــالكُمْ لا تقاتـــلونَ فـــي ســـبيلِ اللهِ والمستضعفينَ من الرجالِ والنســـاءِ والولدانِ الذين يقولونَ ربَّنا أخرجْنا من هذهِ القريةِ الظالمِ أهلُها واجعلْ لنا من لدُنْكَ ولياً واجعلْ لنا من لدُنْكَ نصيراً }[١] .

نـــلحظ أن ضمير المتكلم " نا " تكرر في الآية أربع مرات ، فقد كان بمثابة المتنفس لهذه النفوس التي تعج بألم الظلم والاضطهاد الواقع عليها من قـــبل الفئة الظالمة في مكة المكرمة[٢] وذلك قبل فتحها ، نلمح ذلك من هذا الضـــمير الذي ينتهي بحرف المد الألف ، وهو لفظ فيه انفتاح ، يطلق معه آهـــات وزفرات لعلها تخفف من تلك المعاناة . وقد صح عن ابن عباس[*] - رضي الله عنه - قوله : " كنتُ أنا وأمي من المستضعفين "[٣] ، ولا يملك المستضعف سوى بث همّه إلى الله – عز وجل - ولا يسعفه في ذلك سوى الضمير المعبر عن خلجات النفس .

ومن الأحوال النفسية التي يصورها ضمير المتكلم العناد والمكابرة ، وخير ما يوضح هذه الحالة في سورة النساء قوله تعالى :

---

١ ـــ الآية (٧٥) .

٢ ـــ انظـــر (التفســـير الكبير) للرازي ، ج١٠ ، ص١٨٢ ، دار إحياء التراث ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة .

* هـــو عـــبد الله بـــن عباس بن عبد المطلب ، حبر الأمة وفقيه العصر وإمام التفسير ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، روى كثيراً من الأحاديث ، توفي سنة ثمان أو سبع وستين للهجرة .

انظر (تهذيب سير أعلام النبلاء) ج١ ، ص١٠١ .

٣ ـــ انظر (تفسير ابن كثير) ، م١ ، ص٥٢٦ .

{ مــن الذيــنَ هــادوا يحرّفون الكلمَ عن مواضعهِ ويقولونَ سمِعْنا وعصَيْنا واسمعْ غيرَ مُسْمَعٍ وراعِنا لَيّاً بألسنتِهم وطعناً في الدينِ ولو أنّهُم قالوا سمعْنا وأطعْنا واسمعْ وانظُرْنا لكانَ خيراً لهُم وأقومَ ولكنْ لعنَهُمُ اللهُ بكفرِهِم فلا يؤمنونَ إلا قليلاً }[1] .

الآيــة تــنعي عــلى اليهــود بعض جرائمهم المتوارثة ؛ فلم يكفهم تحريف ما في شرعهم ومنه صفة النبي - صلى الله عليه وسلم - ، بل هم أيضــاً يجاهرون بالعناد والمعصية بقولهم : " سمعنا وعصينا " أي (سمعنا قولــك وعصــينا أمــرك)[2] معبرين بذلك عن تبجّحهم وما انطوت عليه دخائلهم بالضمير " نا " الدال على المتكلمين ، وكان ذلك شاهداً على جرمهم الجمــاعي ، وتحــامي بعضهم ببعض حين يسخرون بالدين وبالرسول[3] - صــلى الله عــليه وســلم - ، لهذا استحقوا لعنة الله - عز وجل - على ما انطوت عليه ضمائرهم وأعلنت عنه ألسنتهم من العدول عن الخير إلى الشر وعن الإيمان إلى الكفر كما جاء في الآية الكريمة .

ومن صور العناد والمكابرة ما حكاه المولى - سبحانه وتعالى - على لسان اليهوَد أيضاً في قوله تعالى :

{ وقولِهِــمْ إنّا قتلْنا المسيحَ عيسى ابنَ مريمَ رسولَ اللهِ وما قتلوهُ وما صلبوهُ ولكن شُبِّهَ لهم وإن الذينَ اختلفوا فيه لفي شكٍ منه ما لهم به من علمٍ إلا اتباعَ الظنِّ وما قتلوهُ يقيناً }[4] .

وهــل أبشع من هذا العناد وهذه المكابرة شاهدين على أنفسهم بجرم موهوم متعالين على الله - سبحانه وتعالى - بالضمير " نا " في " إنا قتلنا " ،

---

١ ــ الآية (٤٦) .

٢ ــ انظر (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٢٦٣ .

٣ ــ فقــد كانوا يكلمون الرسول - صلى الله عليه وسلم - بكلام محتمل ينون به الشتيمة والإهانة ، ويظهرون التوقير والاحترام والإكرام ؛ مثل قولهم : " واسمع غير مسمع وراعنا " .

انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج٥ ، ص٢٩٣ .

٤ ــ الآية (١٥٧) .

ساخرين مستهزئين بقولهم[1]: " عيسى ابن مريم رسول الله " ؟ ولكنْ **{ قـل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً }**[2] .

رابعاً : الوعيد :

نتيجة لعناد الجاحدين وإصرارهم على باطلهم جابههم الله – سبحانه وتعالى - بنفس الضمير في آياتَ كثيرة متوعداً إياهم بسوء المصير ، منها قوله تعالى :

{ الذيـنَ يبخَلونَ ويأمُرونَ الناسَ بالبخلِ ويكتمونَ ما آتاهُمُ الله من فضلِه وأعتدنا للكافرينَ عذاباً مهيناً }[3] .

ففـي قولـه تعالى : " أعتدنا " بنون العظمة تعلو نبرة الوعيد لتملأ الأفق ؛ لأن العتيد الحاضر المهيأ[4] واقترانه بضمير العظيم المتعال لا شك يضـاعف مـن عظم هذا العذاب المهين المعد من قبله سبحانه وتعالى في انتظارهم .

وقـد تكـرر هذا في كثير من الآيات منها قوله تعالى : **{ أولئكَ هُمُ الكافرونَ حقاً وأعتدنا للكافرينَ عذاباً مهيناً }**[5] .

وقولـه جل من قائل : **{ وأخذِهمُ الربا وقد نُهُوا عنه وأكلِهِمْ أموالَ الناسِ بالباطلِ وأعتدنا للكافرينَ منهم عذاباً أليماً }**[6] .

---

١ ـ لقـد ذكروه بعنوان الرسالة ليس اعترافاً منهم بذلك بل سخرية ، أي هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب قتلناه ، وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء .

انظر (تفسير ابن كثير) ، ج١ ، ص٥٧٤ وما بعدها .

٢ـ جزء من الآية (٧٥) من سورة مريم .

٣ ـ الآية (٣٧) .

٤ ـ انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج٣ ، ص٢٤٧ .

٥ ـ الآية (١٥١) .

٦ ـ الآية (١٦١) .

وتعلو نبرة الوعيد في قوله تعالى : **{ إنّ الذين كفروا بآياتنا سوفَ نُصليهِمْ ناراً كلما نَضِجَتْ جلودُهُمْ بدلناهُمْ جلوداً غيرها ليذوقوا العذابَ إنّ الله كان عزيزاً حكيماً }**[١].

فكفرهم بالقرآن وبمعجزات الرسل جعلهم مستحقين هذا الوعيد الشديد بلون فريد من العذاب ، وهو تبديل جلودهم كلما نضجت ومات عنها الحس ؛ ليستمر تذوقُهم للعذاب[٢] . وهل يقدر على مثل هذا إلا الخالق العظيم ؟ وهل توجد أداة تعبّر عن هذه العظمة أفضل من نون العظمة ؟

ب ـ ضمير المخاطب :

أصل الخطاب لحاضر معين ولكنه قد يوجه إلى غيره ليفيد العموم[٣] وغرضه الأول المواجهة بأمر " ما " قد يكون التعليل أو التكريم أو الإيقاظ والتنبيه أو التفصيل وقد يكون غير ذلك .

---

١ ـ الآية (٥٦) .

٢ ـ انظر (الوجيز في تفسير القرآن الكريم) للدكتور شوقي ضيف ، ص١٥٥ ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الأولى .

وقال النحاس : أي يعيد النضيج غير نضيج حتى تُسْعَرَ النار .

انظر (إعراب القرآن) ، تحقيق الدكتور زهير غازي زاهد ، ج١ ، ص٤٦٤ ، علم الكتب ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

٣ ـ انظر (مفتاح العلوم) للسكاكي ، ص ٨٦ ، منشورات المكتبة العلمية الجديدة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة بدون .

وكذا (الإيضاح) للخطيب القزويني ، ص ٢٤ ، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .

وكذا (شروح التلخيص) ، ج ١ ، ص ٢٨٩ وما بعدها ، دار السرور ، بيروت ، لبنان ، الطبعة بدون .

وزاد المراغي بأن الخطاب يوجه إلى غير الشاهد إذا كان مستحضراً في القلب كأنه نصب العين كما في قوله تعالى : { إياك نعبد } .

انظر (علوم البلاغة) ، ص ١١٣ ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، الطبعة بدون .

أولاً : المواجهة للتعليل :

قال سبحانه وتعالى في أول آية من هذه السورة المباركة :

{ يا أيها الناسُ اتقوا ربَّكُمُ الذي خلقَكُمْ من نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجَهــا وبــثَّ مــنهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا اللهَ الذي تساءَلونَ به والأرحامَ إنَّ اللهَ كانَ عليكُمْ رقيباً }[١] .

جــاء ضمير الخطاب في مواجهات ثلاث ملزمة تكفي لتعليل كل ما جــاءت به السورة من أحكام في حسن استهلال منقطع النظير فهو سبحانه ربكــم وخلقكم ورقيب عليكم فأين المفر من هذه المواجهات التي (عللت الأمر بالتقوى بما يدل على معرفة المبدأ)[٢] وبخطاب تظهر فيه المناسبة بيــن (وحــدة الــنوع ووحــدة الاعــتقاد)[٣] ليكــون علة كافية للإسلام والاستسلام.

ومن هذا القبيل قوله تعالى :

{ وكيــفَ تأخذونَهُ وقد أفضى بعضُكُمْ إلى بعضٍ وأخذْنَ منكُمْ ميثاقاً غليظاً }[٤] .

الآيــة تحمــل عتاباً شديد اللهجة واستنكاراً لحال الأزواج المستبدين الطــامعين فــي استرداد ما أوجبه الله سبحانه عليهم لزوجاتهم (بأي حال تأخذونــه وقد جرى بينكم وبينهن أحوال منافية لأخذه)[٥]، وتشتد المواجهة والتعليل في قوله تعالى : " وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً " ، فهل يليق بعد ذلك الابتزاز ؟

---

١ ـــ الآية (١) .

٢ ـــ انظر (البحر المحيط) لأبى حيان ، ج ١ ، ص ١٥٤ ، بتصرف .

٣ ـــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٤ ، ص٢١٤ .

٤ ـــ الآية (٢١) .

٥ ـــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٠٠ ، بتصرف ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، الطبعة بدون .

ثانياً : المواجهة للتكريم :

هـــذه طائفـــة من الآيات يشعرنا أسلوب القرآن فيها بأنه تعالى أراد مواجهـــة المخـــاطب لاستئناس نفسه وتطييبها بما يريحها ويبهجها ، لنتأمل قوله تعالى :

{ وإنْ خِفتُمْ ألاّ تُقسِطوا في اليتامى فانكحوا ما طابَ لكم من النساءِ مثـــنى وثلاثَ ورُباعَ فإنْ خِفتُم ألاّ تعدلوا فواحدةً أو ما ملكَتْ أيمانُكم ذلكَ أدنى ألاّ تعولوا }[١] .

ألم تشعر بلذة التكريم في هذا الأسلوب اللين " ما طاب لكم " (فطاب فيـــه زال عـــنه حرج النهي)[٢] ، (حرية مقيدة بشريعته التي جعل عليها الضمير حارساً والتقوى رقيباً)[٣] وذلك تكريماً لابن آدم الذي ميزه الخالق بهما .

وتظهر لهجة التكريم جلية واضحة في هذا الخطاب المتكرر ، يقول الله سبحانه وتعالى :

{ يـــريدُ اللهُ ليبينَ لكم ويهديَكم سُنَنَ الذينَ من قبلِكم ويتوبَ عليكم واللهُ عليمٌ حكيمٌ }[٤] .

والقصـــد فـــي هذا الخطاب المتكرر (استئناس المؤمنين واستنزال نفوســـهم إلى امتثال الأحكام المتقدمة من أول السورة)[٥] . فبهذا الخطاب يرفعهم إلى مرتبة علوية تؤهلهم إلى إرشاد الله[٦] وهدايته لهم وتوبته عليهم.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى :

---

١ ـــ الآية (٣) .

٢ ـــ انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج٥ ، ص١٧٩ .

٣ ـــ انظر (في ظلال القرآن) لسيد قطب ، ج٢ ، ص٢٤٢ .

٤ ـــ الآية (٢٦) .

٥ ـــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٥ ، ص١٨ .

٦ ـــ انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية الأندلسي ، ج٢ ، ص٤٠ .

{ والله يـريدُ أن يـتوبَ عـليكم ويريدُ الذينَ يتبعونَ الشهواتِ أنْ تميلوا ميلاً عظيماً * يريدُ الله أن يُخففَ عنكم وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً }[١] .

ففـي " عـليكم و عنكم " مواجهة تكريم للمؤمنين عن طريق ضمير الخطـاب ؛ ليحدث هذا الضمير هزة في نفوسهم ، فيشعروا بعظم مكانتهم وعظم مسؤوليتهم تجاه تطبيق أوامر الله ونواهيه في هذا الدين .

ثالثاً : قد يكون الخطاب لإيقاظ النفس وتحريك المشاعر :

وخير ما يمثله قوله تعالى :

{ واللاتي يأتينَ الفاحشةَ من نسائكم فاستشهدوا عليهنَّ أربعةً منكم فإن شهدوا فأمسكوهنَّ في البيوتِ حتى يتوفَّاهُنَّ الموتُ أو يجعلَ اللهُ لهنَّ سبيلاً }[٢] .

هذه الآية الكريمة معجزة حتى في موقعها ، لقد تحدثت الآيات قبلها عـن حدود الله في المواريث[٣] ، وبينت جزاء الطاعة بوجه عام[٤] والثناء الجميل من الله - سبحانه وتعالى - لمن تمسك بها ، ثم جزاء المعصية بوجه عـام كذلـك[٥] والعذاب المهين لمرتكبيها، ثم تأتي هذه الآية موصولة بواو العطـف ، تحكـي عن فئة من أشد الناس ضلالاً : مرتكبي جريمة الزنا . وهـي جـريمة فيهـا أكثر من صورة من صور التعدي لحدود الله ، منها الجرأة على حرماته سبحانه ، والحق - تبارك وتعالى - أشد ما يكون غيرة عـلى حـرماته[٦] ، ومـنها ما ينتج عن هذه الجريمة البشعة من خلط في

---

١ ــ الآيتان (٢٧ و ٢٨) .

٢ ــ الآية (١٥) .

٣ ــ الآيـتان (١١ و١٢) . فيهـا عـلم المواريث كله عدا حكم الكلالة الذي ورد في آخر آية من سورة النساء (١٧٦) مع ورود جانب منه داخل الآية (١٢) .

٤ ــ الآية (١٣) بدأت بإشارة إلى حدود الله المذكورة من أول السورة ، بل من أول القرآن .

٥ ــ الآية (١٤) وهي مقابلة رائعة لسابقتها .

٦ ــ حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : (إن الله تعالى يغار ، وإن المؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه) ، مختصر صحيح مسلم ، ١٩٣٠ .

الأنســـاب يسبب التعدي على حقوق الإرث الموضح قريباً قبل هذه الآية ، وهو أمر عظيم عند الله . ومن هنا فحاجة الآية إلى الخطاب المباشر في : (نسائكم) تكمن في إيقاظ ضمير الأمة المسلمة ؛ لتقف حارساً أميناً يحمي المجتمع المسلم من هذه الفئة المارقة عن حدود الله - سبحانه وتعالى - وهو الذي أكرم المرأة ، ورفع من قدرها ، وجعلها شقيقة الرجل في كل ما أعزه به الإسلام ، وزادها عليه بنحلة المهر وإلزامه بنفقتها وحفظ حقوقها ، حتى الإرث جعـــل لهـــا فيه نصيباً مفروضاً بعد أن كانت تورَّث مثل سائر سقط المتاع . فهل يليق بها أن تسلم قيادها للشيطان ومتبعي الشهوات لتكون من العاصين والعياذ بالله ؟

إذن فالخطـــاب فـــي (نسائكم) لابد أن يحدث هزة عنيفة تثور بها نفـــوس المسلمين من رجال ونساء سخطاً واستنكاراً . هذه الثورة الجامحة يكـــبحها الشـــرط الموجب للحد في قوله تعالى : " فاستشهدوا عليهن أربعة مـــنكم " . (أي أربعة من رجال المؤمنين وأحرارهم واشترط الأربعة في الـــزنا تغليظاً على المدعي وستراً على العباد)[١] وهو الحليم الستار لإتاحة فـــرص الـــتوبة التي ورد ذكرها في الآية التالية مع جريمة مماثلة في قوله تعالى :

{ واللذانِ يأتيانِها منكم فآذوهُما فإنْ تابا وأصلحا فأعْرِضوا عنهُما إنَّ اللهَ كانَ تواباً رحيماً }[٢] .

ثم فصّل الحديث عن التوبة بآيتين مترادفتين[٣] بعد هذا الموقع ؛ لتتم الوحدة الموضوعية ، في القرآن العظيم كنسيج لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فقد لعب ضمير الخطاب هنا دوراً مهماً في إثارة النفس للحد الـــذي ينـــتج عنه حماية المجتمع ، ثم في تهدئتها للحد الذي ينتج عنه عدم

---

١ ــ انظر (روح المعاني) للألوسي ، م٢ ، ج٤ ، ص٢٣٤ .

٢ ــ الآية (١٦) .

٣ ــ الآيتان (١٧ و ١٨) .

الظلم والافتراء الكاذب ، فحقق بذلك التوازن المنشود في عقيدتنا الإسلامية السمحة .

رابعاً : المواجهة لتفصيل أحكام التشريع :

والمواجهــة في مثل هذا أدخل في النفس وألزم في تحقيق الغرض . وهو كثير جداً في هذه السورة المباركة لما فيها من تفصيلات دقيقة لكثير مما أجمل في غيرها . من بينها الآيات التي وضحت علم الفرائض من مثل قوله تعالى :

{ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلادِكُمْ }[1] .

يقــول أبــو الســعود[*] فيها : (شروع في تفصيل أحكام المواريث المجمــلة فــي قوله تعالى : { للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب ... }[2])[3] .

والذي يعنينا هنا هو ما يحدثه هذا الضمير في أنفسنا عند تلاوة قوله تعــالى : " يوصــيكم الله فــي أولادكــم " أو قوله : " ولكم نصف ما ترك أزواجكم " أو قوله : " قل الله يفتيكم " . لا شك أن النفس المستشرفة لشرع الله تجــد الخطــاب يــرفعها إلى مناط الثقة والمسؤولية ، ويفتق فيها أكمام المعرفة لتعطي ثماراً جنية .

---

١ ــ جزء من الآية (١١) .

* هــو محمــد بــن محمــد بن مصطفى العمادي الحنفي ، المولود سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة للهجرة ، أخرج للناس كتابه (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) ، وكتب بعض الحواشي على تفسير الكشاف . توفي سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة للهجرة .

انظر (التفسير والمفسرون) للذهبي ، ج١ ، ص٣٤٥ .

٢ ــ جــزء مــن الآية (٧) .وعلم الفرائض (الميراث) موضح في هذه السورة في ثلاث آيات : الآية (١١) ، و (١٢) ، والآية الأخيرة (١٧٦) .

انظر (في ظلال القرآن) لسيد قطب ، ج٢، ص٢٦١ .

٣ ــ انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج١ ،ص٤٨٨ ،

وكذا الألوسي في (روح المعاني) ، م٢ ،ج٤ ،ص٢١٦ .

ولم يقتصر أسلوب الخطاب التشريعي على أمور الإرث ، بل تعداه في هذه السورة إلى أمور شتى منها قوله تعالى :

{ يـــا أيها الذينَ آمنوا لا تأكلوا أموالَكُم بينَكم بالباطلِ إلا أن تكونَ تجارةً عن تراضٍ منكم ولا تقتلوا أنفسكُم إن الله كانَ بكم رحيماً }[١] .

ومنه قوله تعالى :

{ يا أيها الذينَ آمنوا لا تقربوا الصلاةَ وأنتم سُكارى حتى تعلموا ما تقولـــونَ ولا جُنُباً إلا عابري سبيلٍ حتى تغتسلوا وإن كنتُم مرضى أو على سفرٍ أو جاءَ أحدٌ منكم من الغائطِ أو لامستُمُ النساءَ فلم تجدوا ماءً فتيمَّموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهِكُم وأيديكُم إن اللهَ كانَ عفواً غفوراً }[٢] .

ففي كل خطاب صورة حية لاستحضار النفس يقظة مهيأة لتلقي هذه التشريعات .

ج ــ ضمير الغائب :

هذا الضمير لابد أن يتقدمه ذكر لصاحبه إما لفظاً تحقيقياً أو تقديرياً وإما معنى[٣] . وضمير الغائب كان له الحظ الأوفر في سورة النساء سواء كان منفصلاً أو متصلاً وستقف الدراسة معه في حالتيه وبالله التوفيق .

---

١ ــ الآية (٢٩) .

٢ ــ الآية (٤٣) .

٣ ــ اللفظ التحقيقي نحو جاءني زيد وهو يضحك والتقدير بأن يكون ما عاد عليه الضمير رتبته التقديم وإن تأخر لفظاً مثل : في داره زيد فزيد مبتدأ مكانه التقديم ، وإما معنى بأن يتقدم لفظ يدل عليه نحو قوله تعالى : **{ اعدلوا هو أقرب للتقوى }** المائدة ، آية (٨) ، فالضمير للعدل وقد تقدم معنـــاه فـــي لفظ { اعدلوا } . أو توجد قرينة تدل عليه نحو قوله تعالى: **{ حتى توارت بالحجاب }** ، سورة (ص) ، آية ٣٢ .

انظـــر (مواهـــب الفتاح) لابن يعقوب المغربي ضمن (شروح التلخيص) ، ج ١ ، ص ٢٨٩ .

١ـ ضمير الغائب المنفصل :

تتــبعت الدراسة وجود هذا الضمير فوجدته يأتي في صدر الجملة الحاليــة وفي صدر الجملة الخبرية وفي صدر الجملة المستأنفة ليفيد تأكيد المعنى المساق له الكلام بلاغياً ومن أمثلة الضرب الأول قوله تعالى :

{ يستخفونَ منَ الناسِ ولا يستخفونَ منَ اللهِ وهوَ معهُم إذْ يُبَيِّتُونَ ما لا يرضى من القولِ وكانَ اللهُ بما يعملونَ محيطاً }(١) .

ضمير الغائب (هو) المتصدر الجملة الحالية { وهو معهم } يحدث صَـدى عميــق الأثر في النفس المؤمنة فتكون في تأدب مستمر مادام الله سبحانه وتعالى معها على الدوام قال أبو حيان(*) : (وهو معهم أي عالم بهم مطـــلع عليهم لا يخفى عنه تعالى شيء من أسرارهم وهي جملة حالية)(٢) فالضمير (هو) مع أنه للغائب إلا أن هذا الغائب موجود على الدوام لا تخفى عــليه خافيـــة وحــق للزمخشري أن يقول : (وكفى بهذه الآية ناعية على الـــناس مـــا هم عليه من قلة الحياء والخشية من ربهم مع علمهم إن كانوا مؤمـــنين أنهـــم فـــي حضرته لا سترة ولا غفلة ولا غيبة وليس إلا الكشف الصريح والافتضاح)(٣) وقد كان لهذا الضمير من قوة تأكيد الإسناد ما لا يخفى على أحد .

ومن أمثلة الضرب الثاني ــ أعني الضمير المؤكد في صدر الجملة الخبرية ــ قوله تعالى :

---

١ ــ الآية (١٠٨) ، ورد هذا النوع في ستة مواضع في سورة النساء منها : (١٨ ، ٩٢)

* هو أثير الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي ، ولد سنة أربع وخمسين وستمائة من الهجرة . جمع علوماً كثيرة في القراءات واللغة وله اليد الطولى في التفسير والحديث وتراجم الرجال ، توفي سنة خمس وأربعين وسبعمائة من الهجرة بمصر .

انظــر (التفســير والمفســرون) د. محمــد حسين الذهبي ، ج١ ، ص٣١٧ ، دار الكتب الحديثة ، مصر ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٦هـ – ١٩٧٦م .

٢ ــ انظر (البحر المحيط) ، ج ٣ ، ص ٣٤٤ .

٣ ــ انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٩٧ ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة بدون .

{ إنَّ الذيـنَ يكفـرونَ بـالله ورُسُلِه ويريدونَ أنْ يفرِّقوا بينَ اللهِ ورُسُلِه ويقولونَ نؤمنُ ببعضٍ ونكفرُ ببعضٍ ويريدونَ أنْ يتخذوا بينَ ذلكَ سبيلاً * أولئكَ همُ الكافرونَ حقاً وأعتدْنا للكافرينَ عذاباً مهيناً }(١) .

قـال أبـو حيـان : (أكد بقوله (هم) لئلا يتوهم أن ذلك الإيمان يـنفعهم)(٢) فقام ضمير الغائب (هم) بتحقيق صحة إسناد الكفر لهذه الفئة الضالة وما يتبعه من سوء المصير .

ومن أمثلة الضرب الثالث ما جاء في صدر الجملة المستأنفة لغرض التأكيد قوله تعالى :

{ يستفتونَكَ قلِ اللهُ يفتيكُمْ في الكلالةِ إنِ امرؤٌ هلكَ ليسَ له ولدٌ وله أختٌ فلها نصفُ ما تركَ وهو يرثُها إنْ لمْ يكنْ لها ولدٌ ... }(٣) .

قـال الألوسـي : ((هو) أي المرء المفروض (يرثها) أي أخته المفروضـة إن فُـرِض هلاكها مع بقائه والجملة مستأنفة لا موضع لها من الإعراب وقد سدت ــ كما قال أبو البقاء(*) ــ مسد جواب الشرط في قوله تعالى : **{ إن لم يكن لها ولد }**)(٤) .

ومـع أن الكـلام مستأنف إلا أن ضمير الغائب (هو) ربطه بما قبله وقوى حكم الإسناد فيه ووضح هذا النوع من الإرث .

---

١ ــ الآيتين (١٥٠ و ١٥١) .

٢ ــ انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ٣ ، ص ٣٨٥ .

٣ ــ جزء من الآية : (١٧٦) .

* هـو أبـو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله النحوي الضرير العكبري ، ولد في سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ببغداد كان جمّاعة لفنون من العلم والمصنفات ، له مصنفات عديدة منها (التبيان في إعراب القرآن) ، توفي سنة ست عشرة وستمائة للهجرة .

انظر مقدمة كتابه (التبيان في إعراب القرآن) ، ج١ .

٤ ــ انظر (روح المعاني) للألوسي ، م ٢ ، ج ٥ ، ص ٤٥ .

وكذا انظر (التبيان في إعراب القرآن) للعكبري ، ج ١ ، ص ٤١٣ ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .

٢ــ ضمير الغائب المتصل :

ويأتي هذا الضمير ليخدم أغراضاً بلاغية جمة من أهمها التخصيص وتأكيد المعنى والتعظيم والتحقير وستحاول الدراسة الوقوف على أمثلة من سورة النساء لهذه الأغراض .

١ــ مما جاء مشعراً بالتخصيص قوله تعالى :

{ يا أيها الناسُ اتقوا ربكم الذي خلقَكم من نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجَهــا وبــثَّ مــنهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا اللهَ الذي تساءلونَ به والأرحامَ إنَّ اللهَ كانَ عليكم رقيباً }[١] .

فالضمير في (منها) يعود على نفس آدم عليه السلام لم يشأ الخالق سبحانه إنشاء حواء من مادة مستقلة ــ وهو القادر سبحانه ــ بل خلقها من زوجها لتوافقه فطرة وطبعاً وهذا لعمر الله تأكيد على عمق الصلة الزوجية فقــد خُــلقت الزوجة منه وله وهو أدعى لوجود المودة والرحمة حتى يُبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً .

٢ــ ومما جاء لتأكيد معنى التخصيص قوله تعالى :

{ وآتــوا اليــتامى أموالَهــم ولا تتبدلوا الخبيثَ بالطيبِ ولا تأكلوا أموالَهم إلى أموالِكم إنَّه كانَ حوباً كبيراً }[٢] .

---

١ ــ الآية (١) .

لقد خبطت البشرية في هذا التيه طويلاً . جردت المرأة من كل خصائص الإنسانية وحقوقها فــترة مــن الزمان فلما أرادت معالجة هذا الخطأ الشنيع اشتطت في الضفة الأخرى وأطلقت للمرأة العــنان ، ونسيت أنها إنسان خلقت لإنسان ، ونفس خلقت لنفس ، وشطر مكمل لشطر ، وأنهما ليسا فــردين متماثــلين إنما هما زوجان متكاملان ... والمنهج الرباني القويم يرد البشرية إلى هذه الحقيقة البسيطة بعد ذلك الضلال البعيد .

انظر (في ظلال القرآن) لسيد قطب ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

٢ ــ الآية (٢) .

ضـــمير الغائب الذي تكرر مرتين في نفس اللفظة (أموالهم) صك شـــرعي يقف في نحور الأولياء المعتدين على أموال اليتامى ليقرر ملكيتهم لهذا المال وحماية الله سبحانه لها .

ومـــنه قوله تعالى : **{ وآتوا النساءَ صدُقاتِهنَّ نحلةً }**(١) وكذا قوله تعالى : **{ فإن آنستُم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالَهم }**(٢) وكذا قوله جل من قائل : **{ فإذا دفعتُم إليهم أموالَهم فأشهِدوا عليهم }**(٣) وهذا كثير جداً في هذه السورة .

٣ــ وقــد يأتي ضمير الغائب المتصل مؤكداً لمضمون الجملة . وذلك مثل قوله تعالى :

{ وليخــشَ الذيــنَ لــو تركوا من خلفِهم ذريةً ضعافاً خافوا عليهم فليتّقوا اللهَ وليقولوا قولاً سديداً }(٤) .

الضـــمير فـــي (خـــلفهم) يعود إلى الأولياء فقد أمرهم المولى بأن يخشـــوا الله تعـــالى ويـــتقوه في أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يُفعل بذراريهـــم الضـــعاف بعـــد وفاتهم(٥) فضمير الغائب في (خلفهم) وضع المـــأمورين فـــي قلب الحدث حتى يتلبسوا به فترتعد فرائصهم خوفاً على ضعافهم ، ولا شك أن هذا أكبر رادع لهم عن البغي على الضعاف ، أخرج الســـيوطي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (اتقوا الله في الضعيفين : اليتيم ، والمرأة . أيتمه ثم أوصى به ، وابتلاه وابتلى به)(٦) .

ومما جاء مؤكداً لمضمون الجملة – وهو كثير – قوله تعالى :

---

١ ــ جزء من الآية (٤) .

٢ ــ جزء من الآية (٦) .

٣ ــ نفس الآية السابقة .

٤ ــ الآية (٩) .

٥ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٤٨٧ .

٦ ــ انظــر (الــدر المنثور) للسيوطي ، م ٢ ، ج ٤ ، ص ٤٤٣ ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هــ – ١٩٨٣م .

{ يومَـئذٍ يودُّ الذينَ كفروا وعصوُا الرسولَ لوْ تُسَوَّى بهمُ الأرضُ ولا يكتمونَ اللهَ حديثاً }[١] .

تـأمل أهميـة الضـمير في (بهم) ألم تشعر أنه عمق صلة هؤلاء الـنادمين بتسـوية الأرض حتى شاع منه معنى الحسرة والألم والخسران والندم ؟

ومثله قوله تعالى :

{ إنْ تكُ حسنةً يضاعفْها ويؤتِ من لدنْهُ أجراً عظيماً }[٢]

تأمل الضمير في (يضاعفها) وكذا (لدنه) فالضمير في يضاعفها يؤكـد مضـمون مضاعفة الحسنة وهو أمر ثابت عنه سبحانه بالنصوص الشـرعية[٣] من الكتاب والسنة ، وأما الضمير في (لدنه) أي من عنده[٤] سـبحانه فيؤكد تفضله سبحانه على عباده المؤمنين وإن قل عملهم أو ذهب جُله مقابل سيئاتهم .

٤ـ ومـن هـذا الضـمير ما يفيد التخصيص في الحكم وهو كثير وحسبنا الإشارة إلى ما يمثله وذلك قوله تعالى :

{ فكيـفَ إذا أصابتْهم مصيبةٌ بما قدمَتْ أيديهم ثمَّ جاءوكَ يحلِفونَ باللهِ إنْ أردْنا إلا إحساناً وتوفيقاً }[٥] .

بـدأت الآيـة باسـتفهام يصور حال تخبطهم الشديد حين ينتقم منهم الجـبار بتـلك المصيبة التي تنزل بهم خاصة (عقوبة لهم بنفاقهم وكرههم

---

١ ـ الآية (٤٢) .

٢ ـ الآية (٤٠) .

٣ ـ مثل قوله تعالى : **{ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة }** جزء من الآية (٢٤٥) من سورة البقرة ، وكذا قوله تعالى : **{ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها }** سورة الأنعام (١٦٠) .

٤ ـ انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج ٢ ، ص ٥٤ .

٥ ـ الآية (٦٢) ، وانظر كذا الآية (٥) والآية (٨٣) .

حكـــم الله)[١] فذلـــك بمـــا قدمت أيديهم من جنايات من جملتها التحاكم إلى الطاغوت[٢] .

وقد خصص ضمير الغائب في { أصابتهم } و { أيديهم } هذا العذاب بالمنافقين خاصة .

٢ــ التعريف بالعلمية

العـــلمية : تعيين المسمى في ذهن المتلقي[٣] دون واسطة[٤] لظهوره بهـــا وهـــي لا تخلو أيضاً من أغراض بلاغية[٥] ستحاول الدراسة الوقوف على أهمها .

إن أولى الأعـــلام اهـــتماماً اسم الله الأعظم[٦] (الله) وقد ورد في ســـورة النساء مائتين وثمانية وثلاثين مرة (٢٣٨) معبراً في كل مرة عن معانٍ عظيمة وحسبنا الوقوف على بعضها لعله ينبه على الباقي .

قال الله تعالى في أول سورة النساء :

{ يا أيها الناسُ اتقوا ربَّكم الذي خلقَكم من نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجَهـــا وبـــثَّ مـــنهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا اللهَ الذي تساءلون به والأرحامَ إن اللهَ كانَ عليكم رقيباً }[٧] .

---

١ ــ انظر (الدر المنثور) للسيوطي ، م ٢ ، ج ٥ ، ص ٥٨٣ .

٢ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٥٤٣ .

٣ ــ انظر (مفتاح العلوم) للسكاكي ، ص ٨٦ .

٤ ــ الواسطة أي إحضاره في الذهن أحد المعارف الأخرى من ضمير أو اسم إشارة أو موصول أو (أل) العهد أو الإضافة .

انظر مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني ضمن (شروح التلخيص) ، ج ١ ، ص ٢٩٥.

٥ ــ مثل : التعظيم ، والإهانة ، والاستلذاذ ، والكناية عن معنى التفاؤل ونقيضه ، والتسجيل .

انظر (علوم البلاغة) لأحمد المراغي ، ص ١١٤ .

٦ ــ قال ابن كثير : (الله) علم على الرب تبارك وتعالى يقال إنه الاسم الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات ، م ١ ، ص ٢٠ .

٧ ــ الآية (١) .

ظهــر العلم في هذه الآية ممثلاً في اسم الله الأعظم في موضعين : أولهما في مجال التقوى وهي من أعظم مقاصد التشريع[١] . وقد كان ضمير الغائب يغني الجملة من حيث البناء النحوي ولكنه لا يقوم مقام لفظ الجلالة بلاغيــاً وذلك لأنه الاسم الجامع جميع صفات الكمال[٢] ولذا فهو أكبر داع (للامتــثال بــتربية المهابة وإدخال الروعة)[٣] ثم يظهر مرة أخرى في مجال الرقابة في جملة مؤكدة بعدة مؤكدات للغرض نفسه .

ومما جاء على عظمته قوله تعالى :

{ اللهُ لا إلــهَ إلا هــو ليجمعنَّكم إلى يومِ القيامةِ لا ريبَ فيه ومن أصدقُ من اللهِ حديثاً }[٤]

بدأت الآية باسم الله الأعظم كأمكن دعامة لقواعد التوحيد التي تحملها الآيــة فتــتهيأ النفوس لمشهد الحشر الأعظم : { ليجمعنكم إلى يوم القيامة } هزة بعد هزة ، حيث تبدأ باسم الله الأعظم وتخبر بقسم محذوف جوابه مؤكد باللام والنون ، أصوات أشد على النفس من دوي الرعد تملأ الأفق وتبرهن عــلى عظمــة الله وشدة بأسه وقدرته ، فجمعت هذه الآية الموجزة (تمجيد الله، وتهديــداً وتحذيــرا من مخالفته ، وتقريراً للإيمان بيوم البعث ، ورداً للإشراك وإنكار البعث)[٥] .

ثــم ذيــلت باستفهام إنكاري سد على منكري البعث كل منفذ (وأكد صدق أخباره ، كيف لا والكذب محال عليه سبحانه دون غيره)[٦] .

---

١ ــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٤ ، ص ٢١٧ .

٢ ــ انظر (روح المعاني) ، م ٢ ، ج ٤ ، ص ١٨٣ .

٣ ــ تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٤٧٧ .

وكــذا (محاسن التأويل) للقاسمي ، ج ٥ ، ص ٨ ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٨هــ - ١٩٧٨م .

٤ ــ الآية رقم (٨٧) .

٥ ــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٥ ، ص١٤٨ .

٦ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٦١ .

ومن الأعلام الواردة في هذه السورة (إبراهيم) - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام - فقد ورد ذكره في ثلاث آيات[١] منها قوله تعالى :

{ ومــن أحســنُ ديناً ممن أسلمَ وجهَهُ للهِ وهو محسنٌ واتبعَ ملّةَ إبراهيمَ حنيفاً واتخذَ اللهُ إبراهيمَ خليلاً }[٢]

المقطع الأول من الآية بدأ باستفهام إنكاري يجزم بأنه لا أحد أحسن ممــن أســلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً ، ثلاثة أوصاف يكمــل بهــا معنى الدخول في الإسلام[٣] تتمثل في ملة أبي الأنبياء – عليه الســلام - (الــذي اشتهر عند جميع الطوائف أنه ما دعا إلا إلى الله وحده وتبرأ مما سواه)[٤] .

ثم يظهر هذا العلم مرة أخرى منبهاً على أنه جدير بالاتباع لاصطفاء الله - سبحانه وتعالى - له بالخلة[٥] ، وإظهار اسمه – عليه السلام - تفخيماً وتنصيصاً على أنه الممدوح[٦] .

ومــن الأعلام الوارد ذكرها في سورة النساء (جهنم) ، وهي علم عــلى نــار الله الموقدة[٧] التي أعدها سبحانه لأعدائه - أعاذنا الله من هذا المصير - وقد ورد ذكر جهنم في أربع آيات[٨] منها قوله تعالى :

---

١ ــ الآيتان (٥٤ و ١٦٣) والآية موضع الدراسة (١٢٥) .

٢ ــ الآية (١٢٥)

٣ ــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٥ ، ص٢١١ .

٤ ــ انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج٥ ، ص٤١٧ .

٥ ــ انظــر (الــدر المصون) للسمين الحلبي ، ج٢ ، ص٤٣٠ ، تحقيق الشيخ علي محمد معوض والشــيخ عادل أحمد عبد الموجود و د. جاد مخلوف جاد و د. زكريا عبد المجيد النوتي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هــ – ١٩٩٤م .

٦ ــ انظر (روح المعاني) للألوسي ، م٢ ، ج٥ ، ص١٥٤ .

٧ ــ انظر (المفردات) للراغب الأصفهاني مادة (جهنم) ، تحقيق صفوان عدنان داوودي ، دار القلم ، دمشق ، سوريا ، ودار الشامية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤١٨هــ – ١٩٩٧م .

٨ ــ منها قوله تعالى : **{ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً }**. الآية (٩٣) .

ومنها قوله تعالى : **{ أولئك مأواهم جهنم ولا يجيدون عنها محيصاً }** . الآية (١٢١) . =

{ وقـد نـزّل عـليكم في الكتابِ أن إذا سمعتُم آياتِ الله يُكفَرُ بها ويُستهزَأُ بهـا فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيرِه إنَّكم إذن مثلُهم إنَّ اللهَ جامعُ المنافقينَ والكافرينَ في جهنّمَ جميعاً }[١] .

لا تخـفى عـلى متأمّل لهجة الغضب الشديدة التي تتحدث عن عظم حـرمة آيات الله ، وأن مجالسة الخائضين فيها بما لا يليق جرم عظيم وهل بعـد جهنّم من عقاب ؟ (فاشتد حسن ختم الآية بجمع الفريقين في جهنم ... التي هي سجن الملك سبحانه كما جمعهم معهم مجلس الكفر الذي هو طعن في ملك الملك)[٢] ، وكذا حسن تذييل الآية بهذا العلم لما يدل عليه من عظم الوعيد المساوي للجرم .

٣ ــ اسم الإشارة :

الهـدف الـرئيس منه تمييز المشار إليه بواسطة الإشارة إليه حساً ، وذلـك مما تحتاجه هذه السورة التي طرحت الكثير من قضايا التشريع في مجتمع يتلقى منهجه من القرآن الكريم ؛ فاحتيج فيها إلى ورود اسم الإشارة ثنتين وأربعين مرة جاءت موزعة على النحو التالي :

سـبع عشرة مرة أتت الإشارة بـ(ذلك) ، وأربع عشرة مرة أتت بـ(أولـئك) ، وست مرات بـ(هؤلاء) ، أما (هذه) فثلاث مرات ، وأتـت الإشارة بـ(تلك) مرة واحدة ، و (ذلك) مجرورة بكاف التشبيه مرة واحدة .

= ومـنها قوله تعالى : **{ إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً }** . الآية (١٦٩) . والرابعة الآية موضع الدراسة .

١ ــ الآية (١٤٠) .

٢ ــ انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج٥ ، ص٢٣٩ .

وقد ذكر البلاغيون[١] عدة معان لاسم الإشارة منها : تعظيم المشار إليه ، والاستغراب ، والتعريض ، والتحقير ، وكمال العناية ، والتنبيه على المشـــار إليه المعقب بأوصاف جدير لأجل تلك الأوصاف بما ذكر بعد اسم الإشارة ، ولكن وجدت أن من أبرز الأغراض التي حققها اسم الإشارة في هذه السورة المباركة ذات الأسلوب التعليمي :

أ ـــ التعليل :

وهـــو هـــدف عظيم استخدمه أسلوب القرآن ليناقش العقول ويطمئن القلوب ، ومن أمثلته قول الله تعالى :

{ وإن خفتُم ألاّ تقسِطوا في اليتامى فانكحوا ما طابَ لكم من النساءِ مثـــنى وثلاثَ ورباعَ فإن خفتُم ألاّ تعدلوا فواحدةً أو ما ملكتْ أيمانُكم ذلك أدنى ألاّ تعولوا }[٢] .

الآية تحث على التقليل من الزوجات ، وهو أمر يغالب فطرة الرجل، لـــذا أوضـــح - سبحانه وتعالى - علة ذلك بقوله : " ذلك أدنى ألاّ تعولوا " لتتغـــلب عقولهم على أهوائهم ويحذروا مغبة الإسراف في جمع الزوجات ، فكان هذا التعليل خير علاج .

---

١ ـــ انظر (مفتاح العلوم) للسكاكي ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

وكذا (الإيضاح) للخطيب القزويني ، ص١١٨ .

وكذا (علوم البلاغة) للمراغي ، ص ١١٥ ، ١١٦ .

وكـــذا (الـــبلاغة فـــنونها وأفنانها) للدكتور فضل حسن عباس ، ص ٣٠٢ – ٣٠٦ ، دار الفرقان ، عمان ، الأردن ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـــ – ١٩٨٧م .

وكـــذا (جواهـــر الـــبلاغة) للهاشمي ، ص١٠٤ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة بدون .

وكذا (كشف الغموض عن فوائد البلاغة والعروض) دكتور الأيوبي و دكتور ديب ، ص ٤٥ ، دار الشمال ، طرابلس ، لبنان ، الطبعة الولى ، ١٩٩٠م .

٢ ـــ الآية (٢) .

وقريب منه قوله تعالى :

{ ومنْ لمْ يستطعْ منكم طولاً أنْ ينكحَ المحصناتِ المؤمناتِ فمن ما ملكتْ أيمانُكم من فتياتِكم المؤمنات ... } إلى قوله تعالى : { ذلك لمن خشي العنتَ منكم وأن تصبروا خيرٌ لكم واللهُ غفورٌ رحيمٌ }[١] .

المشـــار إليـــه في هذه الآية الكريمة تلك الفسحة في نكاح الأمَة لمن يعجـــزه الصـــبر حـــتى يجد ما ينكح به الحرة . يؤكده قوله تعالى : " وأن تصبروا خير لكم " . والإشارة إلى نكاح الإماء[٢] عللت الرخصة فيه .

ب ـ إثبات الصفات الواردة بعد اسم الإشارة للمشار إليه[٣] :

ومنه قوله تعالى :

{ تـــلك حـــدودُ اللهِ ومنْ يُطِعُ اللهَ ورسولَهُ يدخلْهُ جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها وذلك الفوزُ العظيمُ }[٤] .

فـــي اسم الإشارة (تلك) إشارة إلى ما مر من الأحكام في شؤون اليـــتامى وغير ذلك[٥]، أسماها الله حدوداً لأن الشرائع كالحدود ، ودل على تعظيمهـــا ســـبحانه بنسبتها إليه وباستعمال اسم الإشارة الدال على البعد ، وأردفـــه بشرط يحمل البشرى لمن أراد أن يطيع الله ورسوله ، وأشار إليه

---

١ ـ الآية (٢٥) .
ومنه الآية (٥٩) والآيات (٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩) ، والآية (١١٤) .
٢ ـ انظر (الكشاف) للزمخشري ، ج١ ، ص ٢٦٣ .
وكذا تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص ٥١٠ .
٣ ـ جاء في بعض كتب البلاغة بعنوان كمال العناية وتمييزه أكمل تمييز أو قريب منه .
انظر (الإيضاح) للخطيب القزويني ، ص١١٨ .
٤ ـ الآية (١٤) .
٥ ـ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٤٩٢ .
وكذا (الكشاف) للزمخشري ، ج١ ، ص٢٥٥ .

باســـم جديد يدل على التعظيم أيضاً لما فيه من معنى البعد ، وجعل دخول الجنات موصوف بما ذكر بعد اسم الإشارة[١] .

وجاء على شاكلته قوله تعالى :

{ إنمـــا التوبةُ على اللهِ للذينَ يعملونَ السوءَ بجهالةٍ ثم يتوبونَ من قــريبٍ فأولــئكَ يتوبُ اللهُ عليهم وكانَ اللهُ عليماً حكيماً * وليستِ التوبةُ للذينَ يعملونَ السيئاتِ حتى إذا حضرَ أحدَهم الموتُ قال إني تبتُ الآنَ ولا الذينَ يموتونَ وهم كفارٌ أولئكَ أعتدْنا لهم عذاباً أليماً}[٢].

اســـم الإشـــارة فـــي الآية الأولى " أولئك " (للتنبيه على استحضار المشار إليه باعتبار الأوصاف المتقدمة البالغة غاية الخوف من الله والمبادرة فـــي طلب مرضاته ليُعرف أنهم أحرياء بمدلول المسند الوارد بعد الإشارة والمعنى هؤلاء هم الذين جعلهم الله مستحقين قبول التوبة منهم)[٣] .

وعـــلى نقيضـــهم أولـــئك العصـــاة الكفرة ، استحقوا بجرمهم تلك الأوصـــاف التي جاءت بعد اسم الإشارة الدال على البعد (للإيذان بترامي حالهم في الفظاعة وبعد منزلتهم في السوء)[٤] ، والفريقان ممّن أخر التوبة حـــتى حضـــرته الوفـــاة ، وممّن مات على الكفر . أما من تاب من قريب فالإشـــارة بالـــبعد تـــدل عـــلى عظـــم توبته . ومثله كثير في هذه السورة العظيمة[٥] .

---

١ ـــ تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص ٤٩٤ .

٢ ـــ الآيتان (١٧ و ١٨) .

٣ ـــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٤ ، ص٢٨٠ .

٤ ـــ انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج١ ، ص٤٩٨ .

٥ ـــ تأمل الآية (٤١) وكذا الآيتين (٥١ و ٥٢) وكذا الآيتين (٦٩ و ٧٠) .

ج ـ التعظيم من شأن المشار إليه :

ويـــندرج تحته : علو المرتبة ، والتهويل ، والتحقير ، والتخويف ، والتفصيل ، وغير ذلك. انظر إلى قوله تعالى :

{ يـــا أيها الذينَ آمنوا لا تأكلوا أموالَكم بينكم بالباطلِ إلا أن تكونَ تجـــارةً عن تراضٍ منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن اللهَ كانَ بكم رحيماً * ومن يفعل ذلكَ عدواناً وظلماً فسوفَ نصليهِ ناراً وكانَ ذلكَ على اللهِ يسيراً }[١]

الإشارة إلى القتل خاصة وما قبله من أكل الأموال[٢] بالباطل ؛ وهذا أمـــر متناهٍ في الفساد فالإشارة إليه دلت على فداحة الخطب وعظم الجرم ، يؤكد هذا (ما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلهما في الفساد)[٣]

أمـــا الإشـــارة الثانية فهي إلى أمر أعظم (إلى إصلائه النار ويسره عـــليه تعـــالى وسهولته لأن حجته بالغة ، وحكمه لا معقب له)[٤] وفيه من الوعيد ما يخوف الله به عباده .

ومما جاء لتعظيم أمر المشار إليه قوله تعالى :

{ إنَّ اللهَ لا يغفـــرُ أنْ يُشركَ به ويغفر ما دونَ ذلكَ لمنْ يشاءُ ومن يشركْ باللهِ فقد افترى إثماً عظيماً }[٥] .

دلّ اســـم الإشارة (ذلك) على الأمر الكبير العظيم[٦] الذي لا يوجد أكبر منه ظلماً وكل أمر دونه هين ، ولقد تكرر هذا المعنى في قوله تعالى :

{ إنّ اللهَ لا يغفـــرُ أن يُشركَ به ويغفرُ ما دون ذلكَ لمن يشاءُ ومن يشركْ باللهِ فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً }[٧] . لبيان أن الشرك أبعد ضلالاً .

---

١ ـ الآيتان (٢٩ و ٣٠) .

٢ ـ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥١٤ .

٣ ـ المرجع السابق الصفحة نفسها .

٤ ـ انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج٣ ، ص٢٣٣ .

٥ ـ الآية (٤٨) .

٦ ـ انظر (نظم الدرر) للإمام البقاعي ، ج٥ ، ص ٣٩٧ .

٧ ـ الآية (١١٦) .

وقــد تجمع الآية عدة أسماء للإشارة يرمي كل واحد منها إلى هدف معين . اسمع قوله تعالى :

{ أيــنَما تكونــوا يدركْكُــمُ الموتُ ولو كنتُم في بروجٍ مشيدةٍ وإن تُصــبْهم حسنةٌ يقولوا هذه من عندِ اللهِ وإن تُصبهُم سيئةٌ يقولوا هذه من عندِك قلْ كلٌ من عندِ اللهِ فما لهؤلاءِ القومِ لا يكادونَ يفقهونَ حديثاً }[١] .

تضـــافرت أهـــداف عدة في هذه الآية كعادة أسلوب القرآن الكريم ، الأول مـــنها تعيين المشار إليه في ذهن السامع والتركيز عليه ، وثمة هدف آخــر هـــو التأكيد على الأوصاف الواردة بعد اسم الإشارة ونسبتها للمشار إليـــه ؛ فبزعمهم ينسبون السيئة للنبي - صلى الله عليه وسلم - تشاؤماً به - حاشـــاه ذلـــك بأبي هو وأمي - ؛ ولذا ذيلت الآية باستفهام إنكاري تبعه اسم إشـــارة آخر (هؤلاء) ليدل على المبالغة في قلة فهمهم وتعقلهم حتى نُفيت عـــنهم مقاربة الفقه[٢] (فحقرهم سبحانه بقوله " هؤلاء " وكأنه قال " القوم " الـــذي هـــو دال على القيام والكفاية إما تهكماً بهم ، وإما نسبة لهم إلى قوة الأبدان وضعف المكان)[٣] .

وقــد جــاء مـــن هذا القبيل كثير من الآيات لا يسع المقام مناقشتها جميعاً [٤] .

---

١ ــ الآية (٧٨) .

٢ ــ انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج٣ ، ص٣٠ .

وكذا (الكشاف) للزمخشري ، ج١ ، ص ٢٨٣ .

٣ ــ انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج٥ ، ص٣٣٦ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٦٩ .

٤ ــ انظر على سبيل المثال الآية : (٤١) وكذا الآيتين : (٦٢ و٦٣) وكذا الآية : (٩٤) والآية (١٠٩) والآيـــتين : (١٢٠ و ١٢١) والآية : (١٣٣) وكذا الآية : (١٤٣) والآية : (١٥٣) وكذا (١٢٤) وكذا الآية : (١٤٦) .

٤ــ الاسم الموصول :

هو من أدق أنواع المعارف والحاجة إليه تكمن في صلته ؛ كما قال السكاكي(*) : (أما الحالة التي تقتضي كونه موصولاً - يريد المسند إليه - فهي متى صح إحضاره في ذهن السامع بوساطة ذكر جملة معلومة الانتساب إلى مشار إليه واتصل بإحضارها بهذا الوجه غرض)[١] .

ورد الاسم الموصول في سورة النساء أكثر من مائة وخمسين مرة ، وبالاستقراء وجدت أن الأغراض التي يحققها هذا الاسم كثيرة الجامع بينها جميعاً التوضيح . وقد اخترت نماذج منها محاولة تصنيفها على الأنواع الأكثر شيوعاً، والتي ترتبط بمحاور السورة الأساسية ورتبتها حسب أسبقية ورودها على النحو التالي .

أ ــ التعليل :

من أمثلته قوله تعالى :

{ يا أيها الناسُ اتقوا ربَّكم الذي خلقَكم من نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجَها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا اللهَ الذي تساءلونَ به والأرحامَ إنَّ اللهَ كانَ عليكم رقيباً }[٢] .

---

* هو سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن محمد السكاكي المتوفى سنة ست وستين وستمائة من الهجرة ، من رجال البلاغة في القرن السابع ، وله مؤلفات شتى ، منها (مفتاح العلوم) .

انظر (تاريخ البلاغة) د. عبد العزيز عتيق ، ص٢٧١ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة بدون ، ١٩٧٠م .

١ ــ انظر (مفتاح العلوم) للسكاكي ، ص٨٦ ، ٧٦ .

وكذا (الإيضاح) للقزويني ، ص٢٤ ، ٢٥ .

وكذا (شروح التلخيص) ، ج ١ ، ص ٣٠٢ وما بعدها .

وكذا (علوم البلاغة) للمراغي ، ص١١٦ ، ١١٧ .

٢ ــ الآية (١) .

جاء الموصول الأول صفة معللة لأعظم أمر (جار على أن الوصف الــذي عــلق به الحكم علة موجبة له ، أو باعثة عليه داعية له)[١] ، وهل أعظــم مــن الخــلق منة ، فالأمر بتقوى صاحب القدرة العظيمة والنعمة الجسيمة أكبر برهان على وجوب الامتثال ؛ ولهذا أكد بإعادته مع تذكيرهم بما اعتادت نفوسهم تعظيمه حتى في جاهليتهم[٢] ، فكان إعادة الأمر بالتقوى مع الاسم الموصول وصلته تأكيداً للأمر الأول[٣] ، وفي هذه الصلة براعة اســتهلال مناسب لما اشتملت عليه السورة من الأغراض الأصلية ، فكانت بمنزلة الديباجة الرائعة لكل ما جاءت به هذه السورة الشريفة من تشريعات وأحكام ومعاملات وسلوكيات .

ومنه قوله تعالى :

{ ولا تؤتوا السفهاءَ أموالَكم التي جعلَ اللهُ لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً }[٤] .

الحاجة المعنوية لاسم الموصول ماسة جداً حتى تجري على الأموال تلك اللفتة المهمة الموضحة في جملة الصلة ، قال ابن عاشور : (فجاء في الصــفة بموصول إيماءً إلى تعليل النهي ، وإيضاحاً لمعنى الإضافة)[٥] في " أموالكم " ، حيث وصف هذه الأموال بالاسم الموصول موضحاً في صلته علة النهي الذي بدأت به الآية ، فإنها وإن كانت في ظاهرها تخص بعضهم ولكــنها فــي حقيقتها مال الله وضعه أمانة عند بعض الأثرياء ليبتليهم به ، فينبغي صرفه لما يعود على الجميع بالنفع العام فهو قوام الأمة بأسرها .

---

١ ــ انظر (روح المعاني) للألوسي ، م٢ ، ج٥ ، ص١٨٠ .

٢ ــ أي ســؤال بعضهم بعضاً بالله تعالى بأن يقولوا : أسألك بالله وأنشدك الله على سبيل الاستعطاف وكذا : أسألك بالله وبالرحم .

انظر تفسير أبي السعود ، ج١، ص٤٧٧ .

٣ ــ انظر تفسير (روح المعاني) للألوسي ، م٢ ، ج٥ ، ص١٨٣ .

٤ ــ الآية (٥) .

٥ ــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٤ ، ص٢٣٥ .

ومنه قوله تعالى :

{ واللاتي يأتين الفاحشةَ من نسائكم فاستشهدوا عليهنَّ أربعةً منكم فإن شهدوا فأمسكوهنَّ في البيوتِ حتى يتوفاهنَّ الموتُ أو يجعلَ اللهُ لهنَّ سبيلاً }[1] .

لقد خصصت جملة الصلة تلك الفئة من النساء بصفة تعلل الحكم الذي قضى به الحق - سبحانه وتعالى - به عليهن .

ومنه قوله تعالى :

{ يا أيها الذينَ أوتوا الكتابَ آمنوا لما نزّلنا مصدقاً لما معكم من قبلِ أن نطمِسَ وجوهاً فنردَّها على أدبارِها أو نلعنَهم كما لعنا أصحابَ السبتِ وكان أمر الله مفعولاً }[2].

جاء الموصول الأول وصلته تعليلاً كافياً (لإيجاب الامتثال بالأمر الذي يعقبه والتحذير من مخالفته)[3] لكونهم أهل دين سماوي يعلمون حقيقة ما أنزله الله على محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وهم مأمورون بالإيمان به .

وجعلت الصلة هنا في الخطاب " الذين أوتوا الكتاب " وفي آية سابقة " أوتوا نصيباً من الكتاب "[4] لما في الموضعين من تفاوت لأن ذلك جاء في مقام التعجب والتوبيخ ، فمناسبته صلة مؤذنة بتهوين شأن عملهم بما أوتوه

---

١ ــ الآية (١٥) .

ذهب كثير من المفسرين إلى أن ما أبهم في هذه الآية قد حدد في سورة النور وأن الفاحشة هنا هي الزنا هناك، والسبيل هو الحكم الذي حدد فيها . وانفرد مجاهد برأي قد يكون هو الأقرب بدلالة الموصول عليه ، فالمراد بالفاحشة هي الساحقة لأن الاسم الموصول الوارد في النص مختص بالنساء ، واللذان في الآية التي تليها مختص بالذكور وعقوبة النساء الحبس وعقوبة الرجال الأذى فتكون هاتان الآيتان وآية النور قد استوفت أصناف الزنا . ويؤيد هذا قوله : " من نسائكم : وقوله : " منكم " . انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج١ ، ص١٩٤ .

٢ ــ الآية (٤٧) .

٣ ــ انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج١ ، ص٥٣٠ .

٤ ــ جزء من الآية (٤٥) .

مــن الكــتاب ، أما هنا فجاء في مقام الترغيب ، فمناسبته صلة تؤذن بأنهم عرّفوا بإيتاء التوراة لتثير هممهم للاتسام بسيم الراسخين في جريان أعمالهم على وفق ما يناسب ذلك[١] .

(وجيء بالصلتين في قوله تعالى : " بما نزلنا " وقوله : " بما معكم" دون الاسمين العلمين وهما : القرآن والتوراة ، لما في قوله : " بما نزلنا " مــن التذكير بعظم شأن القرآن أنه منزل بإنزال الله ، ولما في قوله : " لما معكم " من التعريض بهم في أن التوراة كتاب مستصحب عندهم لا يعلمون منه حق علمه ولا يعملون بما فيه)[٢] .

ب ـــ التعميم :

اسمع قوله تعالى :

{ ولله مــا فــي السموات وما في الأرض ولقدْ وصينا الذينَ أوتوا الكــتابَ من قبلِكم وإياكُم أن اتقوا اللهَ وإن تكفروا فإن للهِ ما في السمواتِ وما في الأرضِ وكانَ اللهُ غنياً حميداً }[٣] .

ليس أوضح من هذا العموم الذي مثلته (ما) في هذه الآية الكريمة ، فكــل الموجودات ملك له دون منازع (فيدل ذلك على كمال سعته وعظيم قدرتـــه)[٤] ، وأكد هذا المعنى في إعادة الموصول نفسه في قوله تعالى : { وإن تكفــروا فــإن لله مــا في السموات وما في الأرض } ، أي (وأنتم ممــلوكون له فــلا يناســب أن تكفروا ... ولله ما في سمائه وأرضه يوحده ويعبده ولا يعصيه)[٥] .

---

١ ـــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٥ ، ص٧٨ .

٢ ـــ المرجع السابق الصفحة نفسها .

٣ ـــ الآية (١٣١) .

٤ ـــ انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج١ ، ص٥٩٢ .

٥ ـــ انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج٣ ، ص٣٦٦ .

ومن هذا قوله تعالى :

{ لـلرجالِ نصيبٌ مما تركَ الوالدانِ والأقربونَ وللنساءِ نصيبٌ مما تركَ الوالدانِ والأقربونَ مما قلَّ منه أو كثُرَ نصيباً مفروضاً }[١] .

لقد تكرر الاسم الموصول ليقرر مع صلته أنه (لا فرق بينهن وبين الرجال في القرب الذي هو سبب الإرث)[٢] (وعليه تأكيد حقهن في عموم الإرث ... وزاد الحكم تحقيقاً الموصول الثالث وصلته في قوله تعالى : " مما قل منه أو كثر " فللفريقين حق من كل ما جل ودق)[٣] أي عموم الإرث .

ج ـ الإيماء والإشارة :

قد يأتي الاسم الموصول للإيماء والإشارة إلى نوع الخبر من مدح وذم وعقاب وغير ذلك ، حيث يتنبه الفطن من فاتحة الكلام إلى خاتمته ، ويدرك ما تومئ إليه من المقاصد[٤] ، وذلك كقوله تعالى :

{ وليخشَ الذينَ لو تركوا من خلفِهم ذريةً ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا اللهَ وليقولوا قولاً سديداً }[٥] .

أراد الحق تبارك وتعالى أن ينبه عباده إلى أمر قد يكون خافياً على كثير منهم خصوصاً من ألهته العافية في حاله وعياله عن مراعاة الله في غيره (فجيء بالموصول لأن الصلة لما كانت وصفاً مفروضاً حسن التعريف بها إذ المقصود تعريف من هذه حاله وذلك كاف في التعريف للمخاطبين بالخشية إذ كل سامع يعرف مضمون هذه الصلة لو فرض

---

١ ـ الآية (٧) .

٢ ـ انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج٥ ، ص٢٠٠ .

٣ ـ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٤٨٧ .

مثله الآية رقم (٣) والآية رقم (١٦٦) .

٤ ـ انظر (علوم البلاغة) للمراغي ، ص١١٧ .

٥ ـ الآية (٩) .

حصـــولها له إذ هـــي أمر يتصوره كل الناس)[١] فنبهوا إلى العاقبة ليكون الوعظ بمضمون الصلة رادعاً عن الظلم .

ومن هذا قوله تعالى :

{ واللهُ يـــريدُ أن يـــتوبَ عـــليكم ويريدُ الذين يتبعونَ الشهواتِ أن تميلوا ميلاً عظيماً }[٢]

في الآية الكريمة مباينة عجيبة بين (كمال منفعة ما أراده الله تعالى وكمـــال مضـــرة مـــا يـــريده الفجرة)[٣] عباد الشهوات والذي يريده عباد الشـــهوات من المؤمنين إمالتهم عن طريق النجاة . وهذه النتيجة دلّ عليها الكلام باتصاف "الذين" بجملة الصلة وهي " يتبعون الشهوات " .

ومنه قوله تعالى :

{ والذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ سندخلُهم جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها أبداً وعدَ اللهِ حقاً ومن أصدقُ من اللهِ قيلاً }[٤].

حمـــلت هذه الجملة البشرى من بدايتها فكان الموصول وصلته منبهاً على خاتمة الكلام الذي جاء نتيجة طبيعية لما في حيز الصلة .

<u>٥ـــ التعريف بأل .</u>

يأتي لغرضين رئيسين هما :

أ ـــ تعريف الجنس .

ب ـــ تعريف العهد .

---

١ ـــ انظر (التحرير و التنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٤ ، ص٢٥٢ .

٢ ـــ الآية (٢٧) .

٣ ـــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥١٢ .

٤ ـــ الآية (١٢٢) .

وكــل من هذين الصنفين يتفرع عنه أقسام أخرى[١] وما يعنينا منها هــنا تــلك اللفتات البلاغية الدقيقة التي تكسبها ــ ال ــ اللفظة المعرفة بها ومن ثم تضيفها اللفظة على السياق ككل .

أ ــ (أل) لتعريف الجنس :

أولى مواضعها في أول آية في سورة النساء قال جل من قائل :

{ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجهــا وبــث مــنهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً }[٢] .

قــد افتتح الله عز وجل سورة النساء بنداء عام[٣] تحمله أداة القريب والــبعيد ليتخطى حدود المكان والزمان وجعل المنادى عامة الناس لما في الكلمة من التعريف ــ بال ــ التي تفيد استغراق الجنس الحقيقي (فالظاهر

---

١ ــ انظر (مفتاح العلوم) للسكاكي ، ص ٨٨ و ٨٩ .

وكذا (الإيضاح) للخطيب ، ص ٢٧ .

وكذا (شروح التلخيص) ، ج ١ ، ص ٣٣٠ وما بعدها .

وكذا كتاب (معاني الحروف) للرماني ، ص ٦٥ ، تحقيق د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة ، السعودية ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧هــ – ١٩٨٦م .

وكذا (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) لابن هشام ، ج ١ ، ص ٤٩ وما بعدها ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة بدون .

وقصرها صاحب (جواهر البلاغة) إلى سبعة أقسام موزعة على نوعين :

أ ــ لام العهد الخارجي وتحته أنواع ثلاثة : صريحي ، وكنائي ، وحضوري .

ب ــ لام الجنس وتحته أربعة أنواع : لام الحقيقة من حيث هي ، ولام الحقيقة في ضمن فرد مبهم ، ولام الاستغراق الحقيقي ، ولام الاستغراق العرفي انظر ص ١٠٨ .

٢ ــ الآية (١) .

٣ ــ انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .

وكذا (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ٣ ، ص ١٥٣ . وكذا تفسير أبي السعود ، ج ١ ، ص ٤٣٥ . وكذا (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ٥ ، ص ١٧١ . أو أي تفسير شئت .

فـــي (الـــناس) العموم لأن الألف واللام فيه تفيده)[١] وألزمهم جميعاً أمر التقوى لما فيه من صلاح الباطن والظاهر والفوز بالدارين .

ومنه قوله تعالى :

{ لكنِ اللهُ يشهدُ بما أنزلَ إليكَ أنزلَهُ بعلمِهِ والملائكةُ يشهدونَ وكفى باللهِ شهيداً }[٢]

هـــذه الآيـــة الكريمة جمعت أموراً عظيمة الشأن منها تكريم العظيم المـــنان لجنس الملائكة أمناء الحق بهذه الشهادة التي قُرنت بشهادته سبحانه وتعالى .

ومـــن مـــن الملائكة لا يشهد بهذا الحق (وهم حضور لإنزاله أمناء عـــلى مـــن كان على يديه تبليغه)[٣] وقد جُمِعوا في أداة التعريف التي تفيد اســـتغراق الجنس فكلهم شهداء (على صدق ما جاءك وأوحي إليك وأنزل عـــليك)[٤] يـــا محمد – صلى الله عليه وسلم – وفيه من التسلية والتكريم لرســـول الله الشـــيء العظيم (ولما كان يتوهم أن يُفهم من ورود شهادتهم نقصـــاً نفـــاه المـــولى القديـــر)[٥] تعزيـــزاً لهـــذه الشهادة بقوله تعالى : { وكفى بالله شهيداً } .

ب ــ (أل) لتعريف العهد :

ومما يمثل هذا قوله تعالى :

{ ولا تؤتوا السفهاءَ أموالَكُمُ التي جعلَ اللهُ لكُمْ قياماً وارزقوهُمْ فيها واكسوهُم وقولوا لهم قولاً معروفاً }(٦) .

---

١ ــ انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

٢ ــ الآية (٦٦) .

٣ ــ انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج ١ ، ص ٥١٥ .

٤ ــ انظر تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٥٩٠ .

٥ ــ انظر (نظم الدرر) للبقاعي بتصرف يسير ، ج ٥١ ، ص ٥١٥ .

٦ ــ الآية (٥) .

لما ذكر سبحانه في الآية السابقة { وآتوا اليتامى } وهو أمر بأن تسلم إليهم أموالهم قابله بهذه في النهي عن إيتاء المال للسفهاء منهم مغبة التفريط فيه على وجه يضرهم في مستقبل حياتهم .

المفـــردة المعرفة بلام العهد : { السفهاء } يجوز أن يراد بها اليتامى لأن الصغر حالة السفه الغالبة فيكون مقابلاً لقوله تعالى : {وآتوا اليتامى}[١] (لـــبيان الفـــرق بين الإيتاء بمعنى الحفظ والإيتاء بمعنى التمكين ، ويكون العـــدول عن التعبير عنهم باليتامى إلى التعبير هنا بالسفهاء لبيان علة المنع)[٢] وإذا صـــح هـــذا فالألف واللام للعهد الكنائي أي اليتامى المعهود فيهم السفه خاصة[٣] أما الخطاب فهو للأولياء نُهوا أن يؤتوا المبذرين من اليتامى أموالهـــم مخافـــة أن يضيعوها[٤] فنزلت منزلة أموال الأولياء لقوله تعالى: { أموالكـــم } فكأن أموال اليتامى هي عين أموال الأولياء مبالغة في حملهم على المحافظة عليها[٥] .

ومنه قوله تعالى :

{ وإذا حضـــر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً }[٦] .

عدة كلمات معرفة ــ بال ــ ولكن ما يعنينا هي كلمة (القسمة) لأن ــ أل ــ بهـــا تدل على العهد الذهني الذي مهدت له الآية السابقة عليها في قولـــــه تعالى : **{ للرجالِ نصيبٌ ممّا تركَ الوالدانِ ... }**[٧] لأن تخصيص

---

١ ــ جزء من الآية (٢) .

٢ ــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج ٤ ، ص ٢٣٤ .

٣ ــ ويجـــوز أن يراد بالسفهاء مطلق من ثبت له السفه سواء كان عن صغر أم عن اختلال تصرف فـــتكون الآية تعرضت للحجر على السفيه الكبير استطراداً للمناسبة وهذا هو الأظهر لأنه أوفر معنى وأوسع تشريعاً / المرجع السابق الصفحة نفسها .

٤ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج ١ ص ٤٨٤ ، .

٥ ــ المرجع السابق ، نفس الصفحة .

٦ ــ الآية رقم (٨) .

٧ ــ جزء من الآية رقم (٧) .

أنصـــباء الورثـــة هـــو نفسه القسمة[١] التي ذكرت هنا وعليه فهذه القسمة معهـــودة فـــي ذهـــن السامع ولم يحتج فيها إلى مزيد توضيح لا بموصول وصلته ولا بوصف ولا غير ذلك لما قامت به (ال) العهد . فعجباً لأسلوب الذكر الحكيم !

٦ _ *التعريف بالإضافة :*

قال السكاكي : (أما الحالة التي تقتضي التعريف بالإضافة فهي متى لم يكن للمتكـــلم إلى إحضـــاره في ذهن السامع طريق سواها ... أخصر ولأن في الإضافة حصول مطلوب آخر مثل أن تغني عن التفصيل أو تتضمن اعتباراً لطيفـــاً مجازيـــاً أو أن تتضمن نوع تعظيم ، أو نوع تحقير ، أو غرضاً من الأغراض ممكن التعلق بالإضافة)[٢]

فللإضافة شأن عظيم في كلام العرب ، تراهم يعمدون إليها اختصاراً تلـــبيةً لحاجة في نفوسهم لسبب أو لآخر[٣] (ومن شأنها الاختصاص لأنها تتـــناول الشـــيء مـــن الجهة التي تختص منها بالمضاف إليه . فإذا قلت : " غـــلام زيـــدٍ " تـــناولتْ الإضافة الغلام من الجهة التي تختص منها بزيد وهـــي كونـــه ممـــلوكاً)[٤] له . إذن الاختصـــار والاختصـــاص مطلبان رئيســـيان للإضـــافة وعـــنهما تـــتفرع مطالب بلاغية أخرى كالتي ذكرها

١ _ انظر (الكشاف) ، ج ١ ، ص ٢٤٩ .

وكذا تفسير ابن كثير ، م ١ ، ص ٤٥٦.

٢ _ انظر (مفتاح العلوم) للسكاكي ، ص٨٩ .

٣ _ مـــن أبرز تلك الأسباب قدرة العظيم في تهيئة العرب بلاغياً إرهاصاً لنزول القرآن الكريم فيهم وبلغـــتهم ؛ ليكـــون اعترافهم بإعجازه حجة على غيرهم في زمانهم والأزمنة اللاحقة بهم . وذلك لما فطرت عليه نفوسهم من البلاغة المتمكنة المنبت الخصبة التربة .

راجع في هذا الفصل التمهيدي ،

٤ _ انظر (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني ، ص٣٦٢ .

السكاكي[1] في مفتاحه وزاد عليها غيره[2] . وإليك بعض هذه الأغراض ممثلة في نماذج من سورة النساء المباركة .

أ ــ **من أهم أغراض الإضافة : الاختصار .**

ومن أمثلته في سورة النساء قوله تعالى :

{ وما لكُمْ لا تقاتلونَ في سبيلِ اللهِ والمستضعفينَ من الرجالِ والنساءِ والولدانِ الذينَ يقولونَ ربَّنا أخرجنا من هذه القريةِ الظالمِ أهلها واجعلْ لنا من لدنْكَ ولياً واجعلْ لنا من لدنْكَ نصيراً }[3] .

في الآية موضعان للإضافة يغنيان عن التفصيل : أولهما في قوله عز من قائل : "سبيل الله" ، والآخر في : " الظالم أهلها " ؛ فسبيل الله طرق كثيرة تجمع مجامع البر والخير من إعلاء لكلمة الله سبحانه ونشر دينه ونصرة عباده المستضعفين ، وأمور شتى جمعتها هذه الإضافة في كلمتين في حكم الكلمة الواحدة ، فكان قوله (سبيل الله عام في كل خير)[4] . وقد تكرر هذا في القرآن عامة وسورة النساء خاصة ، والهدف البلاغي منه إرادة الإطلاق بقدر ما في سبيل الله من سعة .

---

١ ــ انظر (مفتاح العلوم) للسكاكي ، ص٨٩ .

وانظر كذا (شروح التلخيص) وقد جعلوا لكل غرض أقساماً أخرى كثيرة ، ج١ ، ص ٣٤٤ .

٢ ــ زاد المراغي أقساماً مثل أن تتضمن تحريضاً على الإكرام نحو : صديقك عندك . أو تهكماً نحو قوله تعالى : **{ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون }** الشعراء ، الآية (٢٧) .

انظر علوم البلاغة للمراغي ، ص١٢١ وما بعدها .

وربما ما ذكره المراغي هو نفسه ما أشار إليه السكاكي بقوله : (اعتباراً مجازياً) وفي نظري أن الأغراض البلاغية لا تحد ولا تضبط ولكن يفسرها السياق دائماً ، والله أعلم وأحكم .

٣ ــ الآية (٧٥) .

٤ ــ انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج٣ ، ص ٢٩٤ .

والإضافة الثانية في قوله : " أهلها " أضاف الأهل إلى الضمير العائد علـى القـرية[١] لتعني ذكر فئات كثيرة في هذا المجتمع الذي غلبته شقوته فـراحوا يكيلون العداء وصنوف الأذى لتلك الفئة المستضعفة المتخلفة في مكـة زمـن الهجرة منها . وأهلها فئات كثيرة ، من سادة متجبرين أو أهل سـوق متعسفين أو جيران سوء فاسقين ، كلهم تعاونوا على الإثم والعدوان وجمعـتهم هذه الإضافة في اختصار عجيب . وقد علل أحد المفسرين ذكر أهـل القرية دون القرية قائلاً : (وفي هذا نكتة بلاغية حسنة ، وهي : أن كل قرية ذُكرت في الكتاب العزيز فالظلم إليها ينسب بطريق المجاز كقوله تعالى : { **وضربَ اللهُ مثلاً قريةً كانتْ آمنةً مطمئنةً** } إلى قوله : { **فكفرَتْ بـأنعُمِ اللهِ** } ، وقولـه تعالى : { **وكمْ أهلكنا من قريةٍ بطِرَتْ معيشتها** } . وأما هذه القرية في سورة النساء فينتسب الظلم إلى أهلها على الحقيقة ؛ لأن المراد بها مكة المكرمة ، فوُقِّرتْ عن نسبة الظلم إليها تشريفاً لها ، شرفها الله)[٢] .

ومنه قوله تعالى :

{ **وإنْ خفـتُمْ شقاقَ بينِهِما فابعثوا حكماً منْ أهلِهِ وحكماً من أهلِها إنْ يريدا إصلاحاً يوفقِ اللهُ بينَهُما ...** }[٣] .

---

١ ــ انظر تفسير ابن كثير ، ج١ ، ص٥٢٦ .

وكـذا الشـوكاني في (فتح القدير) ، ص٤٨٨ ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة بدون .

وكذا أبي حيان كلهم جعلوا القرية مكة المكرمة .

٢ ــ انظـر (الانتصـاف مـن شـبه الكشـاف) للإمـام ناصـر الدين أحمد الإسكندري المالكي (ت ٦٨٣هـ) بهامش (الكشاف) ج١ ، ص٥٤٢ .

والآيات على التوالي : (١١٢) ، سورة النحل . (٥٨) ، سورة القصص .

٣ ــ جزء من الآية (٣٥) .

الإضافة المقصودة في : (أهله و أهلها) أغنت كما نرى عن التفصيل المطلوب من هذه الجماعة أو تلك والقصد منها طرح قضية الخلاف بعيداً عن المشاحنات والعواطف لعلها تُحلُّ وتنتهي بسلام .

ومنه قوله تعالى :

{ واعبدوا اللهَ ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدينِ إحساناً وبذي القربى ... }[١]

فكل قريب داخل تحت هذه الإضافة ووجوب الإحسان له على الإطلاق .

ب ـ الإضافة بغرض التعظيم :

وهذا كثير جداً في هذه السورة ومما جاء منه قوله تعالى :

{ تلكَ حدودُ اللهِ ومنْ يطعِ اللهَ ورسولَهُ يدخلْهُ جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها وذلكَ الفوزُ العظيمُ }[٢] .

أضيفت الحدود إلى أعظم لفظ حتى يتهيب المؤمنون مجاوزتها إيماناً منهم (بأن المكلف لا يجوز له أن يتجاوزها إلى غيرها)[٣] ومع سعة هذه الحدود إلا أن الإضافة اختصرتها بقدر ما فيها من تعظيم ، فدخل في هذا التركيب الإضافي " حدود الله " كل ما ذكر من أحكام (من أول هذه السورة بل من أول القرآن)[٤] ، ولا شك في أنها حدود جليلة النفع عظيمة الجدوى وزادها تعظيماً إضافتها إلى لفظ الجلالة (الله) .

ومنه قوله تعالى :

---

١ ـ جزء من الآية (٣٦) . وغيره كثير في هذه السورة .

٢ ـ الآية (١٣) .

٣ ـ انظر (روح المعاني) للألوسي ، م٢ ، ج٤ ، ص٢٣٣ .

٤ ـ انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج٥ ، ص٢١٣ .

{ وإذا جـاءَهم أمرٌ من الأمنِ أو الخوفِ أذاعوا به ولو ردُّوه إلى الرسـولِ وإلى أولي الأمرِ منهم لعلمهُ الذين يستنبطونهُ منهم ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورحمتهُ لاتبعتمُ الشيطانَ إلا قليلاً }[١] .

التركيب الإضافي المقصود : { فضل الله } وأي عظمة تضاهي هذه العظمـة فالفضـل شيء تعظمه النفوس وناهيك عندما يكون منه سبحانه . أجمـع المفسـرون على أن هذا الخطاب للمؤمنين[٢] وقد تأولوه في أشياء كثيرة ولكن فضل الله لا يعد ولا يحصى .

وقد يصاحب التعظيم تخويف وتهديد مثل قوله تعالى :

{ يـا أيها الذين أوتوا الكتابَ آمنوا بما نزّلنا مصدقاً لما معكم من قـبلِ أن نطمـسَ وجوهاً فنردَّها على أدبارِها أو نلعنَهم كما لعنا أصحابَ السبتِ وكانَ أمرُ اللهِ مفعولاً }[٣].

التركيب الإضافي المقصود هنا هو { أمر الله } وقد حمل مع التعظيم لهذا الأمر تخويف وتهديد ووعيد بوقوعه لا محالة .

ج ـ التحريض على الإكرام :

مثل قوله تعالى :

{ يا أيُّها الناسُ اتقوا ربَّكم الذي خلقَكم من نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجهـا وبـثَّ مـنهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا اللهَ الذي تساءلونَ به والأرحامَ إنَّ اللهَ كانَ عليكُم رقيباً }[٤].

الإضافة الموجبة للإكرام في قوله تعالى { ربكم } لأن فيها دليل على قـرب الله سبحانه برحمته من عباده وإكرامه لهم بما يقتضي معنى التربية

---

١ ـ الآية (٨٣) .

٢ ـ انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج٣ ، ص٣٠٧ .

٣ ـ الآية (٤٧) .

٤ ـ الآية رقم (١) .

وهو الغني عن ذلك ، إلا أن أسلوب القرآن لا يترك طريقاً للدعوة إلا سلكه بأروع ما تكون الحجة والبرهان .

ومنه قوله تعالى :

{ يا أهلَ الكتابِ لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على اللهِ إلا الحقَّ إنَّما المسـيحُ عيسـى ابنُ مريمَ رسولُ اللهِ وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه فآمنوا باللهِ ورسُلِه ... }[١] .

الإضافة تحمل معنى التكريم في قوله تعالى : { رسول الله وكلمته } فكونـه كذلـك فهـو مستحق غاية الإكرام منهم ومن غيرهم فأكرموه لهذا وانتهوا عن غلوائكم التي لا طائل من ورائها إلا الخسران المبين .

د ـ ومن الإضافة ما حمل معنى التحقير :

فـي قوله تعالى : **{ أو نلعنَهم كما لعنَّا أصحابَ السبتِ }**[٢] ، ومنه قوله تعالى : **{ ولا تهنوا في ابتغاء القوم }**[٣] .

هـذه الإضافات دلت على تحقير المضاف وحطت من قدره ، وبيان ذلـك أن في قوله تعالى : **{ أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت }** حمل هذا التهديد الخزي والعار والتحقير لليهود حيث ذكرهم المولى بتلك اللعنة التي نزلت بأجدادهم لعصيانهم الحق فمسخهم قردة وخنازير ، وهم يعلمون ذلك يقيـناً بدليل قوله تعالى : **{ ولقد علمتُمُ الذينَ اعتدَوا منكم في السبتِ فقلنا لهم كونوا قردةً خاسئين }**[٤] .

---

١ ـ جزء من الآية (١٧١) .

٢ ـ جزء من الآية (٤٧) .

٣ ـ جزء من الآية (١٠٤) .

٤ ـ سورة البقرة ، الآية (٦٥) .

وفـــي قوله تعالى : { ولا تهنوا في ابتغاء القوم } ، الابتغاء مصدر ابـــتغى بمعنى الطلب[١] فإضافة هذا الابتغاء إلى لفظ القوم ينبئ عن التحقير لشأنهم ، إذ تستخدم كلمة القوم في أحد وجوهها للتحقير ، وقد ظهر هذا جلياً في قوله تعالى :

{ فما لهؤلاء القومِ لا يكادونَ يفقهونَ حديثاً }[٢] .

فـــبذا دلـــت الإضافة على تحقير المطلوبين وتهوين أمرهم في أعين المسلمين ولا شك أن أعداء الله كذلك لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين بعثاً على تشجيع المؤمنين للقتال ؛ لأن في الجملة كناية عن المبادرة بالغزو[٣].

٧ــ الخروج على مقتضى الظاهر :

وبعـــد أن صحبنا المعارف كلاً على حدة يتبادر إلى الذهن سؤال : هل تحل إحدى تلك الأنواع محل الأخرى ؟ وما الغرض من ذلك ؟

نجـــد الـــبلاغيين - رحمهم الله تعالى - قد نبهوا إلى ذلك في دراسة خاصـــة هـــي : وضـــع المضمر موضع المظهر وعكسه ، وتغيير أساليب الخطـــاب مـــن حالـــة إلى أخرى مما يعرف باسم الالتفات[٤] . وفي سورة النساء شواهد رائعة على بلاغة هذه الأساليب العربية ودقة أدائها للمعنى .

---

١ ــ قـــال الراغب الأصفهاني : الابتغاء خُص بالاجتهاد في الطلب ، فمتى كان الطلب لشيء محمود فالابـــتغاء فيـــه محمـــود، نحو **{ ابتغاء رحمة من ربك }** الإسراء (٢٨) ، **{ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى}** الليل (٢٠) ، انظر (المفردات) ، مادة (بغى) .

٢ ــ الآية (٧٨) .

٣ ــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٥ ، ص١٩٠ .

٤ ــ انظـــر (دراســـة الالـــتفات الـــبلاغي ، تراث المصطلح ومعاصرة المفهوم) ، محاضرة بقلم أ.د.عبد العزيز أبو سريع ياسين ، مجلة الموسم الثقافي لكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى ، ١٤١٨ -١٤١٩هـــ ، ص ٨٩ وما بعدها .

أولاً : وضع المظهر موضع المضمر :

يخرج المظهر موضع المضمر في مواطن كثيرة في الكلام العربي وفي القرآن الكريم بالذات ، ووراء ذلك أغراض بلاغية تلمح من السياق ، وقد وجد البلاغيون أن لفظ الجلالة في { اللهُ الصمد } في قوله تعالى :

{ قُلْ هوَ اللهُ أحدٌ * اللهُ الصَّمَدُ }[١] .

يمكـــن الاستغناء عنه بضميره لسبق ذكره ، ولكن ذكره قوى إسناد الحكـــم وزاده تأكيداً وتمكيناً في ذهن السامع[٢] ؛ (لأن الظاهر لما وقع في غير موقعه كان كحدوث شيء غير متوقع فأثّر في النفس تأثيراً بليغاً)[٣] . واعتبروا هذا غرضاً يمكن أن يكون في كل موضع ، وقد يصحبه أغراض بلاغيـــة أخـــرى تتـــبع سياق الأساليب . ومن أمثلته في سورة النساء قوله تعالى :

{ فقاتلْ في سبيلِ اللهِ لا تكلَّفُ إلاّ نفسكَ وحرِّضِ المؤمنينَ عسى اللهُ أنْ يكُفَّ بأسَ الذينَ كفروا واللهُ أشدُّ بأساً وأشدُّ تنكيلاً }[٤] .

موضع الشاهد قوله تعالى : { والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً } حيث ذكر لفـــظ الجلالـــة بـــدل ضميره ؛ ليفيد زيادة تمكين لمعنى البأس والتنكيل في نفوس السامعين . وقد ترجم المفسرون ذلك بقولهم : (وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتغليب الحكم وتقوية استقلال الجملة)[٥] أي جملة التذييل .

ومثله قوله تعالى :

---

١ ــ الآيتان (١ ، ٢) ، سورة الإخلاص .

٢ ــ انظر (مواهب الفتاح) لابن يعقوب المغربي ضمن (شروح التلخيص) ، ج١ ، ص٤٥٧ .

٣ ــ انظر حاشية الدسوقي على شرح السعد ضمن (شروح التلخيص) ، الصفحة السابقة .

٤ ــ الآية (٨٤) .

٥ ــ انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج١ ، ص٥٥٩ .

وكذا (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص٩٧ .

{ فما لكُمْ في المنافقينِ فئتينِ واللهُ أركسَهُمْ بما كسبوا أتريدونَ أنْ تهدوا منْ أضلَّ اللهُ ومَن يضللِ اللهُ فلنْ تجدَ لهُ سبيلاً }[١] .

لا يخفى أن ظهور لفظ الجلالة في قوله : { ومن يضلل الله) بدل ضميره يضيف إلى ما هو موجود في الغرض العام غرضاً خاصاً هو التيئيس من هداية هذه الفئة الضالة وكل من حقت عليه الضلالة جزاء عمله . ومثله أيضاً قوله سبحانه :

{ ومَنْ يعمـلْ سوءَ أو يظلمْ نفسَهُ ثمَّ يستغفرِ اللهَ يجِدِ اللهَ غفوراً رحيماً }[٢] .

فظهور لفظ الجلالة في مقام الاستغفار له وقع عظيم على النفس المؤمنة ، فهو كالدواء الناجع لتلك النفوس العليلة .

ولمثل هذه النكتة اللطيفة يظهر لفظ الجلالة في جمل التذييل القرآنية ومنها سورة النساء[٣] .

ومثله مع شدة حاجة السياق لذكره قوله تعالى :

{ ولولا فضلُ اللهِ عليكُمْ ورحمتُهُ لهمَّتْ طائفةُ منهُمْ أنْ يُضلُّوكَ وما يُضلُّونَ إلاّ أنفسَهُمْ وما يضرُّونك من شيءٍ وأنزلَ اللهُ إليكَ الكتابَ والحكمةَ وعلمكَ ما لم تكُنْ تعلمُ وكان فضلُ اللهِ عليكَ عظيماً }[٤] .

موضع الشاهد : { وأنزل الله عليك الكتاب } ، ظهر لفظ الجلالة تعظيماً لأمر الكتاب ، ودحضاً للجاحدين المعاندين صدقَ إنزالِهِ منذ عهده الأول وحتى تقوم الساعة ، وتصديقاً لنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ،

---

١ ــ الآية (٨٨) .

٢ ــ الآية (١١٠) .

٣ ــ انظر الآيات (١١ ، ١٢ ، ١٧ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٦)

٤ ــ الآية (١١٣) .

ولمــثله أعيــد ذكــر لفظ الجلالة في قوله تعالى : { وكان فضل الله عليك عظيماً } .

وقــد يذكر الاسم الظاهر بدل الضمير لخصوصية يحملها ذلك الاسم تضفي على السياق معنى خاصاً مقصوداً بعينهِ مثل قوله تعالى :

{ ومَــنْ أحســنُ ديناً ممّنْ أسلمَ وجهَهُ للهِ وهوَ محسنٌ واتبعَ ملّةَ إبراهيمَ حنيفاً واتّخذَ اللهُ إبراهيمَ خليلاً }[١] .

ظهر اسم الخليل - عليه السلام – للمرة الثانية بدل ضميره تكريماً له وإعــزازاً لارتــباطه بلفظ الجلالة في : { واتخذ الله إبراهيم خليلاً } ؛ لأنه خص بكرامات تشبه كرامات الخليل عند خليله من بينها التلذذ بذكر اسمه ، و (لتفخيم شأنه ، والتنصيص على أنه الممدوح)[٢] . ولمثل ذلك جاء ذكر المؤمنين في قوله تعالى :

{ إلاّ الذيــنَ تــابوا وأصــلحوا واعتصموا باللهِ وأخلصوا دينَهُمْ للهِ فأولئكَ مع المؤمنينَ وسوفَ يؤتِ اللهِ المؤمنينَ أجراً عظيماً }[٣] .

ومثله قوله تعالى :

{ أنْ يُصلحا بينَهُما صلحاً والصلحُ خيرٌ ... }[٤] .

وقوله تعالى :

{ أيبتغونَ عندَهُمُ العزَّةَ فإنَّ العزةَ للهِ جميعاً }[٥] .

وعلى نقيض ذلك نجد ذكر الشيطان في قوله تعالى :

{ الذينَ آمنوا يقاتلونَ في سبيلِ اللهِ والذينَ كفروا يقاتلونَ في سبيلِ الطاغوتِ فقاتلوا أولياءَ الشيطانِ إنَّ كيدَ الشيطانِ كانَ ضعيفاً }[٦] .

---

١ ــ الآية (١٢٥) .

٢ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٨٨ .

٣ ــ الآية (١٤٦) .

٤ ــ جزء من الآية (١٢٨) .

٥ ــ جزء من الآية (١٣٩) .

٦ ــ الآية (٧٦) . ومثلها الآيتان (١١٩ ، ١٢٠) .

كـــان يغني عن إعادة ذكره القول : " إنّ كيده " ، ولكن لظهور لفظ الشـــيطان هـــنا مغزى جليل حيث الموازنة العقلية بين فريقين متباينين أشد التـــباين فـــي الغاية والنتيجة : فريق المؤمنين ، وغايتهم في كافة أعمالهم رضـــا الله سبحانه وتعالى ، فهو - عز جاره - وليهم وناصرهم ، فلا بد أن يكونـــوا هم الغالبين ؛ لأن عزة الله لا تضاهيها عزة . وعلى النقيض أولياء الشيطان الموصوف سابقاً بالوهن والخذلان حتى قبل كيده بدليل (كان) . ومن هنا كان لظهور كلمة الشيطان بدل ضميره تأكيدٌ على تلك المعاني التي يتصف بها وتنسحب على متبعيه[١] .

وكذلك نجد ذكر الكافرين في قوله تعالى :

{ الذينَ يتربّصونَ بكمْ فإنْ كانَ لكُمْ فتحٌ من اللهِ قالوا ألمْ نكُنْ معَكُمْ وإن كـــانَ للكافرينَ نصيبٌ قالوا ألو نستحوذْ عليكُمْ ونمنعْكُمْ من المؤمنينَ فـــاللهُ يحكـــمُ بيـــنَكُمْ يـــومَ القيامةِ ولنْ يجعلَ اللهُ للكافرينَ على المؤمنينَ سبيلاً }[٢] .

إعـــادة لفظ (الكافرين) في :{ ولن يجعل الله للكافرين } مع إمكان الاســـتغناء عنه بضميرهم إشعاراً باشتراك المنافقين معهم بالكفر ، وتنبيهاً على تأصل النفاق في أنفسهم[٣] ، وتنفيراً من حالهم .

وقريب منه قوله تعالى :

---

١ ــ انظر (التفسير الكبير للرازي) ، ج١٠ ، ص١٨٤ .

وكذا (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج٣ ، ص٢٩٦ .

٢ ــ الآية (١٤١) . ومثله قوله تعالى :

{ وإذا ضربتُم في الأرضِ فليسَ عليكم جناحٌ أن تقصروا من الصلاةِ إنْ خفتم أن يفتنكم الذينَ كفروا إن الكافرينَ كانوا لكم عدواً مبيناً } ، الآية (١٠١) .

٣ ــ ذكر ابن عطية خبراً عن يسيع الحضرمي ، قال : (كنت عند علي بن أبي طالب فقال له رجل : يـــا أمير المؤمنين أرأيت قول الله تعالى : **{ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً }** كيف ذلـــك وهـــم يقاتلونـــنا ويظهرون علينا أحياناً ؟ فقال علي رضي الله عنه : " معنى ذلك : يوم القيامة يكون الحكم " . وبهذا قال جميع أهل التأويل) .

انظر (المحرر الوجيز) ، ج٢ ، ص١٢٦ .

{ إنَّ الذينَ يكفرونَ باللهِ ورُسُلِه ويريدونَ أنْ يفرِّقوا بينَ اللهِ ورُسُلِه ويقولون نؤمنُ ببعضٍ ونكفرُ ببعضٍ ويريدونَ أن يتخذوا بينَ ذلكَ سبيلاً * أولئكَ همُ الكافرونَ حقاً وأعتدنا للكافرينَ عذاباً مهيناً }[١] .

فقولـــه تعالى : { أعتدنا للكافرين } (أي : أعتدنا لهم ، وإنما وضع المظهر مكان المضمر ذماً لهم ، وتذكيراً بوصفهم ، أو لجميع الكافرين وهم داخلون في زمرتهم دخولاً أولياً)[٢] . فذكروا بهذا الوصف الشنيع المؤذن بعـــلة[٣] إعداد العذاب المهين من قِبَل الله سبحانه وتعالى بنون العظمة تشفياً فيهم .

ففي كل ما سبق كان يغني الضمير ولكن إعادة الاسم الظاهر له وقع عظيـــم على النفس لما في الاسم الظاهر من وضوح الدلالة وتأكيدها مما لا يوجد في الضمير .

وهكـــذا نجد أن قدراً كبيراً من التأثيرات يظل الاسم الظاهر محتفظاً بهـــا ، ولا يستطيع الضمير حملها نيابة عنه ؛ لأنها تتولد حين يقرع اللفظ السمع بجرسه وارتباطاته المختلفة جد الاختلاف ، والتي اكتسبتها في قصته الطويلة مع الكلمات والأحداث والمواقف[٤] .

ثانياً : وضع الضمير موضع الاسم الظاهر .

(الأصـــل لا يُذكر – الضمير – إلا وقد سبقه ما يعود عليه ليكون المقصود بالكلام واضحاً . تقول : " لقيت زيداً وأكرمته " ، فتذكر الضمير

---

١ ــ الآيتان (١٥٠ ، ١٥١) .

٢ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٦٠١ .

٣ ــ انظر (روح المعاني) ، م٢ ، ج٦ ، ص٥ .

٤ ــ انظـــر (خصـــائص التراكيب) للدكتور محمد أبي موسى ، ص١٩٢ ، ١٩٣ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الثالثة .

في أكرمته لأنه سبقه ما يعود عليه ، ولا تقول " لقيته " هكذا ، ابتداء ؛ لأن ذلك ضرب من التعمية والإلباس يناقض القصد من اللغة والبيان)[١] .

ولكـــن لنكات بلاغية يخالف أحياناً الأصل فيوضع المضمر موضع المظهـــر ابـــتداء ، ثم يردف بما يفسره إذا احتيج لذلك وأحياناً يعول على قرينة الحال والعقل[٢] . وأمثلته في سورة النساء قليلة جداً ، ويدخل في هذا الـــلون الـــبلاغي ضمير الشأن والقصة ، وقد خلت سورة النساء المباركة منه تماماً .

ومما جاء فيه الضمير مكان الاسم الظاهر قوله تعالى :

{ وإذا حضـــرَ القسمةَ أولوا القربى واليتامى والمساكينُ فارزقوهُمْ منهُ وقولوا لهُمْ قولاً معروفاً }[٣] .

قـــال المفســـرون : (فارزقوهم منه) أي : أعطوهم شيئاً من المال المقسوم المدلول عليه بالقسمة[٤] ، إذن الضمير يعود على المال المقسوم ، أغفـــل ذكـــره لكـــي لا يـــتعاظم أمره في نفوس الورثة فيجحدوه ولا ينال حاضـــري القسمة من أولي القربى واليتامى والمساكين منه شيئاً . وأحسب أن هـــذا الهـــدف نفسه هو ما وراء التكنية عنه في الآيات السابقة للموضع الذي أشرنا إليه ، أعني قوله تعالى : **{ مما ترك الوالدان والأقربون }**[٥] إذ لم يذكر المال لفظاً ، والله أعلم .

ومنه قوله تعالى :

---

١ ــ انظر المرجع السابق ، ص١٨٧ .

٢ ــ انظر (شروح التلخيص) ، ج١ ، ص٤٤٨ وما بعدها .

٣ ــ الآية (٨) .

٤ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٤٨٧ .

وكذا (روح المعاني) ، م٢ ، ج٤ ، ص٢١٢ .

٥ ــ جزء من الآية (٧) .

{ وإنْ مِـــنْ أهلِ الكتابِ إلاّ ليؤمِنَنَّ بهِ قبلَ موتِهِ ويومَ القيامةِ يكونُ عليهِمْ شهيداً }[١] .

الضمير في قوله تعالى : (به) يرجع إلى عيسى – عليه السلام – ، (أي : ومـــا من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى - عليه السلام - قبل أن تزهق روحه بأنه عبد الله ورسوله ، ولات حين إيمان لانقطاع وقت التكليف ، ويعضده أنه قرئ ليؤمنُنَّ بهِ قبل موتهم)[٢] . وإن كان ذكر عيسى - عليه السلام - قد مر في سياق سابق ، إلا أن حذفه هنا والاكتفاء بضميره يزيد الوحدة الموضوعية ترابطاً والتحاماً وينبه القارئ إلى ذلك ، والله أعلم.

وممـــا جاء ظهور الضمير فيه بدل الاسم الظاهر معتمداً على الحال والعقل قوله تعالى :

{ إنْ يدعونَ منْ دونِهِ إلاّ إناثاً وإنْ يدعونَ إلاّ شيطاناً مريداً }[٣] .

فالواو التي هي فاعل (يدعون) ذكرت بدل من الكفرة والمشركين بقرينة الحال والعقل . وكذا الضمير الآخر في (من دونه) فهو الله سبحانه وتعـــالى ، ولا حاجة إلى ما يفسره كذلك . كما أن حذفه يحقق ترابطاً قوياً بين الآيات لشد انتباه التالي لكتاب الله دائماً .

ثالثاً : الالتفات .

الالـــتفات لـــون مـــن ألوان الصياغة العربية يقتضي مخالفة الأصل مخالفـــة معـــنوية ولفظيـــة ، سواء كانت هذه المخالفة بعد ذكر الأصل ثم

---

١ ــ الآية (١٥٩) .

٢ ــ انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج١ ، ص٦٠٤ .

وقـــد أراد أن اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة دبره ووجهه وقالوا : يا عدو الله أتاك عيسى – عليه السلام – نبياً فكذبت به . فيقول : آمنت أنه عبد ونبي ، وتقول للنصراني أتاك – عيســـى عـــليه الســـلام – نبياً فزعمت أنه الله أو ابن الله ، فيؤمن أنه عبد الله ورسوله حيث لا ينفعه إيمانه .

انظر المرجع السابق ، ص٦٠٤ ، ٦٠٥ .

٣ ــ الآية (١١٧) .

الانـــتقال عنه إلى غيره أو تجاوزه مباشرة . وقد حصره جمهور البلاغيين فـــي تغيير أساليب الخطاب الثلاثة فقط بعضها إلى بعض بعد ذكر أحدها ثم الانـــتقال عنه إلى غيره[١] . وقد وردت أربع صور منها في سورة النساء المباركة نمثل لها بما يلي :

أ ــ الالتفات من التكلم إلى الغيبة :

ومنه قوله تعالى :

{ ولكـــلٍ جعلـــنا مواليَ ممّا تركَ الوالدان والأقربونَ والذينَ عقدتْ أيمانُكُمْ فآتوهُمْ نصيبهُمْ إنَّ اللهَ كانَ على كلِّ شيءٍ شهيداً }[٢] .

والالـــتفات فـــي قوله تعالى : { إنَّ الله كان على كل شيء شهيداً } بصـــيغة الغيـــبة في لفظ الجلالة ، وذلك بعد ورود صيغة التكلم في قوله : (جعلـــنا) ، والداعـــي لهذا الالتفات حاجة السياق إلى لفظ الجلالة الجامع لصفات الكمال ، والمقام يقتضي المراقبة والرهبة[٣] والتنبيه على أن الشاهد عـــلى ما بينكم من تعاقد وصلة هو الله الذي لا تخفى عليه خافيه ، فأوفوا بـــالعهد[٤] ، وآتـــوا الذيـــن عقدت أيمانكم نصيبهم من النصرة والنصيحة والـــرأي[٥] ؛ فهـــو سبحانه عالم بجميع الأحوال جليها وخفيها[٦] ، مجازي الجميع كل حسب حاله .

---

١ ــ انظـــر (الالـــتفات فـــي النصـــف الأول مـــن القرآن الكريم دراسة بلاغية تحليلية) ، رسالة الماجستير للباحثة ، ص٤٧ .

٢ ــ الآية (٣٣) .

٣ ــ انظر (المحرر الوجيز) ، ج٢ ، ص٤٧ .

٤ ــ انظر (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٢٣٨ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥١٧ .

٥ ــ انظـــر تفســـير الطبري ، م٤ ، ج٥ ، ص٣٧ ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة بدون ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

وكذا تفسير الرازي ، ج١٠ ، ص٨٦ .

٦ ــ انظر تفسير الزمخشري ، ج١ ، ص٥٢٣ . وكذا (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص٢٣ .

وقريب منه قوله تعالى :

{ مـــا أصابَكَ مِنَ حسنةٍ فمِنَ اللهِ وما أصابَكَ مِنْ سيئةٍ فمِنَ نفسِكَ وأرسلْناكَ للناسِ رسولاً وكفى باللهِ شهيداً }[١] .

الالتفات المقصود هنا في قوله تعالى : { وكفى بالله شهيداً } بصيغة الغيـــبة في لفظ الجلالة بعد ضمير المتكلم في قوله تعالى : (وأرسلناك) ، وظهـــور لفـــظ الجلالـــة عوداً على ذي بدء لمناسبة المقام ، حيث إن الآية جـــاءت رداً على مزاعم اليهود والمنافقين وتشاؤمهم من النبي - صلى الله عـــليه وســـلم - لمّا قدم المدينة ودعاهم إلى الإيمان فكفروا أمسك الله عنهم بعـــض فضـــله سبحانه جزاء كفرهم ، فقالوا : " ما زلنا نعرف النقص في ثمارنـــا ومزارعـــنا منذ قدم هذا الرجل وأصحابه[٢] " ، فقال تعالى في آية سابقة واصفاً مزاعمهم الباطلة :

{ وإنْ تُصـــبْهُمْ حســـنةٌ يقولوا هذه من عندِ اللهِ وإنْ تُصبْهُمْ سيّئةٌ يقولوا هذه مِنْ عندِكَ ... }[٣] .

وأتت هذه الآية لجلاء الحقيقة ، ورد افتراءاتهم ، وتصحيح مفاهيمهم الخاطـــئة ، والتأكيد على أن الذي أصابهم ما هو إلا جزاء ما كسبت أيديهم كمـــا أخـــبر قـــتادة[*] عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " لا يصيب رجـــلاً خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب ، وما يعفو الله

---

١ ــ الآية (٧٩) .

٢ ــ انظر تفسير أبن عطية ، ج٢ ، ص٨١ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٥٣ .

٣ ــ جزء من الآية (٧٨) .

* هو قتادة ابن النعمان بن زيد بن عامر الأمير المجاهد أبو عمرو الأنصاري البدري ، من نجباء الصحابة ، هو الذي وقعت عينه على خده يوم أحد ، فأتى النبي – صلى الله عليه وسلم – فغمزها له بيده الشريفة فردها ، توفي سنة ثلاث وعشرين بالمدينة .

انظر (تهذيب سير أعلام النبلاء) ، ج١ ، ص٦٦ .

عـــنه أكثر "[١] . وهذه أمور ينكرها اليهود والمنافقون ، ولكن لينكروا ما أرادوا ما دام الله شهيداً على صدقك وعلى رسالتك ، ينصب المعجزات التي مـــن جملـــتها هـــذا النص والوحي الصادق ، فكان الالتفات لتربية المهابة وتقوية الشهادة[٢] ، ولا ينبغي لمن كان الله شاهده إلا أن يُطاع[٣] .

ومنه قوله تعالى :

{ إنّـــا أنزلنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ لتحكُمَ بينَ الناسِ بما أراكَ اللهُ ولا تكُنْ للخائنينَ خصيماً }[٤] .

الالتفات في قوله تعالى : { بما أراك الله } ذلك بعد صيغة التكلم في قوله تعالى : { إنا أنزلنا } . والالتفات جاء هنا لعدة أغراض بلاغية منها : تعظيم الحكم الذي سيحكم به النبي – صلى الله عليه وسلم – ؛ لأنه من جهته سبحانه وتعالى ، ووجوب انتظار الوحي ؛ لأنه لا يخرج عن كونه – صلى الله عـــليه وسلم – بشراً قد تخفى عليه كثير من الحقائق فيقع منه الخطأ[٥] .

---

١ ــ انظر تفسير الطبري ، م٤ ، ج٥ ، ص١١١ .

وقد ذكره صاحب (كنز العمال) وعزاه إلى البيهقي في (شعب الإيمان) من حديث قتادة مرسلاً ، ج٣ ، ص٣٤١ ، حديث رقم (٦٨٤٩) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـــ .

٢ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٥٥ .

وكذا (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص٩١ .

٣ ــ انظر (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٣٠٢ .

٤ ــ الآية (١٠٥) .

٥ ــ لقــد جاء في سبب نزول هذه الآية (أن نفراً من الأنصار غزوا مع الرسول – صلى الله عليه وســـلم في بعض غزواته ، فسرقت درع لأحدهم ، فظن بها رجلاً من الأنصار ، فأتى صاحب الدرع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : إنّ طعمة بن أبيرق سرق درعي . فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فألقاها في بيت رجل بريء ، وقال لنفر من عشيرته : إني غيبت الدرع ، وألقيتها في بيت فـــلان وســـتوجد عنده ، فانطلقوا إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقالوا : يا نبي الله ، إنّ صاحبنا بـــريء ، وإن سارق الدرع فلان ، قد أحطنا بذلك علماً فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس ، وجادل عـــنه فإنـــه إن لا يعصمه الله بك يهلك ، فقام رسول الله _ صلى الله عليه وسلم – فبرأه وعذره على رؤوس الناس ، فأنزل الله سبحانه وتعالى : { إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ... } . انظر (الدر المنثور) للسيوطي ، ج٣ ، ص٦٧٣ . =

وقد عصمه الله عن هذا بقوله : { بما أراك الله } . ومنها تعليم أمته الصبر والتثبت وعدم الأخذ بظواهر الأمور ، واللجوء إلى الله كلما غمض الأمر والتوكل عليه سبحانه ، فهو المعلم ولا تخفى عليه خافية .

ب ــ الالتفات من الغيبة إلي التكلم :

ومن أمثلته في سورة النساء قوله تعالى :

{ الذيــنَ يبخلونَ ويأمرونَ الناسَ بالبخلِ ويكتمونَ ما آتاهُمُ اللهُ مِن فضلِهِ وأعتدْنا للكافرينَ عذاباً مهيناً }[١] .

الالــتفات في هذه الآية عكس اللون الأول ، من لفظ الجلالة (الله) فــي قوله تعالى : { آتاهم الله من فضله } إلى التكلم في (اعتدنا) ، وهذه الــنون الــتي تدل على العظمة أتت بغرض (التهويل والتعظيم لأن عذاب العظيــم عظيــم وغضب الحليم وخيم)[٢] . وقد نزلت هذه الآية في شأن اليهــود الذيــن كتموا صفة رسول الله – صلى الله عليه وسلم -[٣] وكانوا يأمــرون الأنصار بالبخل[٤] ، فقد استحقوا من الله هذا العذاب المهين المعد من قبله سبحانه ، وقد عابهم بكتمان نعمة الله وما آتاهم من فضله[٥] ، وهو ذنــب عند الله عظيم ، فقد روي عن النبي _ صلى الله عليه وسلم - قوله :

= وكذا (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٣٤٣ .

وانظر (أسباب النزول) لأبي الحسن علي بن النيسابوري ، ج٢ ، ص١٣٣ ، ١٣٤ .

وقــد جــاء الــتفات من التكلم إلى الغيبة في هذه الآيات أيضاً : (٤١ ، ٤٢ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ١٣١ ، ١٦٠ ، ١٦٤) .

١ ــ الآية (٣٧) .

٢ ــ انظر (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص٣٠ .

٣ ــ انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٥٢٦ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٢٠ .

٤ ــ انظر تفسير ابن عطية ، ج٢ ، ص٥٢ .

٥ ــ انظــر تفســير الســعدي ، ج١ ، ص٣٤٨ ، تقديم محمد زهري النجار ، دار المدني ، جدة ، السعودية ، الطبعة بدون ، ١٤٠٨هــ - ١٩٨٨م .

" إذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن تُرى نعمته على عبده "[١] ، ولهذا تغير الأسلوب إلى صيغة التكلم إشعاراً بعظم هذا العذاب لذلك الذنب الكبير .

ومنه قوله تعالى :

{ فليقاتلْ في سبيلِ اللهِ الذينَ يَشْرونَ الحياةَ الدُّنيا بالآخرةِ ومَن يقاتلْ في سبيلِ اللهِ فيُقتَلْ أو يَغْلِبْ فسوفَ نؤتيهِ أجراً عظيماً }[٢] .

موضع الالتفات (نؤتيه) بضمير التكلم بعد ذكره سبحانه بصيغة الغيبة في قوله تعالى : { في سبيل الله } ، وحكمته إظهار مزيد عناية بهذا الأجر المؤتى من قبله جل جلاله ؛ لذا أسنده إلى نفسه الشريفة ، فلا يكاد يُعلم كمٌّ لتناهي سعته ، فهو سبحانه صاحبه والقائم عليه ، وعطاء العظيم عظيم مثله[٣] . ومع ما ذكر ، فيه حض للمؤمنين على الجهاد وبيان لعظيم منزلة المجاهد[٤] .

ومن هذا القبيل قوله تعالى :

{ يا أيُّها الناسُ قدْ جاءكُمْ برهانٌ مِنْ ربِّكُمْ وأنزلْنا إليكُمْ نوراً مبيناً }[٥] .

الالتفات في (أنزلنا) ، والمتأمل لهذا الالتفات يظهر له به – على اختصاره – أن محمداً النبي الأمي – صلى الله عليه وسلم – كان نفسه برهاناً من الله تعالى ، وحجة قطعية على أحقيّة دينه ، وأن كتابه القرآن العربي

---

١ – ذكره صاحب (كنز العمال) في الشعب من حديث أبي هريرة مرفوعاً ، ج٦ ، ص٦٤١ ، ومعنى أعتدنا أي : يسرنا وأعددنا وأحضرنا والعتيد : الحاضر . والمهين : الذي يقترن به خزي وذل وهو أنكى وأشد على المعذب .

انظر (المحرر الوجيز) ، ج٢ ، ص٥٢ .

٢ – الآية (٧٤) .

٣ – انظر (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص٨١ .

وكذا تفسير السعدي ، ج١ ، ص٣٦٧ وما بعدها .

٤ – تفسير ابن جرير الطبري ، م٤ ، ج٥ ، ص١٠٦ .

٥ – الآية (١٧٤) .

أُنـــزل من العلم الإلهي عليه ، ولم يكن لعلمه الكسبي أن يأتي بمثله ، وإنما أُنـــزل نـــوراً مبيـــناً إلى جميـــع الناس ؛ ليروا بتدبيره حقيقة دين الله الذي يسعدون به في حياتهم الدنيا ، وينالون به في الآخرة ما هو خير وأبقى[١] ، (وقـــد كـــان التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهـــار الـــلطف بهم والإيذان بأن مجيء ذلك لتربيتهم وتكميلهم ... وإسناد إنـــزاله إليه تعالى بطريق الالتفات لكمال تشريفه)[٢] ووجوب اتباعه على كافة العباد .

ج ـــ <u>الالتفات من الخطاب إلى الغيبة :</u>

ومنه قول الله تعالى :

{ فكيفَ إذا جئنا من كلِّ أمَّةٍ بشهيدٍ وجئنا بكَ على هؤلاءِ شهيداً * يومَـــئذٍ يـــودُّ الذيـــنَ كفـــروا وعَصَوُا الرسولَ لوا تُسوَّى بِهِمُ الأرضُ ولا يكتمونَ اللهَ حديثاً }[٣] .

الالـــتفات المقصـــود هنا في قوله تعالى : { وعصوا الرسول } بعد المواجهة بالخطاب في قوله تعالى : { جئنا بكَ } ، وعلته إيراد ذكره - عليه الصلاة والسلام - بعنوان الرسالة تشريفاً له وزيادة تقبيح حال مكذبيه ، فإنّ حـــقّ الرســـول أنْ يُؤمن به ويطاع لا أنْ يُكفر به ويعصى[٤] . فتسميته - صـــلى الله عليه وسلم - بهذا الاسم تعليل كاف لوجوب طاعته ولعِظَم جرم مـــن عصـــاه ، وفيـــه تهويـــل لأمر عصيانه ، وتفظيع لحاله مّما لا يقادر قدره[٥] .

---

١ ـــ انظر تفسير المنار ، ج٦ ، ص١٠٢ .

٢ ـــ انظر (روح المعاني) ، م٢ ، ج٦ ، ص٤٢ وما بعدها . وقد جاء منه في هذه السورة الآيات (٥٤ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٧٤) .

٣ ـــ الآيتان (٤١ ، ٤٢) .

٤ ـــ انظر (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٢٥١ .

٥ ـــ انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج١ ، ص٥٢٣ .

وإذا كــانتْ كــلمة (رسول) تدل على جنس الرسل فإنه صلى الله عليه وسلم يدخل فيها دخولاً أولياً[١] .

ومثله قوله تعالى :

{ ومــا أرســلنا مِن رسولٍ إلاّ ليُطاعَ بإذنِ اللهِ ولوْ أنَّهُمْ إذْ ظلموا أنفسَــهُمْ جــاءوكَ فاستغفروا اللهَ واستغفرَ لهُمُ الرسولُ لوجدوا اللهَ تواباً رحيماً }[٢] .

لا يخفى أن الالتفات في قوله تعالى : { واستغفر لهم الرسول } ، إذا لم يقل : واستغفرت لهم ، إجلالاً للرسول – عليه الصلاة والسلام – ، وأنهُم إذا جــاءوك فقد جاءوا من خصَّهُ اللهُ برسالته وأكرمه بوحيه وجعله سفيراً بينه وبين خلقه ، ومن كان كذلك فإن الله لا يرد شفاعته ، وهذا ما دعا إلى العــدول عن لفظ الخطاب إلى لفظ المغايبة[٣] تفخيماً لشأن تلك الشفاعة ، وإيراداً لعلة قبولها .

وقريب منه في الصورة والغرض قوله تعالى :

{ وإذا جــاءَهُمْ أمرٌ من الأمنِ أو الخوفِ أذاعوا بهِ ولوْ ردُّوهُ إلى الرســولِ وإلى أولي الأمرِ منهُمْ لعَلمَهُ الذينَ يستنبطونَهُ منهُمْ ولولا فضلُ اللهِ عليكُمْ ورحمتُهُ لاتبعتُمُ الشيطانَ إلاّ قليلاً }[٤] .

بصــيغة الغــائب عن الرسول في قوله تعالى : { وإلى الرسول } ، وذلك بعد مخاطبته في قوله تعالى :

---

١ ــ انظر (المحرر الوجيز) ، ج٢ ، ص٥٦ .

٢ ــ الآية (٦٤) .

٣ ــ انظر (التفسير الكبير) للرازي ، ج١٠ ، ص١٦٢ .

وكذا (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٢٨٣ .

وكــذا (من أسرار البلاغة في القرآن) للدكتور محمود شيخون ، ص١٨ ، مكتبة الكليات الأزهرية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هــ – ١٩٨٤م .

٤ ــ الآية (٨٣) .

{ ويقولــونَ طاعةٌ فإذا برزوا من عندِكَ بيّتَ طائفةٌ منهُمْ غيرَ الذي تقــولُ واللهُ يكــتبُ مـــا يبيّتونَ فأعرضْ عنهُمْ وتوكّلْ على اللهِ وكفى باللهِ وكيلاً * أفَلا يتدبرونَ القرآنَ ولوْ كانَ مِنْ عندِ غيرِ اللهِ لوجدوا فيهِ اختلافاً كثيراً }[١] .

وكـــان مقتضـــى السياق : ولو ردوه إليك ، بدل قوله تعالى : { ولو ردّوه إلى الرسول } ، فلم هذا العدول ؟

قيـــل فيـــه : (والالـــتفات لما أن عنوان الرسالة من موجبات الرد والمراجعة إلى رأيه - عليه الصلاة والسلام -)[٢] وأنه من أحق حقوقه أن يـــرد إليـــه في كافة الأمور في حياته وإلى ما جاء به من عند الله سبحانه وتعـــالى بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، كما نبهت الآية إلى وجوب طاعة الحكـــام والعلماء ، وأن طاعتهم في غير معصية الله سبحانه امتداد لطاعته هو جل جلاله .

وقـــد يكون الالتفات من الخطاب إلى الغيبة بقصد التحقير أو إظهار السخط والتعنيف ، ومن ذلك قوله تعالى :

{ أيـــنَما تكونـــوا يُدْرِكْكُـــمُ الموتُ ولو كنتُمْ في بروجٍ مشيدةٍ وإنْ تُصـــبهُمْ حسنةٌ يقولوا هذهِ من عندِ اللهِ وإنْ تُصبهُمْ سيّئةٌ يقولوا هذهِ من عندِكَ قُلْ كلٌّ من عندِ اللهِ فمالِ هؤلاءِ القومِ لا يكادونَ يفقهونَ حديثاً }[٣] .

بدأت الآية بخطاب مباشر لعموم الحكم الذي تضمنه هذا المقطع من الآية ، مبيناً سبحانه وتعالى (أنه لا خلاص لهم من الموت ، والجهاد موت

---

١ ــ الآيتان (٨١ ، ٨٢) .

٢ ــ انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج١ ، ص٥٥٧ .

وكذا (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص٩٣ .

وكذا تفسير السعدي ، ج١ ، ص٣٧٧ .

٣ ــ الآية (٧٨) .

مســـتعقب للسعادة الآخرة ، فإذا كان لا بد من الموت ، فبأن يقع على وجه يكون مستعقباً للسعادة الأبدية كان أولى من أن لا يكون كذلك)[١] .

ثـــم أعقـــب هذا كلام يخص اليهود والمنافقين[٢] ، وقيل إنه خاص بالمـــنافقين[٣] ، وفيـــه من الاستنكار الشديد ما يجعلهم غير أهل لمخاطبته ســـبحانه لهـــم ، فهـــم أحقر من ذلك ومستحقون البعد عن حضرة الله جل جلاله[٤] وكذا أوليائه .

د ــ الالتفات من الغيبة إلي الخطاب :

ومما جاء في سورة النساء من هذا اللون من الالتفات قوله تعالى :

{ ومـــا أرســـلنا من رسولٍ إلاّ ليطاعَ بإذنِ اللهِ ولوْ أنَّهُمْ إذا ظلموا أنفســـهُمْ جـــاءوكَ فاستغفروا اللهَ واستغفرَ لهُمُ الرسولُ لوجدوا اللهَ توّاباً رحيمـــاً * فلا وربِّكَ لا يؤمنونَ حتى يحكِّموكَ فيما شجرَ بينَكُمْ ثمَّ لا يجدوا في أنفسِهِمْ حرجاً ممّا قضيتَ ويسلِّموا تسليماً }[٥] .

وذلـــك بعد قوله تعالى : { واستغفر لهم الرسول } في الآية السابقة عـــليها ، فالالتفات من الغيبة في قوله تعالى : { واستغفر لهم الرسول } إلى الخطـــاب فـــي قولـــه تعالى : { فلا وربِّكَ } ، والسر فيه في مناسبة لفظة (رب) وإضـــافتها لضـــميره - صـــلى الله عليه وسلم - زيادة تأكيد على حاجتهم جميعاً لتحكيمه - صلوات الله وسلامه عليه - في كافة أمورهم فأنت المـــربي لهذا الغرض من لدن البارئ المصور ، ولا أحد يبلغ منزلتك هذه

---

١ ــ انظر (التفسير الكبير) للرازي ، ج١٠ ، ص١٨٧ .
وكذا تفسير السعدي ، ج١ ، ص٣٧٣ .

٢ ــ انظر (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٣٠٠ .

٣ ــ انظر (التفسير الكبير) للرازي ، ج١٠ ، ص١٨٨ .
وكذا تفسير النسفي ، ج١ ، ص٢٣٨ ، دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان ، الطبعة بدون .

٤ ــ مما يحمل هذا الغرض أيضاً الآية (٤٧) .

٥ ــ الآيتان (٦٤ ، ٦٥) .

مهما كان ، ولهذا فمَن عدلَ عنك إلى سواك في الحكم فقد عدلَ عن الكمال إلى النقص ، وهذا ما يوجب إخراجه من الإيمان ، ففعله هذا دليل عليه في عـــدم ثقته بك وبمن ربّاكَ لهذه المهام العظام . وهذا الحكم لا يقتصر على معاصـــري النـــبي - عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم - بل يدخل فيه كافة الخـــلق في كل زمان ومكان ؛ لأنّ قضاء شريعته - عليه الصلاة والسلام - قضاؤه . وقد (أقسم بإضافة الرب إلى كاف الخطاب تعظيماً للنبي - صلى الله عليه وسلم –)[١] .

ومنه قوله تعالى :

{ مَــنْ يطِــعِ الرسولَ فقدْ أطاعَ اللهَ ومَنْ تولَّى فما أرسلناكَ عليهِمْ حفيظاً }[٢] .

موضع الالتفات الأول[٣] في هذه الآية الكريمة في قوله تعالى :{ فما أرســلناك } بضمير الخطاب (الكاف) ، وذلك بعد ذكره – صلى الله عليه وسلم – بصيغة الغائب في قوله تعالى : { ومن يطع الرسول } . فالالتفات كمــا تــرى من الغائب للمخاطب . وبالتأمل في هذه الآية المباركة نجد أن للالتفات فائدة عظيمة جداً يبرزها العلم بسبب نزولها ، ذلك أن رسول الله – صــلى الله عليه وسلم – قال : (" من أحبني فقد أحب الله ومن أطاعني فقد أطاع الله " فقال المنافقون : ألا تسمعوا إلى ما يقول هذا الرجل ، لقد قارف الشــرك وهــو نهى أن يعبد غير الله تعالى ، ما يريد إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى عليه السلام . فنزلت)[٤] ، أي : من أعرض عن

---

١ ــ انظر (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٢٨٤ .

٢ ــ الآية (٨٠) .

٣ ــ في الآية التفات آخر من الغائب أيضاً في لفظ الجلالة (الله) في قوله تعالى : { فقد أطاع الله } إلى المتكلم في قوله تعالى : { فما أرسلناك } بضمير (نا) العظمة كما يسميها المفسرون .

٤ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٥٥ .

وكذا (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص٩١ .

وكذا (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٣٠٤ .

الطاعة فأعرض عنه لأننا إنما أرسلناك رسولاً مبلغاً لا حفيظاً مهيمناً تحفظ أعمـــالهم عليهم وتحاسبهم عليها ، فهذا عملنا نحن المرسلين . وفي توجيه الخطاب له – عليه أفضل الصلاة والسلام – تبكيت للمنافقين المدعين على الرسول تلك الدعاوى الباطلة .

هذه هي الأنواع التي وردت من الالتفات في سورة النساء فقط ، أما النوعان الآخران من الالتفات على رأي الجمهور :

فـــالأول من التكلم إلى الخطاب : ومثاله في غير سورة النساء قوله تعالى :

{ قُلْ أغيرَ اللهِ أبغي رباً وهوَ ربُّ كلِّ شيءٍ ولا تكسبُ كلُّ نفسٍ إلاّ عليها ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى ثمَّ إلى ربِّكُمْ مرجِعُكُمْ فينبِّئكُمْ بما كنتُمْ فيهِ تختلفونَ }[1] .

الالـــتفات المقصـــود في قوله تعالى : { ثم إلى ربكم مرجعكم } بعد قولـــه تعالى : { أغير الله أبغي رباً } . وكان مقتضى السياق : ثم إلى ربي مرجعكم . ولكن أراد المولى العلي العظيم أن يفاجئهم بحقيقة غيبها الشيطان عـــنهم ، فقـــد يكون في ذلك إعادة رشدهم وإيقاظ قلوبهم قبل أن تصل إلى درجـــة المـــوت لينقذها سبحانه من براثن العدو اللعين – أعاذنا الله منه – وأعوانه . وقد سبق هذا الالتفاتُ المنبه أمراً من أعظم الأمور وهو الرجوع إلى الله ســـبحانه وتعالى ، مع ما فيه من إسناد ضميرهم إلى الرب ، وذلك (لـــتأكيد الوعـــد وتشـــديد الوعيـــد أي إلى مـــالك أموركم رجوعكم يوم القيامـــة)[2] . فكـــان هذا الالتفات من التكلم إلى الخطاب معبراً سرياً إلى النفوس طائعها وعاصيها .

وكذا أخرجه الحاكم في مسنده ، ج٢ ، ص٩٣ .

١ ــ الآية (١٦٤) ، سورة الأنعام .

٢ ــ انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج١ ، ص٢٣٠ .

والنوع الثاني الالتفات من الخطاب إلى التكلم ، ومثاله من غير سورة النساء كذلك قوله تعالى :

{ واستغفروا ربَّكُمْ ثمَّ توبوا إليهِ إنَّ ربِّي رحيمٌ ودودٌ }[١] .

الالتفات في قوله تعالى : { إنَّ ربي } بعد مخاطبتهم بقوله تعالى : { واستغفروا ربكم } . وكان حق الظاهر : إن ربكم رحيم ودود ، فعند الاستغفار والتوبة التي تخصهم وحدهم أضاف كلمة (رب) إلى ضمير خطابهم ليهز نفوسهم ويذكرهم بربوبية الله تعالى عليهم ويقربهم من الله زلفى ، دليلاً على يقينه الثابت بصفات ربه ، وشاهداً على صدق كلامه . وهذا شعيب نبي الله الذي سمي (خطيب الأنبياء) لحسن مراجعته لقومه[٢] يستنجد بالالتفات ليوضح مكنون نفسه ويفصح عمّا بها من أغراض .

تلك هي الأغراض البلاغية العجيبة التي يحققها الالتفات ممّا لا غنى للمقام عنها ، والله أعلم .

---

١ ــ الآية (٩٠) ، سورة هود .

٢ ــ انظر (فتح القدير) للشوكاني ، ج٢ ، ص٥١٨ .

وكذا (المعاني في ضوء أساليب القرآن) للدكتور عبد الفتاح لاشين ، ص٢٦١ ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥م ، حيث أورد هذه الآية مثالاً لهذا اللون من الالتفات .

المطلب الثاني : هيئة التنكير .

كما أن لتعريف المفردة القرآنية أهدافاً بلاغية ، فلتنكيرها مثل ذلك . وهي بتنكيرها تتجه إلى معانٍ لا تحققها المعرفة .

وقد عالج الشيخ عبد القاهر الجرجاني طرفاً مهماً من هذه القضية . منها أن النكرة تدل أصلاً على واحد من الجنس ، وقد يوجهها السياق إلى الجنس دون الواحد[١] .

أما إذا وصفت النكرة سواء كانت من أسماء الأجناس أو أسماء المعاني فإنها تتنوع بهذه الصفة في معناها (كأن النكرة نفسها قد تعددت بتعدد صفاتها)[٢]

وآيات سورة النساء خير مجال لتوضيح هذا ، مع ما فيها من أغراض بلاغية جليلة .

أولاً : النكرة دون وصف :

وهي لتحقيق الجنس أو لذكر واحد فيه . وكلا الأمرين يحمل أغراضاً بلاغية يحددها السياق . فتحقيق الجنس يكون غالباً للمبالغة في الوصف والإيهام بالكثرة وذلك لأن المبالغة هدف من أهداف التنكير . يقول الله تعالى :

{ واتقوا اللهَ الذي تساءلونَ بهِ والأرحامَ إنَّ اللهَ كانَ عليكُمْ رقيباً }[٣] .

كلمة " رقيباً " نكرة غير موصوفة قال فيها العلماء – رحمهم الله – :

---

١ ــ انظر هذا في (دلائل الإعجاز) ، ص١٤٢ وما بعدها .

٢ ــ انظر المرجع السابق ، ص١٩٣،١٩٢ .

٣ ــ جزء من الآية (١) .

رقيـــب فعيل بمعنى فاعل[١] للمبالغة ، وهي صفة ثابتة للرحمن تجري هنا مجرى التعليل للأمر بالتقوى[٢] .

فمعنى رقيب : النظر بالبصر أو البصيرة إلى أمر ما ليتحققه على ما هــو عــليه ، ويقــترن بذلك حفظ ومشاهدة وعلم بالحاصل مع الرُقْبَة[٣] . واســتعمالها فــي صفات الله بمعنى الحفيظ[٤] ؛ فهو مراقب جميع أحوالكم وأعمالكم[٥].

وعندما يخبر بهذه الكلمة نكرةً وبهذا الأسلوب المؤكد لا بد أن تمتزج فــي النفس معانٍ كثيرة منها الخوف من هذا التهديد والوعيد ، ومنها الأمن والــراحة والاستقرار النفسي وهو نقيض الأول ، والسبب في هذا ؛ شعور المؤمن بأنه سبحانه كما هو رقيب علينا فهو كذلك رقيب لنا[٦] . وهذا جانب مــن جوانب عظمة القرآن : اجتماع الضدين في لفظة واحدة وبأسلوب لا يشعر المتلقي بالتناقض . وهنا نرى أنه قد اجتمعت مبالغة الصيغة ومبالغة تحقيق الجنس بسبب التنكير مع اجتماع الضدين في كلمة واحدة لتعلل الأمر المتكرر بالتقوى في هذه الآية .

ومنه قوله تعالى :

{ واللذانِ يأتيانِها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كانَ تواباً رحيماً }[٧] .

---

١ ـــ انظر (روح المعاني) ، م٢ ، ج٤ ، ص١٨٥ .

٢ ـــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٤٧٧ .

٣ ـــ انظر تفسير (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج٢ ، ص٥ .

٤ ـــ انظر (الدر المصون) للسمين الحلبي ، ج٢ ، ص٢٩٧ .

٥ ـــ انظر (تفسير ابن كثير) ، ج١ ، ص٤٤٩ .

٦ ـــ انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج٢ ، ص٥ .

٧ ـــ الآية (١٦) .

فجـــاءت كـــلمة : " تواباً " للإطلاق الموهم بالكثرة مبالغة في قبول التوبة ، و" رحيماً " واسع الرحمة وهو تعليل للأمر بالإعراض[١] .

وقد تجلت المبالغة بوضوح في قوله تعالى :

{ يـــا أيها الذينَ أوتوا الكتابَ آمنوا بما نزّلنا مصدقاً لما معكم من قبلِ أن نطمـــسَ وجوهـــاً فنردَّها على أدبارِها أو نلعنَهم كما لعنَّا أصحابَ السبتِ وكانَ أمرُ اللهِ مفعولاً }[٢].

قـــال الألوســـي فيها : (وفي التنكير وجوه تهويل للخطب مع لطف وحســـن اســـتدعاء)[٣] ، فنكر " وجوهاً " لإرادة المبالغة المفيدة للتكثير مع الإشعار بأنه أمر مهول وخطب عظيم تنخلع له القلوب ، وهو عذاب عظيم مـــن القـــادر سبحانه . وأصل الطمس محو الأثر وإزالة الأعلام (قال ابن عـــباس – رضي الله عنهما – نجعلها كخف البعير أو كحافر الدابة . وقال قتادة والضحاك[*] نعميها لقوله تعالى : " فطمسنا أعينهم ")[٤] .

وفـــي تنكيرها أمر دقيق آخر وهو اللطف بالمخاطبين لعدم إسنادها إليهم وذلك حسن استدعاء لهم إلى الإيمان[٥] .

ويحمـــل التنكير هنا – بجانب ما ذكر – ضرباً من الغرابة والندرة لهـــذا اللون من العذاب الذي لم يعهد لأحد رؤيته ، وهو غرض عجيب من أغراض التنكير .

---

١ ـــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٤٩٦ .

٢ ـــ الآية (٤٧) .

٣ ـــ انظر (روح المعاني) ، م٢ ، ج٤ ، ص٤٩ .

* هـــو أبـــو بحر الضحاك بن قيس بن معاوية بن حصين التميمي المعروف بالأحنف ، كان من سادات التابعين ، وقد اختلف في سنة موته مابين سبع وستين وسبع وسبعين للهجرة .

انظر (وفيات الأعيان) ، ج٢ ، ص٤٩٩ وما بعدها .

٤ ـــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٣١ .

والآية : { فطمسنا أعينهم } من سورة القمر ، جزء من الآية (٣٧) .

٥ ـــ المرجع السابق .

ومـــنه كذلك ما يأتي فيه التنكير للتفظيع مع الإيهام بالكثرة والمبالغة في الوصف ، كقوله تعالى :

{ إنَّ الذينَ يأكلونَ أموالَ اليتامى ظلماً إنما يأكلونَ في بطونِهم ناراً وسيصلونَ سعيراً }[١] .

فـــ " ظلماً " التي وقعت حالاً لفاعل[٢] " يأكلون " دلت على معـــنى التفظيع ، وكلمة " ناراً " كذلك للتفظيع والإيهام بالكثرة ، " وسعيراً " أي نـــاراً من النيران مبهمة الوصف[٣]، تضافرت هذه النكرات الثلاث على إبـــراز الصـــورة بأفظع ما يكون عليه الخطب تنفيراً من هذا الأكل الحرام الذي يقع فيه اليتيم فريسة سهلة لأولئك الظلمة .

وقد تعددت أغراض تحقيق الجنس بتعدد النكرات في قوله تعالى :

{ وآتـــوا النساءَ صَدُقاتِهنَّ نِحلةً فإنْ طِبْنَ لكم عن شيءٍ منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً }[٤] .

جاءت أولاً كلمة " نحلة " نكرة لتوضح غرضاً بلاغياً ولغوياً في آن واحـــد ، فنحـــلة من نَحَلَهُ كذا إذا أعطاه عن طيب نفس[٥] وهو أخصُّ من الهـــبة[٦] إكـــراماً منه سبحانه وتعالى للمسلمة ، وانتصابُها إمّا لأنها مصدر أغنى عن فعله أو على أنها حال[٧] ، وكلا الموضعين يحتاج للنكرة .

كمـــا وجههـــا بعضـــهم عـــلى أنها مفعول له ، أي أعطوهن ديانةً وشـــريعةً[٨] . والتعبير عن إيتاء المهور بـــ " نحلة " مع كونها واجبة على

---

١ ــ الآية (١٠) .

٢ ــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٥ ، ص٢٥٤ .

٣ ــ انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٥١ .

٤ ــ الآية (٤) .

٥ ــ انظر (الكشاف) للزمخشري ، ج١ ، ص٢٤٦ .

٦ ــ انظر (المفردات) للراغب الأصفهاني ، مادة (نحل) .

٧ ــ انظر (الكشاف) للزمخشري ، ج١ ، ص٢٤٦ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٤٨٢ .

٨ ــ انظر المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

الأزواج لإفـــادة معـــنى الإيتاء عن كمال الرضا وطيب الخاطر[١] . ولولا تنكيرها لما صحَّ لغوياً أن تعطى هذه المعاني مجتمعة .

أمـــا تـــنكير كلمة " شيء "[٢] فأفاد معنى التقليل ، وقد قُرنت بنكرة أخرى هي " نفساً " ، نكرت لتفيد معنى التمييز[٣] الذي يحمل معه الشرط . يقـــول الزمخشري : (وفي الآية دليل على ضيق المسلك في ذلك ووجوب الاحتياط حتى بنى الشرط على طيب النفس فقيل " فإن طبن " ولم يقل : فإن وهـــبن وسمحن إعلاماً بأن المراعى هو تجافي نفسها عن الموهوب طيِّبةً ، وقيل : " فإن طبن لكم عن شيء " ولم يقل : فإن طبن لكم عنها ، بعثاً على تقليل الموهوب)[٤] .

ومما نُكِّر للمبالغة في الوصف كلمتا " هنيئاً مريئاً " ، والهنيء : كل مـــا لا يـــلحق فيه مشقة ، ولا تعب وأصله في الطعام ، يقال : هنئ الطعام فهـــو هنيء[٥] . وقيل الهنيء الذي يلذه الآكل . والمريء ما تحمد عاقبته ، ونصـــبهما على أنهما صفتان للمصدر أي أكلاً هنيئاً مريئاً ، أو على أنهما حالان من الضمير المنصوب أي كلوه وهو هنيء مريء ، وقد يوقف على كـــلوه ويبـــتدأ : هنيـــئاً مريـــئاً على الدعاء وعلى أنهما صفتان أقيمتا مقام المصـــدر[٦] . فكـــان التـــنكير للمبالغة في رفع الحرج عن هذا الأكل ؛ بل والـــترغيب فيـــه بصيغة الأمر في (كلوه) ووصفه باللذة وحسن العاقبة . والله أعلم وأحكم .

---

١ ــ انظر المرجع السابق . وكذا (الكشاف) ، ج١ ، ٢٤٥ .
وكذا (الدر المصون) ، ج٥ ، ص١٩٣ .
وكذا (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري) للدكتور محمد أبو موسى ، ص٩٨ .

٢ ــ كـــلمة (شيء) في هذه الآية نكرة موصوفة بشبه الجملة (منه) ، وقد ذكرت هنا لتعلقها في السياق بكلمة (نفساً) .

٣ ــ انظر (معجم إعراب ألفاظ القرآن الكريم) ص٩٨ .

٤ ــ انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٤٥ .

٥ ــ انظر (المفردات) للراغب الأصفهاني ، مادة (هنأ) .

٦ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٤٨٣ .

ومنه ما جاء فيه تحقيق الجنس لإفادة التقليل كقوله تعالى :

{ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاحَ فإن آنستُمْ منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالَهُمْ ولا تأكلوها إسرافاً وبِداراً أن يكبروا ومن كانَ غنياً فليستعففْ ومن كانَ فقيراً فليأكُلْ بالمعروفِ فإذا دفعتُم إليهم أموالَهم فأشهِدوا عليهم وكفى باللهِ حسيباً }[١] .

الآية بها عدة نكرات ولكن الكلمة التي تعطي معنى التقليل قوله تعالى : " رشداً " . والرشد : انتظام الفكر وصدور الأفعال على نحوه بانتظام[٢] ، وتنكيرها ليدل على أنه نوع من الرشد ومخيلة من مخايله حتى لا ينتظر به تمام الرشد[٣] ؛ فيكون للولي فرصة لإمساك مال اليتيم مدة أطول ، وهذا فيه مظنة الاستيلاء ، كما أن وجود كمال الرشد في أحد يعز وقوعه[٤] ، فالمبادرة في الدفع عند أول بادرة رشد هي المقصد الأساسي من هذا التنكير الذي يدل على التقليل . والشاهد عليه التعبير بلفظة (آنستم) لما في معنى الكلمة من الدقة وكذا التأكيد بقوله تعالى : { ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا } .

وقد اجتمع تحقيق الجنس وذكر واحد منه في قوله تعالى :

{ وإنْ خِفتُم ألاّ تقسطوا في اليتامى فانكِحوا ما طابَ لكمْ من النساءِ مثنى وثلاثَ ورباعَ فإن خِفتُم ألاّ تعدِلوا فواحدةً أو ما ملكَتْ أيمانُكُمْ ذلكَ أدنى ألاّ تعولوا }[٥] .

الآية الكريمة وردت بعد التأكيد على حرمة أموال اليتامى . قرن الله – سبحانه وتعالى – حرمة ذلك بحرمة الظلم والجور الواقع على الزوجات ومرده عدم التحرج من كثرة التعداد الذي يؤدي إلى العجز عن أداء

---

١ ــ الآية (٦) .

٢ ــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٤ ، ص٢٤٣ .

٣ ــ انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٤٨ .

٤ ــ انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج٥ ، ص١٩٧ .

٥ ــ الآية (٣) .

حقوقهن المشروعة ، فيقع الميل لبعضهن والظلم والجور على الأخريات .
وهـنا تـأتي النكرة لتساعد على توضيح ذلك المغزى ، فالكلمات : " مثنى وثلاث ورباع " نكرات لا تتعرف[١] لما لها من العدلين : عن صيغتها وعن تكررها ، وهي حال[٢] من " طاب " .

وتقديره : فانكحوا الطيبات لكم معدودات هذا العدد ثنتين ثنتين وثلاثاً ثلاثـاً وأربعـاً أربعاً[٣] فانظر كيف أغنت النكرة عن هذا الشرح والتطويل باستعمال لفظ مبين لجنس العدد .

ومثله تنكير لفظة " واحدة " مع تضمنها حكماً جديداً ثقيلاً على نفوس المكـثرين ، فنكرت بغرض تعيين واحد من الجنس لإفادة التقليل[٤] ، أي : فـانكحوا واحدةً على قراءة النصب[٥] أما على قراءة الرفع فواحدة كافية[٦] أو فالمقـنع واحدةٌ أو فحسبكم واحدةٌ[٧] ، وهذا فيه إشارة إلى الإلزام بالحكم الجديد الذي لا عهد للمخاطبين به والله أعلم وأحكم .

وقد جاءت الإشارة إلى توضيح مزية الواحدة في قوله تعالى : { ذلك أدنى ألا تعولـوا } . أي لا تظلموا وتجوروا أو تتحملوا أعباء كثيرة وثقيلة بكثرة عيالكم .

---

١ ــ انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج٢ ، ص٧ .
٢ ــ انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج٣ ، ص١٦٣ .
٣ ــ انظر (الكشاف) للزمخشري ، ج١ ، ص٢٤٤ .
٤ ــ مر معنا معنى التقليل في الآية (٦) عند تحليل قوله تعالى : { فإن آنستم منهم رشداً ... } ص ١٠٢ من هذا البحث.
٥ ــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٤ ، ص٢٢٥ .
٦ ــ انظر (المحرر الوجيز) لبن عطية ، ج٢ ، ص٧ .
٧ ــ انظر (الكشاف) للزمخشري ، ج٢ ، ص٢٤٦ .

ثانياً : النكرة المقيدة بالوصف :

والـــنكرة إذا وصـــفت تعـــلق الحكـــم فيها بالوصف فيكون تنكيرها ووصفها لتقرير هذا الوصف في الذهن[١] . يفهم من هذا أمران : الأول أن النكرة تدل على جنس المنكر ، والثاني أن إتباع النكرة بوصف يثبت الحكم الذي يحمله الوصف لهذه النكرة .

وقـــد جاء مثل هذا كثيراً في سورة النساء . أول هذه المواضع وقفة جديدة مع الآية الأولى ، يقول عز وجل :

{ يا أيها الناسُ اتقوا ربَّكم الذي خلقَكم من نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجَهـــا وبـــثَّ مـــنهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا اللهَ الذي تساءلونَ به والأرحامَ إنَّ اللهَ كانَ عليكم رقيباً }[٢] .

الكلمات : " نفسٍ واحدةٍ ، ورجالاً ، ونساءً ، ورقيباً[٣] " جميعها أتت في هيئة النكرة فما سر ذلك ؟

أما " نفس واحدة " فقيل فيه : النفس هي روح آدم[٤] – عليه السلام – أو ذاتـــه[٥] بدليل قولـــه تعالى : **{ أخرجوا أنفسكم }**[٦] ، وقوله تعالى : **{ ويحذركم الله نفسه }**[٧] والنكرة تدل أصلاً على واحد من الجنس ، وهنا وصـــفت الـــنكرة بأنها واحدة تأكيداً على انفرادها بأصل البشر . وعليه فلا

---

١ ــ هذا ما أشار إليه عبد القاهر في (دلائل الإعجاز) ، ص١٩٢ .
وكذا (بدائع الفوائد) لابن القيم ، ج٢ ، ص١٩٢ .
وكذا (البلاغة القرآنية) للدكتور محمد أبو موسى ، ص٣١٥ وما بعدها .
٢ ــ الآية (١) .
٣ ــ مر معنا تحليل النكرة (رقيباً) في النكرة دون وصف .
٤ ــ انظر (المفردات) للراغب الأصفهاني ، مادة (نفس) .
٥ ــ انظر (المفردات) للراغب الأصفهاني ، مادة (نفس) .
٦ ــ الآية (٩٣) ، سورة الأنعام .
٧ ــ الآية (٣٠) ، سورة آل عمران .

مجـــال لتعريف هذه اللفظة مطلقاً ، ولو جربنا ذلك لأطفأنا وهج تلك اللفظة الأخاذ ، والله أعلم وأحكم .

وفـــي تـــنكير " رجـــالاً ونساءً " يقول الإمام البقاعي : (ولما كان المبـــثوث قـــبل ذلك عدماً وهو الذي أوجده من العدم نكّر لإفهام ذلك)[١] ، فنكتة التنكير عنده هي الإشارة إلى إيجاد هذه النكرات ولم تكن من قبل شيئاً فهو سبحانه مبتدعها ومنشئها من لا شيء .

أما علة التنكير عند غيره فهي الدلالة على الكثرة قال أبو السعود : (كـــثيراً نعت لـــ " رجالاً " مؤكد لما أفاده التنكير من الكثرة)[٢] ثم قال : (ونساء أي كثيرة وترك التصريح بها اكتفاءً بالوصف المذكور)[٣] يقصد وصف الرجال .

وكـــلا الوجهين وارد ، وهو غرض بلاغي نبيل ، فإن كان الابتداع فالحـــال تؤيـــده ؛ فالخالق – سبحانه – هو الذي ابتدع أبا البشر وأمهم ، ثم جعل نسلهم من أسباب واهية بقدرته على الخلق والتصوير .

وإن قصد المغزى الثاني فواقع البشر ينطق به من هذه الحشود التي تكاد الأرض تضيق بها مع فناء حشود أخرى عبر العصور .

ومنه ما جاء في قوله تعالى :

{ وآتـــوا اليـــتامى أموالَهـــم ولا تتبدّلوا الخبيثَ بالطيّبِ ولا تأكلوا أموالَهم إلى أموالِكم إنّه كانَ حوباً كبيراً }[٤] .

---

١ ـــ انظر (نظم الدرر) ، ج٥ ، ص١٧٩ .

٢ ـــ انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج١ ، ص٤٧٦ .

٣ ـــ المرجع السابق .

٤ ـــ الآية (٢) .

الـــلفظة موضع الدراسة قوله تعالى : " حوباً " وهي تعني الإثم[١] ، وتنكيرها مع وصفها بـــ " كبيراً " يدل على عظم هذا الإثم إلى حد لا يقادر قدره إلا الله – سبحانه وتعالى – ، وكفى به وعظاً مبيناً وتهديداً غليظاً حتى يحاط اليتيم وكل ما يخصه بسياج منيع من حماية الرب الرحيم .

منه قوله تعالى :

{ ولا تؤتـــوا الســـفهاءَ أموالكمُ التي جعلَ اللهُ لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً }[٢] .

والكـــلمات موضـــع الدراسة : " قياماً[٣] ، قولاً معروفاً " . ومعنى " قياماً " : أي تقومون بها وتنتعشون ولو ضيعتموها لضعتم[٤] ونصبها على أنهـــا حال من العائد المحذوف أي : خلقها وأوجدها في حال كونها قياماً[٥] وهذا ما اقتضى تنكيرها .

أما ما كان التنكير فيه أشد وضوحاً من التعريف فهو في قوله تعالى: " قولاً معروفاً " فقد حقق التنكير مع الوصف بعده صورة ذهنية لهذا القول إشارة إلى أن هذا القول قد تعارفتم عليه ، وسكنت النفوس به وأحبته لحسنه عقـــلاً وشـــرعاً[٦] حتى صار معروفاً لديكم ، أو أن هذا القول يحمل معنى المعروف لما فيه من تطييب النفوس وجبر الخواطر .

---

١ ـــ انظر (المفردات) للراغب الأصفهاني ، مادة (حوب) .
قال أبو حيان : وأصل الحوب الزجر للإبل فسمي حوباً لأنه يزجر عنه .
انظر (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص١٥٠ .

٢ ـــ الآية (٥) .
ومما جاء على شاكلتها قوله تعالى : **{ ذريةً ضعافاً }** وكذا قوله تعالى : **{ قولاً سديداً }** في الآية (٩) .

٣ ـــ كلمة (قياماً) نكرة غير موصوفة .

٤ ـــ انظر (الكشاف) للزمخشري ، ج١ ، ص٢٤٧ .

٥ ـــ انظر (الدر المصون) للسمين الحلبي ، ج٢ ، ص٣١٠ ، بتصرف يسير .

٦ ـــ انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٤٧ .

ومما جاء تعلق حكم النكرة فيه بالوصف قوله تعالى :

{ للرجالِ نصيبٌ مما تركَ الوالدانِ والأقربونَ وللنساءِ نصيبٌ مما تركَ الوالدانِ والأقربونَ مما قلَّ منه أو كثُرَ نصيباً مفروضاً }[١] .

كلمة " نصيبٌ " نكرت لأنها شروع في حدث جديد لم يعهده العرب في جاهليتهم ، فهو (استئناف ابتدائي جار مجرى النتيجة لحكم إيتاء أموال اليتامى ، ومجرى المقدمة لأحكام المواريث)[٢] . وفيه مغزى تربوي عظيم قصد به تهيئة النفوس لتمكن تلك الأحكام بالتدريج[٣] .

وقولـــه تعالى : " نصيباً مفروضاً " نصب على أنه مصدر مؤكد أو عـــلى الحالية أو على الاختصاص[٤] ، ونكرت اللفظة إشعاراً بتعلق الحكم بالوصـــف أي نصـــيباً مقطوعـــاً مفروضاً[٥] عليكم فيجب الامتثال به دون هوادة .

ونخـــرج من هذا إلى أن اللفظة العربية بعامة ، وفي القرآن الكريم وســـورة النساء بخاصة تحمل في تنكيرها أهدافاً بلاغية كثيرة ومتنوعة مع إرادة الجـــنس أو ذكـــر واحـــد منه ، منها : معنى المبالغة والإيهام بالكثرة والـــتهويل والـــتفظيع ، وكذا التعظيم والندرة والغرابة ، وقد تحمل اللفظة معـــنى التقـــليل وقد يصحبه التحقير أو السخرية ، كما تتعلق النكرة بحكم الوصـــف المصـــاحب لها . وحصر ذلك في هذه السورة يحتاج إلى دراسة خاصة به ، ولكن حسبنا ما قدمناه لضيق المقام .

---

١ ــ الآية (٧) .
٢ ــ انظر (التحرير والتنوير) ، ج٤ ، ص٢٤٧ .
٣ ــ المرجع السابق الصفحة نفسها .
٤ ــ انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٤٩
وكذا (تفسير أبي السعود) ، ج١ ، ص٤٨٧
وكذا (روح المعاني) للألوسي ، م٢ ، ج٤ ، ص٢١١ .
٥ ــ انظر (تفسير أبي السعود) ، ج١ ، ص٤٨٧ .

المطلب الثالث : بلاغة الإفراد والتثنية والجمع .

إن هــذا الموضوع من الأهمية بمكان في توضيح المعنى والبلوغ به إلى غايــة بعيــدة[١] . والمــتأمل في اللفظة القرآنية من هذه الجوانب يرى العجــب في تمكن كل لفظة من موضعها الأصيل بحيث لو استبدلت بغيرها اخــتل مفهــوم السياق العام للنص الذي وردت فيه اللفظة ، مع أن ظاهر الأمر يدل على غير ذلك ، فتارة يكون الظاهر مقتضياً الجمع ، ولكن اللفظ القرآني آثر الإفراد ، وتارة يكون العكس[٢] وهو بهذا لم يخرج عن طريقة العرب في كلامها فقد جاء في شعر ذي الرُّمة :

وميّــةُ أحســنُ الثقــلين وجهــاً وســـالفةً وأحســـنُهُ قـــذالا[٣]

قـــال معــلقاً عــليه أبــو الفتح ابن جني[*] : (فأفرد الضمير – في أحســنه – مــع قدرتــه على جمعه . وهذا يدلك على قوة اعتقادهم أحوال المواضع وكيف ما يقع فيها . ألا ترى أن الموضع موضع جمع ، وقد تقدّم

---

١ ــ لم تقف أمهات كتب البلاغة وقفة جادة ومتخصصة مع هذا الموضوع مثلما وقف فيه أبو الفتح ابــن جني في خصائصه ، ولكن قد تعثر على بعض لمحات طفيفة تشير إليه في ثنايا أبحاث أخرى . وذلــك مــثل (المفتاح) للسكاكي، و (الإيضاح) للقزويني ، و (شروح التلخيص) ، و (البديع) لابن المعتز ، و (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني .

٢ ــ انظر (الاتجاه البلاغي في تفسير البيضاوي) للدكتور محمد لطفي عبد التواب ، ص٨٠ .

٣ ــ البيت في (الخزانة) ، ج٤ ، ص١٠٨ ، وفي (الكامل) ، ج٦ ، ص١٨٠ ، وفي الديوان ، ص٤٣٦ .

والسالفة : أعلى العنق ، والقذال : مؤخرة الرأس فوق القفا . انظر (الخصائص) ، ج٢ ، ص٤٢١ .

* هــو أبــو الفتح عثمان بن جني الموصلي النحوي المشهور ، ولد قبل الثلاثين والثلاثمائة ، كان إمامــاً فــي العــربية له تصانيف كثيرة في النحو والصرف ، منها (الخصائص) ، و(سر صناعة الإعــراب) ، و(المنصــف شرح تصريف المازني) وغيرها ، توفي سنة اثنين وتسعين وثلاثمائة ببغداد .

انظر (وفيات الأعيان) ، ج٣ ، ص٣٤٦ وما بعدها .

فـــي الأول لفظ الجمع – أحسن الثقلين – فترك اللفظ وموجب الموضع إلى الإفراد ، لأنه مما يؤلف في هذا المكان)[١]

وأظـــن أن اختياره للإفراد في (أحسنه) دون الجمع ليس فقط لأنه ممـــا يؤلـــف في هذا المكان على حد تعبير ابن جني ، ولكن ليدلك بالإفراد على معنى بلاغي دقيق . فكأنه يقول : لو تفقدت الثقلين فرداً فرداً لوجدت أن الممدوحة أحسن فرد فيهم . ولذلك كان الإفراد أعمق معنى من الجمع .

وأعجـــب من ذلك تلك النكات البلاغية المقصودة في القرآن الكريم يـــلحظها المتأمل في علاقة أجزاء السياق بعضه ببعض . ولنتدلل على ذلك من سورة النساء المباركة .

قال الحق تبارك وتعالى :

{ تـــلكَ حـــدودُ اللهِ ومنْ يطِعِ اللهَ ورسولَهُ يدخلْهُ جنّاتٍ تجري من تحـــتها الأنهارُ خالدينَ فيها وذلكَ الفوزُ العظيمُ * ومنْ يعصِ اللهَ ورسولَهُ ويتعدَّ حدودَهُ يدخلْهُ ناراً خالداً فيها وله عذابٌ مهينٌ }[٢] .

الآيـــة الأولى تزف البشرى للمسلمين (بجمع الفائزين بدخول الجنة في قوله تعالى " خالدين " تبشيراً بكثرة الواقف عند هذه الحدود ولأن منادمة الإخـــوان من أعلى نعيم الجنان)[٣] ، وقد خلق الإنسان اجتماعياً يحن إلى الكثرة ، فجعلها المولى دليل رحمته وتفضله على من أطاعه ورسوله .

وبالمقابل جعل الانفراد دليل ذل ورهبة وعقاب (فأفرد العاصي في النيران في قوله " يدخله ناراً خالداً فيها " لأن الانفراد المقتضي للوحشة من العذاب والهوان)[٤] . وقيل : (أفرد خالداً هنا وجمع خالدين فيها لأن أهل الطاعة أهل الشفاعة ، وإذا شفع في غيره دخلها والعاصي لا يدخل النار به

---

١ ــ المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

٢ ــ الآيتان (١٣ و ١٤) .

٣ ــ انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج٥ ، ص٢١٤ وما بعدها .

٤ ــ المرجع السابق .

غيـــره فـــبقي وحيداً)[١] . وهكذا كان للجمع مغزى وللإفراد آخر لا يسد أحدهما عن صاحبه .

ومنه قوله تعالى :

{ ألــمْ تــرَ إلى الذيــنَ أوتــوا نصيباً من الكتابِ يؤمنونَ بالجبتِ والطــاغوتِ ويقولــونَ للذينَ كفروا هؤلاءِ أهدى من الذينَ آمنوا سبيلاً * أولئك الذين لعنَهُمُ اللهُ ومنْ يلعنِ اللهُ فلنْ تجدَ له نصيراً }[٢] .

دل الجمع في اسم الإشارة (أولئك) وفي الموصول (الذين) وفي الضمير الواقعِ مفعولاً به في (لعنهم) على أن الكلام عن جماعة اليهود[٣] الذاهـــبين إلى المشـــركين بحـــثاً عن النصرة ، وكان الثمن ضياع دينهم – أعاذنـــا الله من سوء المصير – فاستحقوا بذلك أن يجعلوا مثالاً لكل ملعون بقوله تعالى : { ومن يلعنِ اللهُ فلن تجدَ لهُ نصيراً } . (ومَنْ) تحتمل معنى الجمـــع والإفـــراد ومـــع إفادتها معنى العموم كانت واسطة في المعنى بين الجمع السابق وبين الإفراد في جعل الحكم قاعدة عامة تنسحب على كل من استحق لعنة الله . وقد أكد الاشتراك بين معنى الجمع ومعنى الإفراد صيغة (فعيـــل) في نصيراً ، بالإضافة إلى تنكير اللفظة الذي يوجهها إلى معنى الجـــنس ، فتضافر السياق على إبراز معنى الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى والحاجـــة إليـــه عند عدم وجود أي نصير مهما عظم الخطب وجد البحث وامتداد الزمان . وكما قال الألوسي :(وفيه دلالة على حرمانهم الأبدي)[٤]

---

١ ـــ انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج٣ ، ص١٩٢ .

٢ ـــ الآيتان (٥١ و ٥٢) .

٣ ـــ انظر (جامع البيان) لابن جرير الطبري ، م٤ ، ج٥ ، ص٨٥ وما بعدها .
وكذا (التفسير الكبير) للرازي ، ج١٠ ، ص١٢٨ وما بعدها .

٤ ـــ انظر (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص٥٦ .
وكذا تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٣٦ .

مـــن النصـــرة إذا لم يطلبوها من الله – سبحانه وتعالى – . وفي هذا أيضاً بشارة بنصره المؤمنين على عدوهم ، والله أعلم وأحكم .

وفـــي الآية التالية وقفة رائعة بين الجمع والإفراد . يقول الله سبحانه وتعالى :

{ ودُّوا لـــو تكفـــرونَ كمـــا كفروا فتكونونَ سواءً فلا تتخذوا منهم أوليـــاءَ حـــتى يهاجـــروا في سبيلِ اللهِ فإن تولَّوا فخذوهم واقتلوهم حيثُ وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً }[١] .

قـــال – عـــز من قائل – : { لا تتخذوا منهم أولياء } (فجمع أولياء لمـــراعاة جمع المخاطبين فإن المراد نهي أن يتخذ واحد من المخاطبين ولياً واحـــداً مـــنهم أي إذا كان حالهم ما ذكر من ودادة كفركم فلا توالوهم)[٢] { حـــتى يهاجـــروا في سبيل الله } ، ويتبين بذلك للجميع صحة نواياهم وإلا (فجانبوهم مجانبة كلية ولا تقبلوا منهم ولاية ولا نصرة أبداً)[٣]. فجمع في الأولى لـــتعداد الأوليـــاء بتعداد المخاطبين أو تعداد الأولياء لكل فرد منهم وذلـــك قبل نفاقهم ، أما بعد ذلك فالنهي عن موالاتهم أشد ، فلا تتخذوا منهم ولا ولياً واحداً حتى ولو كان هذا الواحد للجماعة بأسرها . فأفرد مبالغة في الـــتحذير مـــن ولايتهم بعد كشف سترهم . ولا يخفى أن صيغة المضارع (ولا تتخذوا) دليل على استمرار هذا النهي ، وتكرارها أفاد زيادة تأكيد[٤] النهي عن مثل ذلك .

---

١ ــ الآية (٨٩) .

٢ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٦٣ .

٣ ــ انظر المرجع السابق . وكذا تفسير الطبري ، م٤ ، ج٥ ، ص١٢٤ .

٤ ــ انظر (روح المعاني) للألوسي ، م٢ ، ج٥ ، ص١٠٩ .

ولنتأمل قوله تعالى :

{ وإذا ضربْتُمْ في الأرضِ فليسَ عليكُمْ جناحٌ أن تَقْصُروا من الصلاةِ إن خِفتُمْ أنْ يفتِنَكُمُ الذينَ كفروا إنَّ الكافرينَ كانوا لكُمْ عدواً مبيناً }[١] .

من الواضح أن صيغة الجمع في " الذين كفروا ، إن الكافرين كانوا " قد تحولت إلى صيغة المفرد في آخر الآية ، حيث قال سبحانه وتعالى : { عدواً مبيناً } ، فما وجه هذا التغيير؟

قال أبو البقاء : (عدواً في موضع أعداء . وقيل : عدو مصدر على فَعول مثل القبول والولوع ؛ فلذلك لم يجمع)[٢] . والظاهر أن المراد من إفراد اللفظة إرادة الجنس وبهذا تكون دلالتها على معناها أعم من الجمع[٣] .

وقال أبو حيان : (عدو وصف يوصف به الواحد والجمع قال سبحانه " هم العدو". ومعنى مبيناً أي مظهراً للعداوة بحيث إنَّ عداوته ليست مستورة ولا هو يخفيها ، فمتى قدر على أذية فعلها)[٤] .

وانظر إلى بلاغة الجمع في هذه الآية الكريمة . قال الله تعالى :

---

١ ــ الآية (١٠١) .

٢ ــ انظر (التبيان في إعراب القرآن) للعكبري ، ج١ ، ص٣٨٦ .

وكذا (روح المعاني) للألوسي ، م٢ ، ج٥ ، ص١٣٤ .

٣ ــ ذكر مثل هذا الزمخشري في تفسيره لقوله تعالى : **{ قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون }** المؤمنون ، الآية (١ و٢) . فقال : (لقد وحدت – يعني الصلاة – أولاً لبقاءِ الخشوع في جنس الصلاة أي صلاة كانت) . انظر (الكشاف) ، ج٣ ، ص١٤٠ .

وكذا (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري) للدكتور محمد أبو موسى ، ص٢٧٥ .

وذكر مثل هذا البيضاوي في تفسيره لقوله تعالى : **{ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام }** لقمان ، الآية (٢٧) . قال – رحمه الله – : (وتوحيد شجرة لأن المراد تفصيل الآحاد) انظر ج٧ ، ص١٤١ .

وكذا (الاتجاه البلاغي عند البيضاوي) للدكتور محمد لطفي عبد التواب .

٤ ــ انظر (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٣٣٩ . و { هم العدو } جزء من الآية (٤) من سورة المنافقون .

{ إنَّــا أنزلْنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ لتحكمَ بينَ الناسِ بما أراكَ اللهُ ولا تكُنْ للخائنينَ خصيماً }[١] .

نزلت هذه الآية وما بعدها في طعمة بن أبيرق سرق درعاً ورمى به غيــره ، ثــم ذهب نفر من أهله إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – متظلمين لاتهامه بذلك فرد رسول الله – عليه أفضل الصلاة والسلام – عنه الــتهمة ثقــة به وبقومه ، فعاتبه ربه – سبحانه وتعالى – بهذه الآية عتاباً شديداً[٢] .

والخــائن فــي هذه القضية واحد هو طعمة ؛ لكن الآية أتت بصيغة الجمع (باعتباره واعتبار من شهدوا له بالبراءة من قومه ... فكانوا شركاء فــي الإثم خصوصاً من يعلم أنه هو السارق . أو جاء الجمع ليتناول طعمة وكل من خان خيانته فلا يتخاصم لخائن قط ولا يجادل عنه)[٣] .

ولا يخــفى أن نهياً موجهاً للرسول – صلى الله عليه وسلم – يخص كل فرد من أمته على مبدأ التشريع مع إرادة تعميم الأمر لأن الحدود قضية شــرعية لا هوادة فيها . وحديث فاطمة المخزومية الشهير أكبر شاهد على ذلك[٤] .

وقــد يكون الإفراد دليل عذاب والجمع دليل رحمة . انظر معي إلى قوله سبحانه وتعالى :

---

١ ــ الآية (١٠٥) .

٢ ــ انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج٢ ، ص١٠٨ وما بعدها .

وكذا (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٧٤٣ .

٣ ــ المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

٤ ــ روت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها أن أسامة كلم النبي – صلى الله عليه وسلم – في امرأة فقال : " إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا يقيمون الحد على الوضيع ويتركون الشريف ، والذي نفسي بيده لو أن فاطمة فعلت ذلك لقطعت يدها " .

رواه البخاري في صحيحه ، ج٨ ، ص١٩٩ .

{ أولـــئكَ مـــأواهُمْ جهنَّمُ ولا يجدونَ عنها محيصاً * والذينَ آمنوا وعمـــلوا الصالحاتِ سندخلُهُمْ جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها أبداً وعدَ اللهِ حقاً ومنْ أصدقُ من اللهِ قيلاً }[١] .

إفـــراد جهـــنم زيادة في التضييق على من يستحقها ، فهم يتمنون أن يجـــدوا عـــنها محيصـــاً ؛ ولكن أنى يجدون ذلك ؛ وبالمقابل وسَّع المولى سبحانه على المؤمنين العاملين الصالحات فجعلهم يتنقلون بين جنات فرحين بمـــا آتـــاهم من البقاء الدائم والوفاء بالوعد **{ ومن أصدق من الله قيلاً }** ، وزاد الصورة سعة تنكير كلمة جنات ووصفها بتلك الصفات .

وتأمل بلاغة الإفراد في قوله تعالى :

{ يا أيها الذينَ آمنوا لا تقربوا الصلاةَ وأنتم سُكارى حتى تعلموا ما تقولـــونَ ولا جُنُباً إلا عابري سبيلٍ حتى تغتسلوا وإنْ كنتم مرضى أو على سفرٍ أو جاءَ أحدٌ منكم من الغائطِ أو لامستُمُ النساءَ فلمْ تجدوا ماءً فتيمّموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهِكم وأيديكم إنَّ اللهَ كانَ عفواً غفوراً }[٢] .

الآيـــة تحمل نداء لجماعة من المؤمنين وتخاطبهم بصيغة الجمع في كافة التفاصيل التي حملتها عدا نقطة واحدة في قوله تعالى : { أو جاء أحد مـــنكم من الغائط } ولو شاكلت السياق لكان المقطع : أو جئتم من الغائط ؛ ولكـــنه القـــرآن ، لا تفوتـــه كبيرة ولا صغيرة في مطابقة الواقع ، والواقع الملموس للفطرة السوية يؤكد الحاجة إلى الانفراد في هذا الموطن ولذا سمته العـــرب بيت الخلاء ، فعجباً لهذه الدقة المتناهية في كتاب **{ لا يأتيه الباطل من بينِ يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد }**[٣] .

---

١ ـــ الآيتان (١٢١ و ١٢٢) .

وقد مر مثل هذا في الآيتين (١٣ و ١٤) في نفس المبحث .

٢ ـــ الآية (٤٣) .

٣ ـــ الآية (٤٢) ، سورة فصلت .

ومن روائع المزاوجة بين المفرد والمثنى قوله تعالى :

{ يا أيها الناسُ اتقوا ربَّكُمُ الذي خلقَكم من نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجَهــا وبــثَّ مــنهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا اللهَ الذي تساءلونَ به والأرحامَ إنَّ اللهَ كانَ عليكم رقيباً }[1] .

لقــد وصف المولى نفسه بأنه خالقنا من نفس واحدة ، وذلك باعتبار الأصــل ، ثم جاءت الجملة الثانية لتفصيل ما أجمل ، فذكر سبحانه أنه بثّ منهما تصويراً للواقع ولعمق الصلة بين الاثنين وشدة حاجة أحدهما للآخر ، فكان للإفراد موقعه البلاغي ، كما كان للتثنية مثل ذلك .

---

١ ــ الآية (١) .

المطلب الرابع : بلاغة التذكير والتأنيث .

لا يخــفى أن وراء تذكيــر اللفظة أو تأنيثها حاجة معنوية يقتضيها سياق الحدث ، وهو أمر طبيعي قد درج عليه العرب ؛ ولكن ما يثير الانتباه ظهور أحدهما بدل الآخر . وعندها تتدخل البلاغة محاولة كشف النقاب عن بعض الأسباب مستعينة بمجريات الحدث وأجزاء السياق . وإليك بيان ذلك في أمثلة من سورة النساء .

ونحن دائماً على موعد مع أول آية في هذه السورة العظيمة ؛ لنؤكد عــلى حســن الاستهلال وبراعة المطلع الذي يصل إلى حد الإعجاز . قال الحق تبارك وتعالى :

{ يا أيها الناسُ اتقوا ربَّكُمُ الذي خلقَكم من نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجَهــا وبــثَّ مــنهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا اللهَ الذي تساءلونَ به والأرحامَ إنَّ اللهَ كانَ عليكم رقيباً }[١] .

لاشــك أن المقصود بــ (نفس واحدة) هو آدم عليه السلام . وهنا يطــرح نفســه سؤال : ما وجه ذكره بهذه التسمية وفيها دلالة ظاهرة على الــتأنيث يؤكدها الوصف بــ (واحدة) ، وعود الضمير المؤنث عليها في (زوجها) ؟

أوَلا تغــني عــنها أية كلمة مذكرة مثل روح أو رجل أو مخلوق أو ذكر أو ما شابه ذلك ؟

أعــتقد أن الإجابة على هذا السؤال دونها الحيطة والحذر الشديدين ، وإلا لماذا لم تقف كتب اللغة أو البلاغة أو التفسير أو الإعجاز وقفة واضحة

---

١ ــ الآية (١) .

معهـا ، بـل كـل مـا ذكـر بشأنها قولهم : إن هذه النفس هي آدم عليه السلام[١] ، وزاد الرازي : (إلا أنه أنث الوصف على لفظ نفس)[٢] .

ولكنـني – مستعينة بالله – أقول : إن كلمة نفس كلمة ذات دلالات كثيرة متشعبة في لغة العرب ، منها ما هو حسي وما هو معنوي ، والمتتبع لهذه الدلالات وما يتفرع عنها يجد الجواب المطلوب بإذن الله تعالى .

فمن دلالاتها : الروح ، العقل ، الدم ، الشيء الذي يكون به التمييز ، والشـخص ، والأخ ، والإنسـان جميعه ، وعين الشيء وكنهه وجوهره ، وكذلك الوقت . جميعها دلالات حسية . أما دلالاتها المعنوية فهي : العزة ، الهمة ، والأنفة[٣] .

وقيـل : سميت النفس نفساً لتولد النَّفَس منها واتصاله بها[٤] ، ومن مادتهـا الـنَّفَس : وهو الفرج من الكرب ، وفي الحديث : " لا تسبوا الريح فإنها من نفس الرحمن " أي أنها روح ينفس بها على المكروبين [٥] .

معان كثيرة تتولد من هذه المادة تدل جميعها على الخير الذي يتفضل به الخالق العظيم على المخلوق الضعيف ، قد عرفتها العرب جميعها ؛ ولذا سجد الصادقون منهم لرب هذا القرآن المعجز .

---

١ ـ انظر (لسان العرب) ، مادة (نفس) .
وكذا (معجم مقاييس اللغة) لابن فارس ، تحقيق عبد السلام هارون ، مادة (نفس) .
وكذا (المفردات) للراغب الأصفهاني ، مادة (نفس) .
وكذا (تفسير ابن كثير) ، ج١ ، ص٤٤٩ .
وكذا (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٤٠ .

٢ ـ انظر (التفسير الكبير) ، ج٩ ، ص١٦٠ .

٣ ـ انظر (لسان العرب) ، مادة (نفس) .

٤ ـ انظر المرجع السابق .

٥ ـ انظر (معجم مقاييس اللغة) ، مادة (نفس) وكذا اللسان ، وكذا مفردات الراغب الأصفهاني.
لـم أعـثر عـلى هذا اللفظ فيما بين يدي من كتب الصحاح ، ولكن أخرج الإمام أحمد في مسنده بسنده إلى أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الـريح مـن رَوحِ الله تـأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله خيرها واستعيذوا به من شرها " ، ج٢ ، ص٢٦٨ .

لما مر لابد أن نسلم أن كلمة نفس بما فيها من تأنيث هي الأمكن في مقام الخلق وطلب التقوى ومتانة الصلة بين الخالق والمخلوق .

كمـــا أنـــني ألمح بارقة أخرى وإن كانت ثانوية في صلة هذه الكلمة المؤنثة ، وهي تسمية السورة التي كانت بمثابة الديباجة الرائعة .

وهـــذه العلاقـــة المتيـــنة نفـــتقدها لو أبدلت كلمة نفس بما يدل على المذكـــر ، فهـــي عـــنوان بارز على أن هذه السورة نزلت تكريماً وتشريفاً وإنصافاً للنساء ، فسبحان القائل : **{ وليس الذكر كالأنثى }**[١] تنويهاً بأهمية دورها وعظم قدرها .

ومما جاء مؤنثاً لهدف بلاغي قوله تعالى :

{ إنْ يدعونَ من دونِهِ إلا إناثاً وإنْ يدعونَ إلا شيطاناً مريداً }[٢] .

قـــالت أم المؤمـــنين الســـيدة عائشة – رضي الله عنها – في إناثاً : أوثاناً[٣] ، وقال ابن جرير[*] : قال المشركون للملائكة بنات الله – تعالى الله علواً كبيراً – ، فصوروا آلهة وقالوا هؤلاء يشبهون بنات الله الذي نعبده ، يعـــنون الملائكـــة[٤] . وهـــذا التفسير شبيه بقوله تعالى : **{ أفرأيتُمُ اللاتَ والعُـــزَّى }**[٥] ، وقوله تعالى : **{ وجعلوا الملائكةَ الذينَ هم عبادُ الرحمنِ إناثـــاً أشـــهدوا خلقَهُم ستُكتَبُ شهادتُهُم ويسألونَ }**[٦] . إذ جعلوا أنفسهم

---

١ ــ الآية (٣٦) ، سورة آل عمران .

٢ ــ الآية (١١٧) .

٣ ــ انظر تفسير ابن كثير ، م١ ، ص٥٥٦ .

* هـــو أبـــو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري ، ولد سنة أربع وعشرين ومائتين من الهجرة ، ومن أشهر مصنفاته (جامع البيان في تفسير القرآن) .

انظر (التفسير والمفسرون) ، ج١ ، ص٢٠٥ .

٤ ــ انظر تفسير (جامع البيان) لابن جرير الطبري ، م٤ ، ص١٧٩ وما بعدها .

وكذا تفسير ابن كثير ، م١ ، ص٥٥٦ .

٥ ــ الآية (١٩) ، سورة النجم .

٦ ــ الآية (١٩) ، سورة الزخرف .

للإنـــاث عــباداً وهم يأنفون من أن يكونوا لهم أولاداً[١] ، فكان ذلك منتهى السخف منهم ، فجاءت الآية إظهاراً لتناقض حالهم ، ودليلاً على ضلالتهم ، وإقراراً لسفه عقولهم ؛ خصوصاً وأن (مادة " أنث " و " وثن " يلزمها في نفسها الكثرة والرخاوة والفرقة ، وكل تلك المعاني في غاية البعد عن رتبة الإلهيــة)[٢] . وأعجب من ذلك أن يكون هذا صادراً من العرب ، وقد علم الــناس حــال المرأة بينهم[٣] ، فجاءت إناثاً بدل أوثاناً لما ذكر من أغراض بلاغيــة ، ثــم أوضحت الآية أن حقيقة ما يدعون أضل وأسفه لأنها أوهام زينها الشيطان لغوايتهم .

ثــم لا ننسى صيغة المضارع في قوله تعالى { يدعون } الدالة على اســتمرار ســفههم حيــناً بعد حين ، وإن تغيرت الأسماء لهذه المعبودات الباطلة.

ومما وصف فيه المذكر بكلمة مؤنثة لنفس الهدف قوله تعالى :

{ وإنْ كانَ رجلٌ يورَثُ كلالةً ... }[٤] .

وأحســب أن مــادة (كــلَّ) تدل على الإعياء والضعف الذي هو بالمؤنث أنسب وأقرب ؛ لذا سمت العرب من مات ليس له ولد أو والد يُشدُّ بهمــا عضــده كلالة[٥] . وإن كثر الجدل فيها إلا أنها في النهاية ذات صلة كبيرة بما يدل على الضعف والانكسار ، فالتأنيث فيها أولى وأبلغ وإن دلت على رجل .

---

١ ــ انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج٥ ، ص٤٠٤ .
٢ ــ انظر المرجع السابق ، ج٥ ، ص٤٠٥ .
٣ ــ انظر (التحرير والتنوير) ، ج٥ ، ص٢٠٣ .
٤ ــ جزء من الآية (١٢) .
٥ ــ انظر (اللسان) ، مادة (كلل) .

وبالمــثل قــد يكــون لتقديم هيئة التذكير حاجة بلاغية ملحة يتطلبها السـياق أو الحالــة النفسية ، أو بلغة البلاغيين القدامى : " مراعاة مقتضى الحال " . وهذه الآية في المواريث تبرهن ذلك . قال تعالى :

{ يوصـيكُمُ اللهُ فـي أولادِكُمْ للذكرِ مثلُ حظِّ الأنثيينِ فإنْ كُنَّ نساءً فوقَ اثنتينِ فلهُنَّ ثُلُثا ما تركَ وإنْ كانتْ واحدةً فلها النصفُ ... }[1] .

المقــام مقام وصية للميراث بعد الموت ، أيٌّ خطب عظيم تتجرعه النفس البشرية ولا تكاد تسيغه ؛ لأنه الموت ، مفارقة الحياة بكل ما فيها من عزيــز وغــال ، وهل أعز على النفس من المال ؟ وقد قيل قديماً : المال سـوى الروح . ولنا أن نعجب من أسلوب الذكر الحكيم مقرين بقلب يملؤه اليقين أنه كلام رب العالمين المطَّلع على خائنة الأعين وما تخفي الصدور . اسـمع هذا الأسلوب الذي ينساب بلطف وتحنن ورفق : { يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيينِ } بادئاً بالذكر تلطفاً بهم ومجاراة لما انطوت عليه دخائلهم ؛ إذ الذكر في عرف العربي القديم أعز على النفس من الأنثى لاعتبارات كثيرة كانت هي ملابسات حياتهم آنذاك .

ثـم من طرف خفي توجههم الآية إلى مراعاة حق الإناث الذي كان ضـائعاً مـن قبل بقولـه تعالى : { فإن كن نساءً فوق اثنتين ... } إشارة صريحة على أن لهن في الميراث حقاً .

وحسـبنا مـا ذكر في هذا المبحث رجاء أن يدل على ما لم تتمكن الدراسـة مـن مناقشته لضيق المقام وكراهة التكرار . والله أسأل التوفيق والإخلاص فهو ولي ذلك والقادر عليه .

---

١ ــ جزء من الآية (١١) .

المبحث الثاني

بلاغة المفردة القرآنية في سورة النساء من حيث مادتها

المطلب الأول : أدوات الشرط.

المطلب الثاني : أدوات النفي .

المطلب الثالث : حروف العطف .

المطلب الرابع : حروف الجـــر .

المبحث الثاني : بلاغة المفردة القرآنية في سورة النساء من حيث مادتها

مدخل :

إذا كـــان الآن قد حان وقت الوفاء بما تم الوعد به من دراسة بلاغة المفـــردة القـــرآنية فـــي ســـورة النساء من حيث مادتها ، فإن هذا المبحث ســـيدرس مادة المفردة من حيث تنوعها بين الشرط ، والنفي ، والعطف ، والجر ، وإذا كان لقائل أن يقول : فأين تنوع الكلمة إلى الاسمية والفعلية ؟ فـــإني أقول : لقد مضى – ضمناً – في المبحث الأول دراسة تنوع الكلمة ، بـــل تعـــدد صورها من حيث الاسمية ، أما دراستها من حيث كونها فعلاً ، فذلك حديث نظم الجملة الذي هو موضوع الفصل الثاني بما يشتمل عليه من مباحث ، إن شاء الله .

المطلب الأول : الإعجاز البلاغي في أدوات الشرط .

من بديع مواطن الإعجاز البلاغي الدقة في اختيار أدوات الشرط في آيات الذكر الحكيم لما بين تلك الأدوات من فروق اعتادت الأذن العربية تمييزها ، وهو مما بهر البلغاء من عصر نزول القرآن وحتى الآن .

وستتناول الدراسة بعض[١] هذه الأدوات لتحظى بشيء من نكاتها البلاغية في الجملة القرآنية من سورة النساء بحول الله وقوته .

أولاً : (إذا) و (إن) :

من المعلوم بلاغياً أن (إذا) تستعمل في ما هو محقق الوقوع و(إن) في ما يخالطه الشك[٢] ويتبع هذا الكثير من المعاني مثل اليقين والكثرة والتأكيد وشدة الرجاء وصدق الرغبة ؛ وما إلى ذلك من استعمالات (إذا) وعكس تلك المعاني وغيرها[٣] من استعمالات (إن) حسب ما يقتضيه الحدث الذي يدور عليه السياق .

وإذا استعملت إحدى الأداتين مكان الأخرى كان ذلك لنكتة بلاغية أيضاً[٤]

وإليك برهان ذلك فيما يلي من الآيات : قال تعالى :

{ وابتلوا اليتامى حتّى إذا بلغوا النكاحَ فإنْ آنستُم منهُم رشداً فادفعوا إليهِمْ أموالَهُم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أنْ يكبروا ... }[٥] .

١ـ مثل : (إذ) و (إن) و (لو) وذلك لتنوع أغراضها البلاغية .

٢ـ انظر (الإيضاح) للخطيب القزويني ، ص٥٧ ، وكذا (شروح التلخيص) ، ج٢ ، ص٣٥ وما بعدها . وكذا (البلاغة فنونها وأفنانها) د. فضل حسن عباس ، ص٣٣٨ وما بعدها ، وكذا (خصائص التراكيب) د.محمد أبو موسى ، ص٢٥٧ وما بعدها .

٣ ـ مثل ندرة الوقوع ، والتبكيت ، والسخرية ، والزجر .

٤ ـ قد يظن المستعجل أن استعمال إحداهما بدل الأخرى ضعف في الأسلوب ولكن بإنعام النظر يتضح أن وراء ذلك مغزىً بلاغياً عميقاً خصوصاً عندما تؤخذ الناحية النفسية بعين الاعتبار .

٥ ـ جزء من الآية (٦) .

لقــد احــتوت هذه الآية المباركة أداتي الشرط (إذا) ، و(إن) . ووقعــت كــل منهما في موقعها المعجز . وبيان ذلك أن تحري بلوغ اليتيم مبــلغ الرشد أمر حتمي لا غنى عنه حتى لا يدفع إليه ماله قبل ذلك فيكون مظنة التضييع ؛ وذلك لعدم اكتمال دعائم الرشد فيه لصغر أو سفه ؛ ولكن في الأمر مزلقاً خطراً حيث قد يتساهل الأوصياء في زمن الدفع لحاجة في أنفســهم فيلحق باليتيم الظلم ، والله سبحانه وتعالى تعهد حمايته ؛ ولذا جاء جــواب الشــرط الأول شرطاً ثانياً منبهاً إلى المسارعة إليه ب(إن) التي اشــترطت إيناس الرشد مُنكراً فتضافر السياق مؤكداً على المبادرة في ذلك بـــ (إن) الــتي تدل على احتمالية وجود الرشد ، وكلمة (آنستم) الدالة عــلى ظهــور أول بوادره ، و التنكير الذي يدل على وجود أي بادرة منه مهمــا صــغرت ؛ لأن (أول أحــوال الرشد قد يقارنها السفه باعتبار أثر الصــبا)[١] ، ولذا افتتحت الآية بالأمر بابتلائهم ثم إذا ظهرت بوادر الخير تسلم إليهم باقي أموالهم .

فكانت (إذا) على بابها للتأكيد على الشرط ، كما جاءت (إن) على بابهــا للاحــتمال والظن وهكذا (جاء القرآن على طريقة القوم في كلامهم وخاطــبهم بما يخاطبون به أنفسهم)[٢] ليصل بذلك إلى الأعماق فينصاعون له طائعين .

ومما جاء على شاكلته قوله تعالى :

{ فــإذا أحْصِنَّ فإنْ أتينَ بفاحشةٍ فعليهِن نصفُ ما على المحصناتِ من العذابِ... }[٣] .

جــاءت الآيــة فــي شأن الإماء المؤمنات ، شدد المولى في وصف حالــتهن بالإحصــان ب(إذا) وزاده تشــديداً وتأكيداً بدخولها على الفعل

١ــ انظر (روح المعاني) ، م٢ ، ج٤ ، ص٢٠٦ .

٢ــ (خصائص التراكيب) د. محمد أبو موسى ، ص٢٦٨ .

٣ــ جزء من الآية (٢٥) .

الماضـــي ، وقلل احتمال إتيانهن الفاحشة بعد ذلك وهن مسلمات تنبيهاً على أن ذلك الخلق غير متوقع منهن .

ولأن (إذا) تــأتي في مقام التأكيد للأمر المقطوع بوقوعه فقد جاءت كثيراً في بيان الأحكام الشرعية، ومنها حكم الصلاة ، اسمع رعاك الله قوله تعالى :

{ وإذا كُنتَ فيهِم فأقمْتَ لهُمُ الصلاةَ فلتقُمْ طائفةٌ منهم معكَ وليأخذوا أسلحتَهُمْ فإذا سَجَدوا فليكونوا من ورائِكُمْ ... }[١] .

لما كان أصل (إذا) الجزم بالوقوع كان الغالب في الفعل المستعمل معهــا أن يكــون بلفظ الماضي لإشعار المضي بتحقق الوقوع الذي يناسب مفاد (إذا)[٢] وهكذا ترى زمن الفعل في معظم الآيات الواردة معها .

ومنه قوله تعالى :

{ فــإذا قضــيتُمُ الصلاةَ فاذكروا اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جنوبِكم فإذا اطمأنَنْتُم فأقيموا الصلاةَ إنَّ الصلاةَ كانتْ على المؤمنينَ كتاباً موقوتاً }[٣] .

ومنه قوله تعالى :

{ إن المــنافقينَ يخــادعونَ اللهَ وهوَ خادِعُهُم وإذا قاموا إلى الصلاةِ قاموا كُسالَى يراءونَ الناسَ ولا يذكرونَ اللهَ إلا قليلاً }[٤].

فقد أكدت (إذا) حال كسلهم وهو دليل صادق على نفاقهم . ومنه في غير الصلاة قوله تعالى :

{ حتى إذا حضَرَ أحدَهُم الموتُ قالَ إنِّي تُبْتُ الآنَ...}[٥] .

وقوله تعالى :

---

١ ــ جزء من الآية (١٠٢) .

٢ ــ انظــر (مواهــب الفــتاح فــي شــرح تلخيص المفتاح) لابن يعقوب المغربي ضمن شروح التلخيص ، ج٢ ، ص٤٠ .

٣ ــ الآية (١٠٣) .

٤ ــ الآية (١٤٢) .

٥ ــ جزء من الآية (١٨) .

{ وإذا قيلَ لهم تعالَوا إلى ما أنزلَ اللهُ وإلى الرسولِ رأيتَ المنافقينَ يصدُّونَ عنكَ صُدوداً }[١] .

وقوله جل شأنه :

{ وإذا حُييــتُمْ بتحيةٍ فحيوا بأحسنَ منها أو ردُّوها إنَّ اللهَ كانَ على كلِّ شيءٍ حسيباً }[٢] .

وقوله :

{ يــا أيهــا الذينَ آمنوا إذا ضربتُم في سبيلِ اللهِ فتبيَّنوا ولا تقولوا لمَــنْ ألــقى إليكمُ السلامَ لستَ مؤمناً تبتغونَ عرضَ الحياةِ الدُّنيا فعندَ اللهِ مغانمُ كثيرةٌ ... }[٣] .

وقوله عز من قائل :

{ وقــد نــزّلَ عــليكُم في الكتابِ أنْ إذا سمعتُم آياتِ اللهِ يُكفرُ بها ويُستهزأُ بها فلا تقعدوا معَهُم حتّى يخوضوا في حديثٍ غيرِه إنَّكم إذاً مثلُهم إنَّ اللهَ جامعُ المنافقينَ والكافرينَ في جهنَّم جميعاً }[٤] .

فــي كــل ما سبق يتبادر إلى الأذن نبرة الحزم والتأكيد ؛ فهي أمور عظــام لا مجال معها للتلطف أو الشك ، فناسب معها أداة الشرط (إذا) ؛ مراعاة لما اعتادت عليه الأذن العربية من كلامهم ودخلت الأداة على الفعل الماضي لما سبق ذكره .

وبالمقــابل نجــد (إن) تدل على الأمر غير المقطوع بوقوعه وإن وردت مع غيره فلمغزى بلاغي يدل عليه السياق ، تأمل قوله تعالى :

{ فإنْ خفتُم ألاّ تعدلوا فواحدةً أو ما ملكتْ أيمانُكم ...}[٥] .

---

١ ــ الآية (٦١) .

٢ ــ الآية (٨٦) .

٣ ــ جزء من الآية (٩٤) .

٤ــ جزء من الآية (١٤٠) .

٥ ــ جزء من الآية (٣) .

عبر سبحانه بأداة الشك حثاً على الورع[١] وقليل من الأمة من يخاف عدم العدل وإلاّ فالأكثر يقدمون على التعداد دون مبالاة بهذا الشرط الصعب بل تدفعهم إليه رغبات أخرى . ومما شاكله قوله تعالى :

{ فإن طبنَ لكُم عنْ شئٍ منْه نفساً فكلوهُ هنيئاً مريئاً... }[٢] .

وطيب النفس في هذا الأمر مما يندر وقوعه . ومنه قوله تعالى :

{ فإن أطعنَكُم فلا تبغوا عليهِنَّ سبيلاً ... }[٣] .

لأن الطاعــة الكاملة من الزوجة مظنة الشك لذا جعل الله بهذه الأداة تصــويراً دقيقاً لواقعهن ، لو استبدلت بــ (إذا) لكان أمر الطاعة صعب المســلك خصوصــاً وأن من شيم الخير في الرجل الترفق بأهله ، وأنه ما أكرمهن إلاّ كريم وما أهانهن إلاّ لئيم ، وهذا ما يؤكده آخر الآية .

ومثله في الاحتمالية كذلك وقوع الطلاق لذا قال تعالى :

{ وإنْ يتفرَّقا يُغنِ اللهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِه وكانَ اللهُ واسعاً عليماً }[٤] .

ومثله كثير في هذه السورة المباركة وفي القرآن بشكل عام .

وممـــا يؤكد معنى الاحتمالية والفرض في (إن) استعمالها في آيات المواريــث حيــث تُفرض الحالة ولا يُجزم بوقوعها لأنها مثال يُقاس عليه الواقع وليست حكاية عن واقعة بعينها ، ومن ذلك قوله تعالى :

{ فإنْ كُنّ نساءً فوقَ اثنتينِ فلهُنَّ ثُلثا ما تركَ وإنْ كانَتْ واحدةً فلها النصــفُ ولأبويه لكلِّ واحدٍ منهما السُدُس مما تركَ إنْ كانَ له ولدٌ فإنْ لمْ يكــنْ لــه ولــدٌ وورثَهُ أبواهُ فلأمِّه الثُّلثُ فإنْ كانَ لهُ اخوةٌ فلأمِّهِ السُدُسُ ... }[٥] .

وكذا قوله تعالى :

---

١ ــ انظر(نظم الدرر) للإمام البقاعي ، ج٥ ، ص١٧٩ .

٢ ــ جزء من الآية (٤) .

٣ ــ جزء من الآية (٣٤) .

٤ــ الآية (١٣٠) .

٥ ــ جزء من الآية (١١) .

{ ولكـــم نصـــفُ ما تركَ أزواجُكم إن لم يكُنْ لهن ولدٌ فإنْ كانَ لهنَّ ولـــدٌ فلكم الربعُ مما تركْنَ من بعدِ وصيةٍ يُوصينَ بها أو دينٍ ولهنَّ الربعُ ممـــا تركتم إن لم يكنْ لكم ولدٌ فإن كانَ لكم ولدٌ فلهن الثمنُ مما تركتم من بعد وصيةٍ توصونَ بها أو دينٍ وإن كانَ رجلٌ يُورثُ كلالةً أو امرأةٌ وله أخٌ أو أختٌ فلكلٍّ واحدٍ منهما السدسُ فإن كانوا أكثرَ من ذلكَ فهم شركاءُ في الثلثِ ...} [١] .

كلها كما ترى حالات يُفترض وقوعها ولذا ناسب معها (إن) لتؤكد بلاغـــة القـــرآن العظيم ، ودقته المتناهية في كافة الأمور وأنه نزل بلسان عربي مبين .

وقـــد تســـتعمل (إن) فـــي مقام القطع بوقوع الشرط – وهو مقام (إذا) – لنكـــتة وهدف بلاغي[٢] لا يصعب على متأمل تصيده ، من مثل قوله تعالى :

{ واللاتي يأتينَ الفاحشةَ من نسائِكم فاستشهدوا عليهنَّ أربعةً منكم فإن شهدوا فأمسكوهنَّ في البيوتِ حتى يتوفاهنَّ الموتُ أو يجعلَ اللهُ لهنَّ سبيلاً }[٣] .

والشاهد : { فإن شهدوا فأمسكوهن } وردت (إن) بدل (إذا) لأن المقام مقام تشريع واليقين مطلوب لما يترتب عليه من الحد الشرعي ، لكن الداعي لمثل هذا الخروج في استعمال (إن) ندرة توفر هذه الشهادة لما في الأمـــر مـــن خفـــاء يرجح الشك ، ومما يُقوي هذا الاحتمال مضاعفة عدد الأشـــهاد إلى حد الأربعة مع أن الشهادة عادةً تقبل باثنين عدول وحسب ، وفيه لطف من الرحمن الرحيم بعباده فهو حليم ستّار حتى مع العصاة رجاء

---

١ ـــ جزء من الآية (١٢) .

٢ ـــ كالـــتجاهل لاســـتدعاء المقـــام إيّاه ، وكعدم جزم المخاطب ، أو تنزيله منزلة الجاهل لمخالفته مقتضى العلم ، وكالتوبيخ على الشرط ، وكتغليب غير المتصف بالشرط على المتصف به .

راجع (شروح التلخيص) ، ج٢ ، ص٤٣ ، وما بعدها .

٣ ـــ الآية (١٥) .

التوبة والإنابة إليه سبحانه ، ولذا أردفت الآية بقوله سبحانه : { فإن تابا وأصلحا فأعرِضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيماً }[١] .

وتأتي (إن) بدل (إذا) للتبكيت و الزجر و الندرة و الاستغراب ومنه قوله تعالى :

{ وإن أردتم استبدالَ زوجٍ مكانَ زوجٍ و آتيتم إحداهنَّ قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونَه بهتاناً وإثماً مبيناً }[٢]

وهذا زجر للأزواج وفيه منّة عظيمة على الزوجات المؤمنات حيث إن البائسة خسرت الزوج وهي مصيبة لا يقدر قدرها إلاّ المطلع على ما في الصدور ، فكيف لو حرمت كذلك المال وتعرضت للحاجة والعوز ؟

لا شك أن في مثل هذا منهجاً تربوياً يعالج من طرف خفي حتى يترفع عنه من كان يراعي الله في العشرة . وقد زاد الأسلوب غرابة دخول (إن) على الماضي .

ومما جاء على شاكلته مع اختلاف الهدف قوله تعالى :

{ إن تجتنبوا كبائرَ ما تُنهونَ عنه نكفرْ عنكم سيئاتِكُمْ وندخلْكُمْ مُدخلاً كريماً }[٣] .

مع أن الحكم مقطوع بوقوعه لا محالة وهذا يقتضي وجود (إذا) إلاّ أنَّ (إنْ) تدل على أن هذا الاجتناب مطلب عزيز ونادر ولا يتأتى إلاّ بمجاهدة النفس والصبر عليها ؛ ولذا كان الجزاء عليه عظيماً .

وقد تستعمل (إذا) مكان (إن) إذا أردت أن تصور الكلام مشكوكاً في حصوله ، غير متيقن منه ، وكأنه محقق الوقوع وهو قليل نادر[٤] . ولكن لم أحظ بهذا اللون في هذه السورة المباركة " النساء " .

---

١ ــ الآية (١٦) .

٢ ــ الآية (٢٠) .

٣ ــ الآية (٣١) .

٤ ــ انظر (البلاغة فنونها وأفنانها) د . فضل حسن عباس ، ص ٣٤٣ .

ثانياً : (لو) :

وهـــي تفيد تعليق حصول مضمون الجزاء بحصول مضمون الشرط مـــع القطع بانتفائهما في الزمن الماضي ؛ ولذا قيل عنها إنها حرف امتناع لامتـــناع ونادراً ما تدخل على المضارع وتكون لهدف استمرار الفعل وقتاً بعد وقت[١] .

ومن أمثلتها في سورة النساء قوله تعالى :

{ وليخـــشَ الذيـــنَ لـــو تركوا من خلفِهم ذريةً ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا اللهَ وليقولوا قولاً سديداً }[٢] .

قـــال الزمخشـــري : (معـــناه وليخش الذين صفتهم وحالهم أنهم لو شـــارفوا أن يتركوا خلفهم ذرية ضعافاً وذلك عند احتضارهم خافوا عليهم الضـــياع بعدهـــم لذهـــاب كافـــلهم وكاسيهم)[٣] . إذن الآية تصور حالة افتراضية بغرض (التخويف بالحالة التي لا يبقى معها مطمع في الحياة ولا في الذب عن الذرية الضعاف وهي الحالة التي وإن كانت من الدنيا إلاّ أنها لقـــربها من الآخرة ولصُوقها بالمفارقة صارت من حيزها ومعبراً عنها بما يُعبر به عن الحالة الكائنة بعد المفارقة من الترك)[٤] .

وســـر اخـــتيار (لـــو) في هذا السياق هو القطع بانتفاء الحدث[٥] والخـــوف على الذرية الضعاف وهذه حالة نفسية فطرية لا ينفك منها أحد ولهـــذا يكـــون معـــنى الانتفاء أقرب للواقع كما أن الآية تشير إلى أن ترك الذريـــة أغـــنياء يقـــلل حالة الضعف لأن اليتيم الغني أقوى بماله وإن كان ضعيفاً ، وإلاّ ، للزم حصول الجواب قبل الشرط وهذا محال .

---

١ ــ راجع (شروح التلخيص) ، ج٢ ، ص٦٨ ، وما بعدها أو ما شئت من كتب البلاغة .

٢ ــ الآية (٩) .

٣ ــ انظر (الكشّاف) ، ج١ ، ص٢٥٠ ، وكذا (التفسير الكبير) للفخر الرازي ، ج٩ ، ص١٩٨ .

٤ ــ انظر (الكافي الشافي) للإمام العسقلاني على الكشّاف ، ج١ ، ص٢٥٠ .

٥ ــ لأن مفادهـــا عدم تحقق جملتيها ، انظر (البلاغة فنونها وأفنانها) د. فضل حسن عباس ، ص ٣٥١ .

ومن أمثلته أيضاً قوله تعالى :

{ وما أرسلْنا من رسولٍ إلاّ ليطاعَ بإذنِ اللهِ ولو أنَّهم إذ ظلموا أنفسَهم جاءوكَ فاستغفروا اللهَ واستغفرَ لهم الرسولُ لوجدوا اللهَ تواباً رحيماً }[١] .

نزلت توبيخاً للمنافقين وتوعداً لهم بعدم المغفرة ، ولكنها جاءت بأسلوب الشرط ليكون ذلك بياناً لسبب غضب المولى عليهم وهو رحمن رحيم ، (فلو استقاموا حينئذٍ من غلوائهم لعلموا أن إرادتهم أن يتحاكموا إلى الكفار والكهنة جريمة يجب الاستغفار منها ولكنهم أصروا واستكبروا . وفي ذكر" لو " وجعل " لوجدوا الله تواباً رحيماً " جواباً لها إشارة إلى أنهم لما لم يفعلوا فقد حرِموا الغفران)[٢] فظلموا بذلك أنفسهم لأنهم أضاعوا على أنفسهم نعمة لا تقادر بقدر فاستغفار من سمي باسم الرسالة[٣] منّة لم يستحقوها لعظم جرمهم .

وما أشد بهاء (لو) في قوله تعالى :

{ أفلا يتدبرونَ القرآنَ ولو كانَ من عندِ غيرِ اللهِ لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً }[٤] .

(لو) هنا جعلت المحك الرئيس للتأمل في هذا الغرض الذي يفضي إلى حقيقة ناصعة البيان لا يختلف فيها اثنان ، فالشرط المقطوع بانتفائه هو كون هذا القرآن من مصدرٍ آخر غير الله سبحانه وتعالى ، فلو فرض هذا

---

١ ـ الآية (٦٤) .

٢ ـ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٥ ، ص١١٠ .

٣ ـ في الآية الكريمة التفات رائع من أسلوب الخطاب في قوله تعالى : { جاءوك } إلى الغائب في قوله : { واستغفر لهم الرسول } تفخيماً لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيماً لاستغفاره وتنبيهاً على أن شفاعته في حيّز القبول . انظر تفسير (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج١ ، ص٥٤٤ ، وكذا (روح المعاني) للألوسي ، م٢ ، ج٥ ، ص٧٠ .

٤ ـ الآية (٨٢) .

الشـــرط لكان الجواب وجود اختلاف كثير (في المعنى بالتناقض والتخلف عـــن الصـــدق في الإخبار بالمغيبات أو بعضها ، وفي النظم بالتفاوت في الإعجـــاز ، فإذا علموا أنه من عند الله بهذا الدليل القطعي)[١] الذي وصلوا إليـــه بأنفسهم بعد تأمل رُسِّخَ الإيمان في نفوسهم و (حفظوا سرائرهم كما يحفظون علانيتهم لأن الأمر بالطاعة مستوٍ فيه السر والعلن)[٢] ، والقصد مـــن هذا الشرط لفت الانتباه إلى أمر يفضي بهم إلى حقيقة مصدر القرآن الكـــريم أي (ألا يتدبرون انتفاء الاختلاف منه فيعلمون أنه من عند الله ... هـــذا استدلال وجيز وعجيب قصد منه قطع معذرتهم في استمرار كفرهم ، ووصـــف الاختلاف بالكثير في الطرف الممتنع وقوعه بمدلول (لو) ليعلم المـــتدبر أن انـــتفاء الاختلاف من أصله أكبر دليل على أنه من عند الله)[٣] فـــ(لو) ربطت هذين الأمرين لتدل على عدم تحقق وقوعهما وأن قرآننا منزه عنهما فهو كلام الله .

ومـــن أمثـــلة دخـــول (لـــو) على الفعل المضارع – وهو خلاف الأصل – بغرض الاستمرار قوله تعالى :

{ ودّوا لـــو تكفـــرونَ كمـــا كفروا فتكونونَ سواءً فلا تتخذوا منهم أوليـــاءَ حـــتى يهاجـــروا في سبيلِ الله فإن تولَّوا فخذوهم واقتلوهم حيثُ وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً }[٤] .

لقد ترجمت (لو) الحالة النفسية للكفار على مدى الزمان ، فأقصى ما يتمنونه ارتداد أمة الإسلام إلى الحضيض الذي يغوصون هم فيه ؛ فجملة

---

١ ـــ انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج٥ ، ص٣٤٠ .

٢ ـــ انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج٥ ، ص٣٤٠ .

٣ ـــ انظر (التحرير والتنوير) لابن عاشور ، ج٥ ، ص١٣٨.

٤ ـــ الآية (٨٩) .

الشـــرط " تكفرون " وجوابه " فتكونون "[١] ودخول (لو) على المضارع تصـــور محاولاتهم المستمرة حيّة شاخصة للعيان ، وفي اختيار (لو) دليل عـــلى أن أمنيـــتهم هـــذه ضـــربٌ من المستحيل فهيهات هيهات أن يتخلى المســـلمون عـــن دينهم ، فدونه ضرب الرقاب وفيه تبذل الأرواح والمهج رخيصة طائعة طلباً لما عند الكريم المنّان .

١ ــ لقد تردد في كثير من التفاسير رأي مخالف في (لو) حيث جوّزوا فيها وجهين ، أحدهما : أن تكـــون مصـــدرية وعـــندها لا تحتاج إلى جواب . والثاني : أن تكون على بابها ويكون فعل الشرط تكفـــرون ولكـــنهم تكـــلفوا في تقدير جوابه فقالوا : ودوا كفركم لو تكفرون كما كفروا لسرّوا بذلك. فجعـــلوا الجـــواب " لسرّوا " وبهذا التقدير تصبح الجملتان تحملان المعنى نفسه وهذا لا يتناسب مع بلاغة القرآن الكريم مع ما فيه من تكلف ،

وممن قال بهذا الرأي : الزمخشري ، ج١ ، ص٢٨٨ .

وكذا أبو حيّان ، ج٣ ، ص٣١٤.

وكذا الرازي ، ج١ ، ص٥٦٢.

وكذا البقاعي ، ج٥ ، ص٣٥٥ .

وكذا الألوسي م٢ ، ج٥ ، ص١٠٩ .

وكذا السمين الحلبي ج٢ ، ص٤٠٨ .

أما من سكت عنه : ابن عطية ، ج٢ ، ص٨٩ .

وابن كثير ج١ ، ص٥٣٤ .

والطاهر بن عاشور ، ج٥ ، ص١٥١ .

المطلب الثاني : النفي .

وهو من أعلى ضروب البلاغة ، كثير الفوائد ، عذب الموارد . وقد تكلم فيه أرباب علم الكلام وأرباب علم البيان[1] لما له من نكات بلاغية تتبع مـن تنوع أدواته وإن كان للنفي هذه المزية في سائر كلام البلغاء فما ظنك في كلام رب البلاغة وأربابها .

أولاً : (لا) :

وهـي أكثر أدوات النفي استعمالاً لصلاحيتها في نفي الاسم والفعل ونفـي الحدث بشكل عام ماضياً وحاضراً ومستقبلاً [2] وقد ترددت في هذه السورة ستاً وأربعين مرة ، منها هذه الآيات .

لنتأمل دقة اختيارها في قوله تعالى :

{ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً }[3] .

هـذا الجـزء ورد في آية طويلة وضعت القواعد الأصيلة في علم المواريـث ابـتدأها سبحانه فوضح فيها الحقوق ؛ ومن هنا أكد بهذه الجملة الاعتراضية أن العنصرين محبوبان وكذلك النفع منهما ، ولكن أيهما أقرب نفعـاً ؟ أمـر مجهـول لا يدريـه إلا العليم الحكيم ، إذن حق على البشر الاستسـلام لمـا قضـاه سبحانه فكان استخدام النفي لعلة التسليم ووجوب الالتزام ، والتأكيد على أن قضاء الله هو الأصلح .

وكان اختيار (لا) من بين أدوات النفي لتناسبها مع السياق في نفي الحكم ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ، وصلاحية دخولها على الفعل وانسجامها صـوتياً مـع حرف الميم قبلها وهو حرف مغلق وحرف التاء بعدها وهو

---

١ ــ انظر (الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان) المنسوب لابن القيم ، ص١٨٢ .

٢ ــ انظر (معجم الأدوات النحوية) للدكتور محمد التونجي ، ص٩٨ وما بعدها .

٣ ــ الآية رقم (١١) .

قــريب المخـــرج من الميم[١] فكانت وصلة تنفيس بينهما لانفتاحها وسهولة نطقها .

أما قوله تعالى :

{ ولا جــناحَ عليكُمْ إنْ كانَ بكُمْ أذىً مِنْ مطرٍ أو كنتُمْ مرضى أنْ تضعوا أسلحتَكُمْ وخذوا حِذركُمْ إنَّ اللهَ أعدَّ للكافرينَ عذاباً مهيناً }[٢] .

دخــلت (لا)على الاسم وعملت فيه عمل (إن) من حيث الحركة الإعرابية ، وإن كانت تناقضها من حيث المعنى ، فهي لتوكيد النفي كما أن (إن) لتوكيد الإثبات .

والجناح : هو الإثم[٣] أو الحرج[٤] ، ودخول النفي المباشر عليه وهو المســند إليــه في الجملة دلّ على نفي جنس الإثم قليله وكثيره وهذا رحمة واسعة من ربٍ رحيم خفف عنهم بوضع الأسلحة في حال الأعذار المذكورة في الآية .

ويتضح مقدار هذا التخفيف بمقارنة الآية بسابقتها في قوله تعالى :

{ وإذا ضربتُمْ في الأرضِ فليسَ عليكُمْ جناحٌ أنْ تقصروا منَ الصلاةِ إنْ خفتُمْ أنْ يفتنَكُمُ الذينَ كفروا إنَّ الكافرينَ كانوا لكُمْ عدواً مبيناً }[٥].

---

١ ــ حرف اللام من الحروف الذلقية التي تخرج من رأس اللسان مع ما فوق أصول الثنايا العليا .

وحرف التاء من الحروف النطعية التي تخرج من ظهر طرف اللسان وما يحاذيه من النطع الأعلى وهو الجلدة المغطية لأصول الثنايا العليا .

انظر (سر صناعة الإعراب) لابن جني ، ج١ ، ص١٤٥ .

وحرف الميم من الحروف الشفهية التي تخرج بانطباق الشفتين .

انظر (سر الصناعة) ج١ ، ص٤١٣ ، وج٢ ، ١٥١ .

٢ ــ الآية : (١٠٢) .

٣ ــ انظر تفسير البقاعي (نظم الدرر) ، ج٥ ، ص٣٧٨ .

٤ ــ انظر تفسير (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص١٣١ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٨٦ .

٥ ــ الآية (١٠١) .

فـالحكم المخفـف فيه قصر الصلاة في معمعة المعارك مع الحذر المنصـوص عليه في صلاة الخوف[١] ، أما الآية موضع الدراسة فالغرض مختلف لاختلاف الموقف ، والنفي فيه للجنس قاطبة بدخوله على الاسم .

ومـثله قولـه تعـالى : **{ فـإنْ لمْ تكونوا دخلْتُمْ بهِنَّ فلا جناحَ عليكُمْ }**[٢]. في عدم تحريم الربيبة التي لم يدخل بأمها .

وكـذا قولـه تعالى : **{ ولا جناحَ عليكُمْ فيما تراضيتُمْ بهِ منْ بعدِ الفريضةِ }**[٣] . وذلك في مهور النساء .

وجميعها نفت جنس الإثم قاطبة رحمة من الله .

ثانياً : (لم) :

وهي ثاني أداة في الأهمية بعد (لا) والسبب يعود إلى مرونتها من حيـث المعـنى مـع أنها تختص بالفعل المضارع لتحول معناه إلى الزمن الماضـي ، إلاّ أنها تنفي الحدث من الماضي إلى الحاضر مع إمكانية تغيره في الزمن الحاضر ، فيصح قولنا : لم يحضر المسؤول ثم حضر وذلك ما تفـتقده أداة النفي (لمّا) فالنفي بها يكون ساري المفعول من الماضي إلى الحاضـر ، (ولهذا جاز " لم يكن ثم كان " ولم يجز " لما يكن ثم كان " بل يقال " لما يكن وقد يكون ")[٤] .

وقد ترددت (لم) في سورة النساء أربعاً وعشرين مرة نقتطف منها الأمثلة الآتية متلمسين مواطن الإعجاز بحوله وقوته .قال عز من قائل :

---

١ ــ راجع في هذا أي تفسير على سبيل المثال :(نظم الدرر) للبقاعي ، ج٥ ، ص٣٧٨ وما بعدها. وكذا تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٧٦ وما بعدها . وكذا تفسير (روح المعاني) ، ج٢ ،ص١٣١ وما بعدها .

٢ ــ جزء من الآية (٢٣) .

٣ ــ جزء من الآية (٢٤) .

٤ ــ راجع في هذا (مغني اللبيب) لابن هشام ، ج١ ، ص٢٧٧ وما بعدها .

{ ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ...}[١] .

أداة النفي (لم) نفت الاستطاعة في الماضي مع احتمال وجودها في المستقبل[٢] ؛ ولهذا كان استعمالها فيه من الدقة البلاغية الشيء الكثير حتى (لمـــا) المشتركة معها في كثير من الأحكام لا تفي بما وفت به لأن النفي بـــ(لمـــا) لا ينقطع والسياق يعبر عن حالة مؤقتة يتوقع تغييرها عندما يوسّع[٣] الله على عبده فيتمكن من الاقتران بالمحصنات . ولهذا ختمت الآية بقوله تعالى : **{ فإن تصبروا خيرٌ لكم والله غفورٌ رحيم }** .

وقد جاء في هذا المعنى قوله تعالى :

{ إلاّ الذين يصلون إلى قومٍ بينكم وبينهم ميثاقٌ أو جاءوكم حصرت صـــدورهم أن يقاتـــلوكم أو يقاتـــلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتـــلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً }[٤] .

{ فـــلم يقاتـــلوكم } حكم يخص الماضي ويصل إلى الحال ؛ ولكنه قد يـــتغير مســـتقبلاً . والمهادنة معهم في حال سلمهم واجب ديني[٥] ، أما إذا ظهـــر مـــنهم خلاف ذلك ، عندها يكون قتالهم واجباً دينياً أيضاً بدليل الآية التي تليها :

---

١ ــ جزء من الآية (٢٥) .

٢ ــ انظر (مغني اللبيب) ، ج١ ، ص٢٧٩ .

٣ ــ قال ابن عطية : الطول هنا السعة من الحال . انظر (المحرر الوجيز) ، ج٢ ، ص٢٧ .

٤ ــ الآية (٩٠) .

٥ ــ إن هـــذا الحكـــم كان أول الإسلام قبل أن يستحكم أمر الطاعة من الناس ، ثم لمّا تقوّى الإسلام نسخت بما في سورة براءة . ذكر هذا ابن عطية في (المحرر الوجيز) ، ج٢ ، ص٨٩ .

وذكـــر الزمخشـــري وأبو السعود أن هذا كان أول الإسلام حيث عاهد النبي صلى الله عليه وسلم بعض القبائل على عدم الأذى والنصرة عليه .

انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٣٨٨ .

وكذا (إرشاد العقل السليم) ، ج١ ، ص٥٦٣ .

{ فــإن لــم يعــتزلوكم ويــلقوا إليكُمُ السَّلَمَ ويكفّوا أيديَهُمْ فخذوهمْ واقتلوهمْ حيثُ ثقفتُموهُمْ وأولئكُمْ جعلْنا لكمْ عليهِمْ سلطاناً مبيناً }[١] .

ومنه قوله تعالى :

{ فمنْ لم يجدْ فصيامُ شهرينِ متتابعينِ توبةً من اللهِ ... }[٢] .

وذلــك في القتل الخطأ فالنفي من الماضي إلى الحال ؛ ولكنه قد يتغير الحــال قــبل البدء في الكفارة فعندها يلزمه الحكم الأول وهو تحرير رقبة مؤمنة ، وإن عز هذا الأمر في زماننا .

وقــد تفيــد (لم) تأكيد النفي كقوله تعالى : **{ لم يلد ولم يولد }**[٣] ، وجاء منه في سورة النساء مواضع كثيرة منها قوله تعالى :

{ إن الذينَ آمنوا ثمَّ كفروا ثمَّ آمنوا ثمَّ كفروا ثمَّ ازدادوا كفراً لمْ يكنِ اللهُ ليغفرَ لهمْ ولا ليهديَهُمْ سبيلاً }[٤] .

فعبارة النفي تقتضي أن هؤلاء محتوم عليهم الكفر من أول أمرهم إلى آخره ، وذلك لترددهم بين الكفر والإيمان . فنفي المغفرة هنا أشد وآكد ؛ لأن كل من كفر كفراً واحداً ووافى عليه فقد قال الله تعالى فيهم إنه لا يغفر لهــم ، ولم يقل : لم يكن الله ليغفر لهم . فتأمل الفرق بين العبارتين فإنه من دقيق غرائب الفصاحة التي في كتاب الله تعالى ، كأن قوله : { لم يكن الله } حكم قد قرر عليهم في الدنيا وهم أحياء[٥] وهو ساري المفعول لم يتغير بعد ذلك .

ومما جاء على هذا النمط قوله تعالى :

---

١ ــ الآية (٩١) .

٢ ــ جزء من الآية (٩٢) .

٣ ــ الآية (٣) ، سورة الإخلاص .

٤ ــ الآية (١٣٧) .

٥ ــ انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج٢ ، ص١٢٥ .

{ والذيــنَ آمنوا باللهِ ورسلهِ ولم يفرقوا بينَ أحدٍ منهمْ أولئكَ سوفَ يؤتيهِمْ أجورَهُمْ وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً }(١) .

ثالثاً : (ليس) :

كلمة دالة على نفي الحال وتنفي غيره بقرينة ، وهي فعل ناقص في أرجــح الأقوال(٢) . وقد وردت أربع مرات فقط في هذه السورة المباركة .
أولها قوله تعالى :

{ وليسَــتِ الــتوبةُ لــلذينَ يعملونَ السيئاتِ حتى إذا حضرَ أحدَهُمُ المــوتُ قــالَ إنِّي تُبْتُ الآنَ ولا الذينَ يموتونَ وهُمْ كفارٌ أولئكَ أعتدنا لهم عذاباً أليماً }(٣) .

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن : ما مناسبة هذه الأداة للسياق ؟ وهل يغــني عنها استبدالها بأداة أخرى مثل : لا توبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال ... ، أو أيّة أداة أخرى من أدوات النفي ؟

لقــد نفــت هــذه الآيـــة أن يكــون تائباً من لم يتب إلا مع حضور المــوت(٤) ، وهذا المعنى استُشِفَّ من معنى (ليس) التي ينفى بها الحال ، فقــد قُــرر بها حكم شرعي هو : من كانت توبته حال تلبسه بالموت فهي باطــلة ، أمــا أمــره إن كان مؤمناً عاصياً فإلى الله(٥) ، أما إن كان كافراً فمصــيره إلى الجحيــم . أعاذنا الله جميعاً منها . وهذا المعنى لا يتأتى إلا بحضور (ليس) دون غيرها من أدوات النفي .

ومنه قوله تعالى :

---

١ ــ الآية (١٥٢) .
٢ ــ انظر (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) لابن هشام ، ج١ ، ص٢٩٣ .
٣ ــ الآية (١٨) .
٤ ــ انظر (المحرر الوجيز) ، ج٢ ، ص٢٥ .
٥ ــ انظر المرجع السابق .

{ يــا أيهــا الذينَ آمنوا إذا ضربتُم في سبيلِ اللهِ فتبيّنوا ولا تقولوا لمَنْ ألقى إليكمُ السلامَ لستَ مؤمناً تبتغونَ عرَضَ الحياةِ الدُّنيا ... }[١] .

فقــد نفوا بــ (ليس) حال إيمانه عند إلقائه تحية الإسلام ، فعاتبهم الله ســبحانه ونهاهم عن ذلك وطلب منهم أن يقبلوا منه ما أظهره ويعاملونه بموجبه[٢] .

ومنه قوله تعالى :

{ وإذا ضربتُم في الأرض فليس عليكم جناحٌ أنْ تقصُروا من الصلاةِ إنْ خفتُمْ أنْ يفتنَكُمُ الذينَ كفروا إنَّ الكافرينَ كانوا لكم عدواً مبيناً }[٣] .

وكذا قوله تعالى :

{ ليــسَ بأمانيِّكُمْ ولا أمانيِّ أهلِ الكتابِ منْ يعملْ سوءً يُجزَ بهِ ولا يجدْ له من دونِ اللهِ ولياً ولا نصيراً }[٤] .

جميع هذه المواضع دلت فيها (ليس) على نفي الحال إلا الأخيرة ، فالنفي فيها يمتد إلى الاستقبال وذلك يقيِّدُ الشرط الذي جاء بعده .

رابعاً : (لن) :

اتفــق المشــتغلون بالنحو والبلاغة والتفسير على أن (لن) حرف نصب ونفي واستقبال[٥] ولكنهم اختلفوا في الغرض البلاغي المستخلص من النفي بها دون غيرها . فقال سيبويه إنها تنفي المضارع من غير أن يشترط أن يكــون الــنفي بها آكد من النفي بــ (لا) . وذهب الزمخشري إلى أن (لــن) لتأكيد ما تعطيه (لا) من نفي المستقبل ، كما ينسب إليه أنها تفيد تــأبيد الــنفي ، وردّ عليه بأنها لو كانت للتأبيد لم يقيد نفيها باليوم في قوله

---

١ ــ الآية (٩٤) .

٢ ــ انظر تفسير (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص١١٨ .

٣ ــ الآية (١٠١) .

٤ ــ الآية (١٢٣) .

٥ ــ انظر (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) لابن هشام ، ج١ ، ص٢٨٤ .

تعالى : { فلن أكلم اليومَ إنسياً } ، ولم يصح التوقيت في قوله تعالى :{ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى } . وأغرب الزملكاني فقال : إن (لن) تنفي ما قرب ولا يمتد معنى النفي فيها . ورده عليه أبو حيان[١].

ولكن عند تأمل مواضعها الأربعة التي وردت في سورة النساء وجدت أنها جميعاً تعطي معنى تأكيد النفي في الحال والاستقبال أي : معنى تأبيد النفي . اسمع قوله تعالى :

{ ولنْ تستطيعوا أنْ تعدلوا بينَ النساءِ ولو حرصتُمْ فلا تميلوا كلَّ الميلِ فتذروها كالمعلقةِ وإنْ تصلحوا وتتقوا فإنَّ اللهَ كانَ غفوراً رحيماً }[٢] .

فقد أكدت (لن) نفي استطاعة العدل على الدوام وإن كان توخي الحرص والمقاربة مطلوباً . ويؤكد هذا ذيل الآية الكريمة ، كما يؤكده حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها – قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : " اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك "[٣] .

ونجد نفس الصورة في قوله تعالى :

{ ولنْ يجعلَ اللهُ للكافرينَ على المؤمنينَ سبيلاً }[٤] .

فقد أكد المولى نصر المؤمنين على الكافرين في كل زمان ومكان وحتى تقوم الساعة . وما تلاحظه اليوم من غلبة الكافرين على المؤمنين فمرده ضعف الإيمان أو انعدامه في بعض الأحيان فيمن ينتسبون إلى الإسلام .

---

١ ــ انظر (همع الهوامع شرح جمع الجوامع) للسيوطي ، ج٢ ، ص٤ .
والآيات جزء من الآية (٢٦) ، سورة مريم . والآية (٩١) ، سورة طه . على التوالي .
٢ ــ الآية (١٢٩) .
٣ ــ انظر تفسير ابن كثير ، ج١ ، ص٥٦٥ .
٤ ــ جزء من الآية (١٤١) .

وكذا يظهر تأبيد النفي الدائم في قوله تعالى :

{ ومَنْ يضللِ اللهُ فلنْ تجدَ لهُ سبيلاً }[١]

ويتأكد الرأي أكثر بقوله تعالى :

{ لن يستنكفَ المسيحُ أنْ يكونَ عبداً للهِ ولا الملائكةُ المقربونَ ومنْ يستنكفْ عن عبادتِهِ ويستكبرْ فسيحشرُهمْ إليه جميعاً }[٢] .

فهل ترى في هذه المواضع إلا تأكيد النفي في الحاضر والمستقبل ، أي تـــأبيد النفي على الدوام ؛ ولكن تبقى حجة المعارضين[٣] ظاهرة لوجود ما يؤيدها في كتاب الله .

وللتوفيق بين الرأيين نقول : إن (لن) تكون في الأعم الأغلب لنفي الحال والاستقبال ، وتأتي أحياناً لتأبيد النفي بمساعدة المقام . ويؤكد هذا ما جاء في هذه السورة المباركة . والله أعلم وأحكم .

---

١ ـــ جزء من الآية (١٤٣) .

٢ ـــ الآية (١٧٢) .

٣ ـــ لما قاله الزمخشري في أن (لن) لتأكيد نفي الحال والاستقبال دون تأبيد النفي . انظر (همع الهوامع) للسيوطي ، ج٢ ، ص٤ .

المطلب الثالث : العطف .

أولاً : حرف (الواو) :

أشهر حروف العطف دوراناً في النصوص العربية الفصيحة وعلى رأسها القرآن الكريم ، ومن المتعارف عليه أن العطف بالواو يفيد التشريك فـي الحكم[١] ؛ ولذا لا يتوخى معه الترتيب مثل الفاء وثم ، مع ما فيه من خصوصـيات أخرى تُثري المعنى البلاغي ستكشف عن نفسها في مواطن التحليل بإذن الله تعالى . تأمل قوله تعالى :

{ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثُلاث ورُباع فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدةً أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألاّ تعولوا }[٢] .

واختيار العطف بحرف الواو دون (أو) لغرض بلاغي دقيق شرحه الزمخشـري ــ رحمه الله ــ قائلاً : فإن قلت : فلم جاء العطف بالواو دون (أو) قـلت : كمـا جاء بالواو في المثال الذي حذوته لك ولو ذهبت تقول اقتسموا هذا المال درهمين أو ثلاثة ثلاثةً أو أربعة أربعةً علمت أنه لا يسـوغ لهـم أن يقتسموه إلاّ على أحد أنواع هذه القسمة ، وليس لهم أن يجمعـوا بينهما فيجعلوا بعض القسم على تثنية وبعضه على تثليث وبعضه عـلى تربيع . وأذهبَ معنى تجويز الجمع بين أنواع القسمة الذي دلت عليه الواو ، وتحريره أنّ الواو على إطلاق أن يأخذ الناكحون من أرادوا نكاحها مـن النسـاء على طريق الجمع إن شاءوا متفقين فيها ، محظوراً عليهم ما وراء ذلك[٣] .

---

١ ــ يقول السيوطي : وهي لمطلق الجمع أي من غير تقييد بحصول الحدث من الشريكين في زمان أو سبق أحدهما .

انظر (همع الهوامع) ، ج٢ ، ص١٢٨ .

٢ ــ جزء من الآية (٣) .

٣ ــ انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٤٥ .

فأثبت الزمخشري أن الواو هنا أصّلت حكماً شرعياً لا يثبت إلاّ بها ، وهو جواز الجمع بين أنواع القسمة في مجتمع المخاطبين كلٌ حسب رغبته إلى الحد المباح لهم . ولو قيل (أو) للزم نوع واحد من الجمع لو اختاره رجلٌ من القوم لزم الجميع في ذلك العصر وانسحب الحكم على بقية العصور لأن (أو) تفيد التخيير في الحكم بخلاف (الواو) التي تفيد التشريك فيه .

ومما جاء فيه حرف (الواو) مصوراً الأحداث أصدق صورة قوله تعالى :

{ ستجدونَ آخرينَ يريدونَ أنْ يأمنوكُمْ ويأمنوا قومَهُمْ كلَّما رُدُّوا إلى الفتنةِ أُركِسوا فيها فإنْ لمْ يعتزلوكُمْ ويلقوا إليكُمُ السَّلَمَ ويكفُّوا أيديَهُمْ فخذوهُمْ واقتلوهُمْ حيثُ ثقفتموهُمْ وأولئكُمْ جعلْنا لكُمْ عليهِمْ سلطاناً مبيناً }[1] .

في هذه الآية الكريمة تردد حرف (الواو) مرات عديدة ، فما سرّ ذلك ؟ إننا نجده في عطف الجمل الواقعة شرطاً كما نجده في عطف الجمل الواقعة جواباً ففي قوله تعالى : { فإن لم يعتزلوكم } الاعتزال ليس وحده المطلوب لتحقيق الأمن بل ربما اعتزلوكم ولكن ما زال أذاهم يلاحقكم بطريقة أو بأخرى . إذن لابد أن يشرك مع الشرط ما يحقق الأمن التام فجاء العطف بالواو في { ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم } . وهي ألفاظ متقاربة معناً و زمناً[2] ولكن لكل منها خصوصية في الكشف عن الموقف بدقة متناهية .

١ــ الآية (٩١) .

٢ ــ انظر (مغني اللبيب) ، ج٢ ، ص٣٥٥ .

وقال : ويجوز أن يكون بين متعاطفيها تقارب أو تراخٍ ويقصد المهلة الزمنية .

وكذا (همع الهوامع) ، ج٢ ، ص١٢٨ .

ثــم لماذا العطف بــ(الواو) دون غيرها ؟ والسر أنه يفيد التشريك في الحكم دون ترتيب أو مهلة ؛ وهذا ما يحتاجه الموقف الحازم هنا ، أمور ينبغي أن تأتي متلازمة في الشرط وفي الجزاء ثم يتم المعنى بقوله تعالى : { وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً }.

ثانياً : (الفاء)[١] :

وهــي من الكثرة بمكان وفائدتها التشريك مع الترتيب والتعقيب دون مهــلة وقد ترددت عشرات المرات في سورة النساء وأختار من ذلك قوله تعالى :

{ يا أيُّها الذينَ آمنوا لا تقربوا الصلاةَ وأنتُمْ سكارى حتّى تعلموا ما تقولــونَ ولا جُنُباً إلا عابري سبيلٍ حتّى تغتسلوا وإنْ كنتُمْ مرضى أو على سفرٍ أو جاءَ أحدٌ منكُمْ منَ الغائط أو لامستُمُ النساءَ فلمْ تجدوا ماءً فتيمَّموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهِكُمْ وأيديكُمْ إنَّ اللهَ كانَ عفواً غفوراً }[٢] .

---

١ ــ قال ابن هشام : ترد على ثلاثة أوجه ، أحدها أن تكون عاطفة ، وتفيد ثلاثة أمور :

أحدها : الترتيب ، وهو نوعان : معنوي كما في (قام زيد فعمرو) وذكري ، وهو عطف مفصل على مجمل ، نحو قوله تعالى : **{ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه }** (البقرة / ٣٦) الأمر الثاني : التعقيب ، وهو في كل شيء تحسبه . ألا ترى أنه يقال : تزوج فلان فولد له ، إذا لــم يكــن بيــنهما إلاّ مدة الحمل ، وإن كانت متطاولة . الأمر الثالث : السببية ، وذلك غالب في العاطفة جملة أو صفة .

فالأول نحو قوله تعالى : **{ فوكزه موسى فقضى عليه }** .

الثاني نحو قوله تعالى : **{ لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم }** .

انظر (مغني اللبيب) ، ج١ ، ص٦١ وما بعدها .

وكذا في كتاب (معاني الحروف) للرماني ، تحقيق عبد الفتاح شلبي ، ص٤٣ .

وكذا في (همع الهوامع) للسيوطي ، ج١ ، ص١٣٠ وما بعدها .

٢ ــ الآية (٤٣) .

الفاء العاطفة في قوله تعالى : { فلم تجدوا ماءً } إما بفقده أو العجز عن استعماله[١] . وقد (عطف ما بعدها على الشرط " إن كنتم " ، وقال أبو البقاء : على " جاء " لأنه جعل " جاء " عطفاً على " كنتم " فهو شرط عنده)[٢] . والسبب الحقيقي لجواز التيمم انعدام الماء مع تحقيق ما يوجب استعماله[٣] فأوردت (الفاء) الترتيب مع التعقيب وأيضاً حملت معنى السببية .

ومما جاء فيه هذا الحرف دالاً على السببية قوله تعالى :

{ أفلا يتدبرونَ القرآنَ ولوْ كانَ منْ عندِ غيرِ اللهِ لوجدوا فيهِ اختلافاً كثيراً }[٤] .

هذه (الفاء) التي أتت في سياق الاستفهام الإنكاري عطفت الآية بما فيها من معانٍ عظيمة[٥] على الآية السابقة[٦] ، وربطت بينهما برباط متين[٧] ، حيث أن الأولى تتحدث عن المنافقين وتكشف خباياهم وما يختلج

---

١ ـ انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج٥ ، ص٢٨٧ .

٢ ـ انظر (الدر المصون) للسمين الحلبي ، ج٢ ، ص٣٧٠ .

وكذا (التبيان في إعراب القرآن) للعكبري ، ج١ ، ص٣٦١ . أي المعطوف على الشرط شرط آخر واستقامة المعنى يؤيد رأيه .

٣ ـ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٢٥ .

وكذا (روح المعاني) للألوسي ، م٢ ، ج٥ ، ص٤٢ .

٤ ـ الآية (٨٢) .

٥ ـ توجب التأمل في القرآن وتؤكد صلته بالله سبحانه وتنوه بإعجازه وبصدق مبلغه وصحة نبوته صلى الله عليه وسلم وتوجب تدبره والعمل بما فيه .

٦ ـ قوله تعالى : { ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول والله **يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً }**(النساء / ٨١) .

٧ ـ ذكر المفسرون أن (الفاء) للعطف على مقدر أي : يعرضون عن القرآن فلا يتدبرون فيه ليعلموا كونه من عند الله بمشاهدة ما فيه من شواهد هذا الوحي الصادق ، والنص ناطق بنفاقهم المحكي على ما هو عليه .

انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ،ج١ ، ص٥٥٦ .

فـــي نفوسهم المريضة ، فأرشدهم الله عز وجل إلى الدواء الشافي ألا وهو تدبر القرآن وكفا به شافياً .

كمـــا نجد للألوسي رأياً حصيفاً في هذا العطف يقول : (لعله جواب ســؤال نشأ من جعل الله تعالى شهيداً ، كأنه قيل : شهادة الله تعالى لا شبهة فيهـــا ولكن من أين يعلم أن ما ذكرته شهادة الله تعالى محكية عنه ؟ فأجاب ســبحانه بقولـــه : { أفلا يتدبرون القرآن })[١] وفي هذا الرأي أيضاً نجد (الفاء) توضح السببية .

ومنه قوله تعالى :

{ يا أيُّها الناسُ قدْ جاءكُمُ الرسولُ بالحقِّ مِنْ ربِّكُمْ فآمنوا خيراً لكُمْ وإنْ تكفروا فإنَّ للهِ ما في السمواتِ والأرضِ وكانَ اللهُ عليماً حكيماً }[٢] .

ســبحان مـــن له العظمة الكاملة ، لم يطلب منهم الإيمان بما جاء به نـــبي الهدى – صلى الله عليه وسلم – إلاّ بعد أن أكّد لهم أنه الحق الذي لا مـــراء فيـــه ، وأنـــه من المحسن عليكم بربوبيته ، وأن الحامل له الرسول المعهود[٣] لديكم بصدقه وأمانته ، وهذا سبب كافٍ لأن تؤمنوا[٤] .

ثالثاً : (ثم) :

وهي تتوسط بين الواو والفاء لأنها تفيد التشريك في الحكم مثل الواو وتفيد الترتيب وهذا ما تفيده الفاء[٥] ، وتزيد عنهما بالمهلة .

---

١ ــ انظر (روح المعاني) للألوسي ، م٢ ، ج٥ ، ص٩٢ .

٢ ــ الآية (١٧٠) .

٣ ــ لأن الألف اللام في (الرسول) للعهد الذهني .

٤ ــ قال أبو السعود : (فآمنوا) للدلالة على إيجاب ما قبلها لما بعدها ، ج١ ،ص٦١١.

وكذا الألوسي ، م٢ ، ج٥ ،ص٢٣ .

وكذا البقاعي ، ج٥ ، ص٥١٧ .

٥ ــ فضلاً انظر (مغني اللبيب) لابن هشام ، ج١ ، ص١١٧ .

وكذا (همع الهوامع) للسيوطي، ج٢ ،ص١٣١ .

وفي المجال التطبيقي على القرآن الكريم نجد الزمخشري في تفسيره قد استوحى لـــ(ثم) أصلين يرجعها إليهما غالباً . الأول : الاستبعاد وذلك إذا كـــان مـــا بعد (ثم) أمراً مستبعد الوقوع بالنسبة لما قبلها ، أو بعبارة أخـــرى إذا كان ما قبل (ثم) من الأحداث والأفعال مهيئاً لعدم حصول ما بعدهـــا . والثاني : بيان البعد بين الأمرين ، إذ المراد أن الأمرين من جنس واحد لكن ما بعد (ثم)أعلى مرتبة في هذا الجنس وأبلغ مما قبلها[١] ، مثل قوله تعالى :

{ خلقَكُمْ مِنْ نفسٍ واحدةٍ ثمَّ جعلَ منْها زوجَهَا }[٢] .

وفـــي ذلـــك نظر ، حيث إن ابتداع خلق آدم عليه السلام دون نظير سابق ، ومن طين ، آية هي أعظم الآيات ، فإنشاء الشيء من عدم أبدع من إنشائه على نظير .

والاستبعاد مثل قوله تعالى :

{ ومَنْ أظلمُ ممَّنْ ذُكِّرَ بآياتِ ربِّهِ ثمَّ أعرضَ عنْهَا }[٣] .

والآية توضح أن لا أحد أشد ظلماً ممن أعرض عن الهداية واستحب العمى على الهدى[٤] بعد أن يسّر الله له أسباب تَذَكّر العاقبة ، ولكنه بدل أن يرتدع انهمل في الشهوات انهمالاً ألهاه عن تذكرها ، وكان مع إتاحة فرصة التذكر خليقاً به أن يرتدع ؛ ولذا استبعد منه هذا الأمر .

وهذا الأمر الذي أشار إليه الزمخشري يدل على حِسّه البلاغي الدقيق كمـــا يدل على أن أداة العطف (ثم) لم تقتصر على التشريك مع الترتيب والتراخي بل تتعداه إلى نواح بلاغية أخرى .

ومما يوضح الأغراض البلاغية للعطف بـــ (ثم) قوله تعالى :

---

١ ــ انظـــر (الـــبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري) تأليف الدكتور محمد أبي موسى ، ص٢٩٠ وما بعدها .

٢ ــ سورة الزمر ، جزء من الآية (٦)

٣ ــ سورة السجدة ، جزء من الآية (٢٢) .

٤ ــ انظر تفسير (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج٧ ، ص٢٠٢ .

{ إنَّمــا التوبةُ على اللهِ للذينَ يعملونَ السوءَ بجهالةٍ ثمَّ يتوبونَ مِنْ قريبٍ فأولئكَ يتوبُ اللهُ عليهِمْ وكانَ اللهُ عليماً حكيماً }[١] .

تتحدث الآية عن أناس يعملون السوء بجهالة ، والجهالة : عدم العلم أو عــدم الرشــد ، إذن لم تتعمد قلوبهم هذا السوء بدليل قوله تعالى : { ثم يتوبون من قريب } .

واخــتيار حــرف العطف (ثم) فيه الكثير من الدقة الواقعية ؛ لأنه أعــطى معــنى الــتراخي في زمن عمل السوء والتوبة ، وحتى لا تتشعب الأذهــان فــي مدى هذه المهلة تسعفنا الآية لتحدد هذه المهلة الزمنية بقوله تعالى : { من قريب } . هذا بعينه ما وصفه الزمخشري بأنه بيان البعد بين الأمرين وما بعد (ثم) أعلى مرتبة مما قبلها[٢] .

وقال عزمن قائل :

{ فكيــفَ إذا أصابتْهُمْ مصيبةٌ بما قدَّمَتْ أيديهِمْ ثمَّ جاءوكَ يحلفونَ باللهِ إنْ أردْنا إلاّ إحساناً وتوفيقاً }[٣] .

حــرف العطــف (ثم) حقق معنى التشريك في الحكم في هذه الآية الكــريمة الــتي بدأت باسم الاستفهام " كيف " المستعمل في التهويل ، وهو مشــروع فــي بيان غائلة جناياتهم ، أي : كيف يكون حالهم (إذا أصابتهم مصيبة) بافتضاحهم بظهور نفاقهم بسبب ما عملوه من جنايات من جملتها التحاكم إلى الطاغوت والإعراض عن حكمك ، (ثم جاءوك) للاعتذار عما صــنعوا مــن القــبائح ، وهو عطف على إصابتهم . والمراد تفظيع حالهم وتهويــل ما دهمهم من خطب واعتراهم من شدة الأمر عند إصابة المصيبة

---

١ ــ الآية (١٧) .

٢ ــ انظر (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري) للدكتور أبي موسى ، ص٢٩٠ .

٣ ــ الآية (٦٢) .

وعـــند المجيء للاعتذار[١] ، والاعتذار أشد على النفس من المصيبة ، فهي إذن حكاية عنهم ، وقد وجهها ابن عاشور إلى الوعيد مستقبلاً .

قـــال : (وهذا وعيد لهم لأن " إذا " للمستقبل ، فالفعلان بعدها وهما (أصابتهم) و (جاءوك) مستقبلان ، وهو مثل قوله تعالى : **{ لئنْ لم ينتَهْ المـــنافقونَ والذينَ في قلوبِهِمْ مرضٌ والمرجفونَ في المدينة لنغرينَّكَ بهِمْ ثـــمَّ لا يجـــاورونَكَ فيهـــا إلاّ قـــليلاً * ملعونينَ أينَما ثُقفوا أُخِذوا وقُتِّلوا تقتيلاً }**)[٢] .

ومنه قوله تعالى :

{ فـــلا وربِّكَ لا يؤمنونَ حتّى يحكِّموكَ فيما شجرَ بينَهُمْ ثمَّ لا يجدوا في أنفسِهِمْ حرجاً ممَّا قضيتَ ويسلِّموا تسليماً }[٣] .

بـــدأت الآية الكريمة بنفي أصل إيمان المنافقين ، وهذا ما أفاده تقديم حرف النفي (لا) ثم إتباعه بالقسم وجوابه .

قال ابن عطية : (إنما قدّم (لا) على القسم اهتماماً بالنفي وإظهاراً لقوته)[٤] . فالمقصود تعليق إيمانهم على تحكيمهم رسول الله صلى الله عليه وســـلم فـــي مشـــاجرتهم واستسلامهم التام في قبول حكمه عن طيب نفس ورضـــاهم هذا أعلى وأعظم منزلة من التحكيم نفسه وهذا ما يؤكده البقاعي بقولـــه : (ولمـــا كان الإذعان للحكم بما يخالف الهوى في غاية الشدة على الـــنفس أشـــار إليه بأداة التراخي)[٥] . المعبرة عن أن ما بعدها أعلى مما قبلها لأن ما بعدها هنا هو مخالفة الهوى والإذعان بما يطابق رغبة النفس .

---

١ ــ انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج١ ، ص٥٤٣ .

٢ ــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٥ ، ص١٠٧ .
والآيتان (٦٠ ، ٦١) من سورة الأحزاب .

٣ ــ الآية (٦٥) .

٤ ــ انظر (المحرر الوجيز) ، ج٢ ، ص٧٤ .

٥ ــ انظر (نظم الدرر) ، ج٥ ، ص٣١٦ .

ومنه قوله تعالى :

{ ومَـنْ يهاجرْ في سبيلِ اللهِ يجدْ في الأرضِ مُراغماً كثيراً وسَعَةً ومَـنْ يخرجْ مِنْ بيتِه مهاجراً إلى اللهِ ورسولِه ثمَّ يدركْهُ الموتُ فقدْ وقعَ أجرُهُ على اللهِ وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً }[١] .

فـي هذه الآية الكريمة لم يعلق الحكم بالهجرة على الانفراد ، بل بها مقـروناً إليها أن يدركه الموت عليها[٢] فصار الموت هنا كالهدية للمهاجر لأنـه سـبب الوصـول إلى النعيم المقيم الذي لا يُنال إلاّ بالموت ، وجيء بـ (ثم) بدل الواو تتميماً لهذه الدقيقة وإن كانت مرتبة الخروج دون هذه المرتبة[٣] .

ومنه في هذه السورة قوله تعالى :

{ ومَنْ يكسِبْ خطيئةً أو إثماً ثمَّ يرمِ بهِ بريئاً فقدْ احتملَ بُهتاناً وإثماً مبيناً }[٤] .

ولا يخـفى أن رمي البريء بما كسب الجاني من خطيئة أعظم إثماً مـن اقـترافها وثمّة معنى دقيق نوّه به الجرجاني[٥] وهو أن حرف العطف (ثـم) دمج الجملتين بحيث أصبح الشرط من مجموعهما معا بدليل إفراد الجزاء فيهما وهذا معنى دقيق لأدوات العطف ينبغي التنبه له .

ثـم تأتي (ثم) لمعنى بديع آخر وهو استبعاد ما بعدها عقلاً وعرفاً لما قبلها[٦] ومن أمثلته في سورة النساء قوله تعالى :

{ يسـألُكَ أهـلُ الكتابِ أنْ تُنَزِّلَ عليهِمْ كتاباً مِنَ السماءِ فقدْ سألوا موسـى أكبرَ مِنْ ذلكَ فقالوا أرِنَا اللهَ جهرةً فأخذَتْهُمُ الصاعقةُ بظلمِهِمْ ثمَّ

---

١ ــ الآية (١٠٠) .

٢ ــ انظر (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر ، ص٢٤٦ .

٣ ــ انظر (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص١٢٨ .

٤ ــ الآية (١١٢) .

٥ ــ انظر (دلائل الإعجاز) ، ص٢٤٦ .

٦ ــ انظر (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري) للدكتور أبي موسى ، ص٢٩٠ .

اتخــذوا العجــلَ منْ بعدِ ما جاءَتْهُمُ البيناتُ فعفونا عنْ ذلكَ وآتينا موسى سلطاناً مبيناً }[١] .

فبعد أن عاقبهم الله على تجرئهم عليه سبحانه وتعالى بقولهم : أرنا الله جهرة ؛أخذتهم الصاعقة وأماتهم الله ثم أحياهم ، بعد هذا الأمر المهول كان من المتوقع التسليم التام والإيمان الراسخ إلاّ أنهم اتخذوا العجل من بعد مــا جــاءتهم البينات . فكان ذلك أفظع دلالة على جرمهم لأن (الخبال بعد فرط البيان أجدر بالتبكيت)[٢]

ومثله في غير هذه السورة قوله تعالى :

{ وإذ أخذْنــا ميــثاقَكمْ ورفعــنا فوقَكمُ الطورَ خذوا ما آتيناكمْ بقوةٍ واذكروا ما فيه لعلَّكُمْ تتَّقونَ * ثمَّ توليتُمْ منْ بعدِ ذلكَ ... }[٣] .

فكان توليهم بعد تلك المعجزات وأخذ الميثاق مستبعداً عقلاً وعرفاً .

رابعاً : (أو) :

وهــي تضــفي معــانٍ بلاغية جميلة على السياق خلاف الربط وقد اخــترت مــن ســورة النساء مواضع تترجم أهم تلك المعاني على كثرتها واختلافها[٤]

---

١ ــ الآية (١٥٣) .

٢ ــ انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج٥ ، ص٤٥٦ .

٣ ــ الآيتان (٦٣ ، ٦٤) من سورة البقرة .

٤ ــ راجع كتاب (معاني الحروف) للرماني ، ص٨٠ وما بعدها .

وجاء في (مغني اللبيب) لأبن هشام : (أو) حرف عطف ذكر له المتأخرون معاني انتهت إلى اثني عشر :

الأول : الشك نحو (لبثنا يوماً أو بعض يوم) جزء من الآية (١٩) من سورة الكهف .

الثاني : الإبهام ، نحو (قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله و إنّا أو إياكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين) جزء من الآية (٢٤) من سورة سبأ .

الثالث : التخيير ، مثل (خذ من مالي ديناراً أو درهماً) .

الرابع : الإباحة ، نحو (تعلم الفقه أو النحو) .=

=الخامس : الجمع المطلق كالواو، نحو قول جرير :

نحو قوله تعالى :

{ فـليقاتلْ فـي سبيلِ اللهِ الذينَ يشرونَ الحياةَ الدُّنْيا بالآخرةِ ومَنْ يقاتلْ في سبيلِ اللهِ فيُقتلْ أو يَغلبْ فسوفَ نؤتيهِ أجراً عظيماً }[١].

معنى (أو) أصلاً أن تكون لأحد الأمرين[٢] ولكنه يخرج إلى معان بلاغية كثيرة قد تخرج إلى اثني عشر معنى[٣] . والمعنى الذي خرج له هنا هو التقسيم حيث جعل الله سبحانه وتعالى أمام المجاهد غايتين[٤] بمعنى أنه يجب عليه أن يوطّن نفسه لإحدى الحسنيين ولا يخطر بباله القسم الثالث أصلاً[٥] ولا تسأل عن حماس مقاتل يتمثل في نفسه هذا الفوز العظيم ،

جاء الخلافة أو كانت له قدراً   كما أتى ربّه موسى على قدرِ

هكذا رواه ابن هشام في المغني ، وقد وجد في الديوان ص٣٠٠ بهذه الصورة :

نال الخلافة إذ كانت لـه قَدَراً   كما أتى ربّه موسى على قدَرِ .

وعليه فلا شاهد في البيت .

السادس : الإضراب شرط أن يتقدمها نفي ، نحو (ما قام زيد أو ما قام عمرو) ، أو يتقدمها نهي ، نحو (لا يقم زيد أو لا يقم عمرو) .

السابع : التقسيم ، نحو (الكلمة اسم أو فعل أو حرف) .

الثامن : أن تكون بمعنى (إلاّ) في الاستثناء وهذه تنصب المضارع بعدها بإضمار أن كقولك (لأقتلنّه أو يسلم) .

التاسع : أن تكون بمعنى (إلى) وهي كالتي قبلها في انتصاب المضارع بعدها بأن مضمرة ، نحو (لألزمنك أو تقضيني حقي) .

العاشر : التقريب ، نحو (ما أدري أسلّم أو ودّع) .

الحادي عشر : الشرطية ، نحو (لأضربنه عاش أو مات) أي : إن عاش بعد الضرب أو مات .

الثاني عشر : التبعيض ، نحو (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى)

١ ـ الآية (٧٤) .

٢ ـ انظر (مغني اللبيب) لابن هشام ، ج١ ، ص٦١ .

٣ ـ المرجع السابق .

٤ ـ انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج٢ ، ص٧٨ .

٥ ـ انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج١ ، ص٥٤٩ . والأمر الثالث هو التولي يوم الزحف وهو من الكبائر .

وتـــتراءى أمـــام ناظريه مشاهد الجنة جزاءً في الحالين ، ويا له من أسلوب تربوي من أنجح الأساليب لم يكتشف في عالم الغرب إلاّ مؤخراً .

وقد تأتي (أو) للإباحة ؛ كقوله تعالى :

{ لا خيـــرَ فـــي كثيرٍ منْ نجواهُمْ إلاّ مَنْ أمرَ بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصـــلاحٍ بينَ الناسِ ومَنْ يفعلْ ذلكَ ابتغاءَ مرضاتِ اللهِ فسوفَ نؤتيهِ أجراً عظيماً }[1] .

نفت الآية الخير عن كثير من نجواهم أو متناجيهم ، فعلم من مفهوم الصـــفة أن قـــليلاً من نجواهم فيه خير موضح أو مفصل في ثلاثة أمور : الصدقة ، والمعروف ، والإصلاح بين الناس[2] . ولعل السر في إفراد هذه الأقسام الثلاثة بالذكر أن عمل الخير المتعدي إلى الناس إما لإيصال المنفعة أو لدفـــع المضرة[3] فعدّد على النحو السابق لفرط العناية بها لما مرّ ذكره ولا يخـــفى أن الـــذي أسهم في إيضاح هذا النسج البديع هو حرف العطف (أو) .

ثم يظهر معنى التخيير جلياً في قوله تعالى :

{ إنْ تُـــبْدوا خيراً أو تُخفوهُ أو تعفوا عنْ سوءٍ فإنَّ اللهَ كانَ عفواً قديراً }[4] .

فالـــتخيير قـــائم بين إبداء الخير أو إخفائه فكلاهما في علم الله سواء ويجزي به سبحانه وتعالى عفوه ومغفرته . ثم عطف عليهما بقوله تعالى :

---

١ ـــ الآية (١١٤) .

٢ ـــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور بتصرف يسير ، ج٤ ، ص٢٠٠ .

٣ ـــ انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج١ ، ص٥٨٤ .

وقد ذكر ذلك ابن مالك بقوله :

خَيِّرْ ، أبِحْ ، قَسِّمْ ـــ بأو ـــ وأبْهِمِ   واشْكُكْ ، وإضْرَابٌ بهَا أيْضاً نُمِي

وعلّق ابن عقيل قائلاً : والفرق بين الإباحة والتخيير : أن الإباحة لا تمنع الجمع ، والتخيير يمـــنعه . انظـــر (شرح ابن عقيل إلى ألفية ابن مالك) ، ج٢ ، ص٢١٢ -٢١٣ ،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، طبعة جديدة منقحة ، ١٤١٥هـــ – ١٩٩٥م .

٤ ـــ الآية (١٤٩) .

{ أو تعفـــوا عن سوء } تنبيهاً على منزلته واعتداداً به وإن كان مندرجاً في إبـــداء الخير وإخفائه ..... ولذلك أتى سبحانه وتعالى بصفة العفو والقدرة منسوبة له تعالى ليُقتدى بسنته ويتخلق بشئ من صفاته تعالى[١] .

وكـــل هذه المتعاطفات في تذييل الآية تجلب رضا الرب مجتمعة أو متفرقة وذكرت (لزيادة الترغيب)[٢] ، كقوله تعالى :

{ إنْ تُـــبدوا الصدقاتِ فنِعِمَّا هيَ وإنْ تُخفوها وتؤتوها الفقراءَ فهوَ خيرٌ لكُمْ ... }[٣] .

وكلاهمـــا خيـــر، لأن الإبداء فيه حث للغير وتحفيز للهمم وتذكير للســـاهي . والإخفـــاء فيه صدق نية وثقة بما عند الله من ثواب ، والله أعلم وأحكم .

---

١ ــ انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج٣ ، ص٣٨٥ .
٢ ــ (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٦ ، ص٧ .
٣ ــ جزء من الآية (٢٧١) من سورة البقرة .

المطلب الرابع : حروف الجر .

من المواضع البلاغية المعجزة الاختيار الدقيق لحروف الجر ؛ ذلك لما لهذه الحروف من أثر على بلاغة السياق الواردة فيه . وهي كثيرة جداً ولكن حسبنا بعض الأمثلة لتكون دليلاً على الباقي :

أولاً : حرف الجر (من) :

وقد استخدم في لغة العرب لمعاني شتى[١] ، من ذلك قوله تعالى :

{ يا أيُّها الناسُ اتَّقوا ربَّكُمُ الذي خلقكُمْ من نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجَهـا وبَـثَّ مـنهُمَا رِجالاً كثيراً ونساءً واتَّقوا اللهَ الذي تساءلونَ بهِ والأرحامَ إنَّ اللهَ كانَ عليكُمْ رقيباً }[٢] .

لقد تكرر حرف الجر (من) في هذه الآية ثلاث مرات وتكراره هذا تأكيد على أمر غاية في الأهمية ، وهو توثيق الصلة المصرح بها في آخر الآية . ففي كل مرة ذكرت (من) كانت لابتداء الغاية وذلك توحيد لأصل الـناس وإن بعدت بهم المشقة في هذا الزمان . وقد أكده المفسرون (فقال ابـن عباس ومجاهد[*] والسُّدي[*] وقتادة : إن الله تعالى خلق آدم وَحِشاً في

---

١ ــ قال ابن هشام : تأتي على خمسة عشر وجهاً : أحدها ابتداء الغاية ، والثاني التبعيض ، والثالث بيـان الجـنس ، والـرابع التعـليل ، والخامس البدل ، والسادس مرادفة (عن) ، والسابع مرادفة (الـباء) ، والثامن مرادفة (في) ، والتاسع موافقة (عند) ، والعاشر مرادفة (ربما) ، والحادي عشـر مرادفة (على) ، والثاني عشر الفصل ، والثالث عشر الغاية ، والرابع عشر التنصيص على العموم ، والخامس عشر توكيد العموم . انظر (مغني اللبيب) ، ج١ ، ص٣١٨ وما بعدها .

٢ ــ الآية (١) .

* هو الإمام مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي ، شيخ القراء والمفسرين ، مات ساجداً سنة ثنتين ومئة . انظر (تهذيب سير أعلام النبلاء) ، ج١ ، ص١٥٨ .

* هو أبو محمد إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الحجازي السُّدي ، إمام المفسرين ، مات سنة سبع وعشرين ومائة للهجرة .

انظر (تهذيب سير أعلام النبلاء) ، ج١ ، ص١٩٢ .

الجنة وحده ثم نام فانتزع الله أحد أضلاعه القُصَيْرِيْ من شماله ، وقيل من يمينه فخلق منه حواء)[١] .

وذا دليـــل كـــافٍ على أن (من) هنا لابتداء الغاية وإن قال بعضهم أنهـــا تعني الجنس ، أي خلق من جنسها زوجها . قال ابن عطية : (واللفظ يتـــناول المعنيين ،أو يكون لحمها وجواهرها من ضلعهِ ، ونفسها من جنس نفسه)[٢] .

وكذا القول في قوله تعالى : { وبثّ منهما } ، وابتداء الغاية من أهم مقاصد هذا الحرف وإن وردت له مقاصد أخرى .

أما قوله تعالى :

{ وآتـــوا النساءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحلةً فإنْ طِبنَ لكم عن شيءٍ منه نفساً فكلوهُ هنيئاً مريئاً }[٣] .

(مـــن) هنا تفيد التبعيض باتفاق كثير من المفسرين . وانفرد ابن عطيـــة برأي خاص فقال : (تتضمن الجنس هاهنا ، ولذلك يجوز أن تهب المهر كله ، ولو وقفت (من) على التبعيض لما جاز ذلك)[٤] .

والراجح أنها للتبعيض . قال الزمخشري : (وقيل فإن طبن لكم عن شيء منه ولم يقل فإن طبن لكم عنها بعثاً لهن على تقليل الموهوب)[٥] .

---

١ ـــ انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج٢ ، ص٤ . وكذا (فتح القدير) للشوكاني ، ج ، ص٤٢٢ .

٢ ـــ انظر (المحرر الوجيز) ، ج٢ ، ص٤ .

٣ ـــ الآية (٤) .

٤ ـــ انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج٢ ، ص٩ .

٥ ـــ انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٤٦.

وكذا تفسير البيضاوي ، ج٣ ، ص١٠٤ .

وكـــذا (الاتجـــاه البلاغي في تفسير البيضاوي) للدكتور محمد لطفي عبد التواب ، ج١ ، ص٩١ .

وكذا (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج٣ ، ص١٦٧ .

وكذا (الدر المصون) للسمين الحلبي ، ج٢ ، ص٣٠٥ . =

وهـــذا لأن المـــرأة عاطفيـــة فقد تضر بنفسها ، فنبهها سبحانه لكبح جماح عاطفتها (فبنى الشرط على طيب النفس فقيل : إن طبن ولم يقل فإن وهـــبن أو ســـمحن ، إعلامـــاً بأن المراعى هو تجافي نفسها عن الموهوب طيبةً)[١]

ثانياً : حرف الجر (في)[٢] :

ومثاله في هذه السورة قوله تعالى :

{ ولا تؤتوا السفهاءَ أموالَكُمُ التي جعلَ اللهُ لكُمْ قياماً وارزقوهُمْ فيها واكسوهُمْ وقولوا لهُمْ قولاً معروفاً }[٣] .

تـــتحدث الآيـــة الكريمة عن أموال المحجور عليهم[٤] أي (اجعلوها مكانـــاً لـــرزقهم وكسوتهم بأن تتجروا وتتربحوا فيها حتى تكون نفقاتهم من الأربـــاح لا مـــن صـــلب المال)[٥] . فكانت (في) هنا عبارة عن ظرف

=وممن ذكر أن (من) للتبعيض الشوكاني في (فتح القدير) ، ص٤٢٥ .

وكذا أبو السعود ، ج١ ، ص٤٨٣ .

وكذا السيوطي في (الدر المنثور) ، م٢ ، ج٤ ، ص٤٣٢ .

وكـــذا البقاعي في (نظم الدرر) ، ج٥ ، ص١٩٣ . وقد ألمح إلى معنى جميل فقال : أن الهـــاء في منه تعود على الصداق ، ولم يقل منها – أي الزوجة – لئلاّ يُظن أن الموهوب لا يجوز إن كان صداقاً كاملاً فقال (منه) .

١ ــ انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٤٦ .

٢ ــ وله عشر معانٍ من أهمها وأكثرها مداولة : الظرفية مكانية وزمانية وقد تمثلتا في قوله تعالى : { ألـــم ،غُلِـــبَتْ الـــروم ، فـــي أدنى الأرض وهـــم مـــن بعـــد غَلَبهم سَيَغْلِبون ، في بِضْعِ سِنِين } (الروم / ١_٤) والثاني المصاحبة نحو قوله تعالى :{ ادخلوا في أمم }(الأعراف / ٣٨) ، والثالث التعليل نحو قوله تعالى : { فذلكُنَّ الذي لُمتُنَّني فيه }(يوسف/ ٣٢) .

انظر (مغني اللبيب) لابن هشام ، ص١٦٨ .

٣ ــ الآية (٥) .

٤ ــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٤ ، ص٢٣٤ .

٥ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٤٨٤ .

وكذا (روح المعاني) للألوسي ، م٢ ، ج٤ ، ص٢٠٣ .

مجازي[١] لاستمرارية رزقهم . ويتضح هذا المعنى أكثر بمقارنة الآية بقوله تعالى :

{ وإذا حضـرَ القسمةَ أولوا القربى واليتامى والمساكينُ فارزقوهُمْ منْهُ وقولوا لهُمْ قولاً معروفاً }[٢] .

فالـرزق في الثانية لا شك أنه من أصل المال الموروث ، وهو أمر عارض وبسيط مقارنة بما قبله ، ولا مجال لإنمائه لتقيده بوقت القسمة ولذا اسـتخدم حـرف يفيد التبعيض أما في الآية موضع الدراسة فالأمر مختلف تمامـاً لحاجـة اليـتامى الطويلة لمالهم ، فمنّ الله عليهم بهذا الإرشاد الذي أفصح عنه حرف الجر (في) .

وقريب منه قوله تعالى :

{ أولئكَ الذينَ يعلمُ اللهُ ما في قلوبِهِمْ فأعرضْ عنْهُمْ وعِظْهُم وقُلْ لهُمْ في أنفسِهِمْ قولاً بليغاً }[٣] .

حـرف الجـر (فـي) جاء يوضح معنيين مختلفين الأول في قوله تعـالى :{ مـا في قلوبهم } ، فهي للظرفية المكانية ، وإن كان ذكر القلب واحـتوائه عـلى الأسـرار بحد ذاته شيئاً مجازياً ، إذ هل يُراد بالقلب تلك العضلة الضاخة لدم الإنسان في عروقه أم شيء آخر ؟ الله أعلم به .

أمـا قوله تعالى : { وقل لهم في أنفسهم } فهو تركيب عجيب . ترى مـاذا يعني ؟ وهل (في) هنا للسببية فيكون المعنى : قل لهم بسبب أنفسهم المطويـة عـلى النفاق هذا رأي[٤] . أي : قل لهم في أنفسهم خالياً بهم لأن النصيحة في السر أنجح وفيه أدخل[٥] فتصبح (في) للظرفية المكانية ؟

---

١ ــ انظر (مغني اللبيب) لابن هشام ، ص١٦٨ .
٢ ــ الآية (٨) .
٣ ــ الآية (٦٣) .
٤ ــ انظر (الدر المصون) للسمين ، ج٢ ، ص٣٨٣ .
٥ ــ وهذا رأي الزمخشري وهو رأي صائب ، انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٧٧ .

والحق أنها تحتملهما وتحتمل معنى أدق لاقترانها بقوله تعالى : { قولاً بليغاً } أي يصل إلى الأعماق ويتغلغل داخل أنفسهم ليقتلع جذور النفاق فهي إذن للظرفية المجازية والله أعلم وأحكم .

وربما تأتي (في) دالة على السببية[١] مثاله في سورة النساء قوله تعالى :

{ يوصيكمُ اللهُ في أولادِكُمْ للذكرِ مثلُ حظِّ الأنثيينِ ... }[٢] .

أليست هذه الوصية التي خُصوا بها بسبب الأولاد ، والمعنى صحيح لو قيل يوصيكم بهم أو بسببهم ولكن اختيار (في) هنا يشير إلى مغزى بلاغي يتلاءم مع الجو الأسري حيث أعطاه صورة الوعاء والوالدين والأبناء وسطه وهو يحويهم في قراره ، كما قال الرمّاني : (في) عملها الجر ومعناها الوعاء[٣] .

ثالثاً : حرف الجر (على) :

معناه الأصلي " الاستعلاء " ، ولكنه يدل على معان أخرى كثيرة بجانب هذا المعنى الأصلي والبلاغيون يقولون إنه خرج من معناه إلى معنى

---

١ ــ هذا المعنى لم يذكره أحد صراحة فيما بين يدي من كتب ، مع وجوده في كثير من الأمثلة القرآنية انظر على سبيل المثال (معاني الحروف) للرماني ، ص٩٦ .

وكذا (مغني اللبيب) لابن هشام الذي عدد لحرف الجر (في) عشرة معاني ولم يذكر السببية منها بل جعلها بمعنى (الباء) ونوه بها قائلاً : وليس منه قوله تعالى : { يذرؤكم فيه } خلافاً لزاعمه بل هي للسببية أي يكثركم بسبب هذا الجعل . انظر (ج١ ، ص١٦٩ . والآية من سورة الشورى رقم (١١) . وقد تبعه السيوطي في (الهمع) وذكر الآية السابقة أيضاً ، انظر ج٢ ، ص٣٠ .

٢ ــ جزء من الآية (١١) .

٣ ــ انظر (معاني الحروف) تحقيق الدكتور / عبد الفتاح شلبي ، ص٩٦ .

كــذا أو كذا[١] والقضية محتملة كلا الوجهين ، وسنرى في الأمثلة التالية ما ينبئ عن ذلك ، والله ولي التوفيق .

قال تعالى :

{ إنَّ اللهَ كانَ عليكُمْ رقيباً }[٢] .

جــاء حــرف الجر (على) ليمثل معناه الأصلي بما فيه من التمكن والسيطرة والعظمة والتهديد والحرص معاني كثيرة مصاحبة للاستعلاء لكن المفسرين اتفقوا على أنها للاستعلاء[٣] .

واختلفوا في قوله تعالى :

{ إنَّمــا التوبةُ على اللهِ للذينَ يعملونَ السوءَ بجهالةٍ ثمَّ يتوبونَ مِنْ قريبٍ فأولئكَ يتوبُ اللهُ عليهِمْ وكانَ اللهُ عليماً حكيماً }[٤] .

---

١ ــ انظر (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة ، ص٥٧٣ – ٥٧٨ .

وكذا (معاني الحروف) للرماني ، ص١٧ وما بعدها .

وكذا (همع الهوامع) للسيوطي ، ج٢ ، ص٢٨ .

٢ ــ جزء من الآية (١) .

٣ ــ انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، قال : وفي أداة الاستعلاء ضرب من التهديد ، ج٥ ، ص١٧٦ . أما كثيرون من المفسرين لم يقف عندها لأنهم يرون أنها على بابها وهو الاستعلاء ، انظر على سبيل المثال (الكشاف) ج١ ، ص٢٤٢ .

وكذا (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص١٥٩ .

وكذا (فتح القدير) للشوكاني ، ج١ ، ص٤١٩ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٤٧٧ .

وكذا (الدر المنثور) للسيوطي ، ج٢ ، ص٤٢٥ .

وكذا (روح المعاني) للألوسي ، م٢ ، ج٤ ، ص١٨٥ .

وكذا (التحرير والتنوير) لابن عاشور ، ج٤ ، ص٢١٨ .

٤ ــ الآية (٧) .

موضـــع الخـــلاف { إنما التوبة على الله } منهم من يرى أنها على بابهـــا[١] ومنهم من يرى أنها بمعنى (عند) أي : عند الله ، وقال الحسن : بمعنى (من) أي إنما التوبة من الله[٢] .

والأولى أن تكون على بابها (لأن كلمة (على) للدلالة على التحقق البـــتة بحكـــم جـــري العـــادة وســـبق الوعد حتى كأنه من الواجبات عليه ســـبحانه)[٣] فتفضّـــل عـــلى عباده بقبولها رحمة منه ومن هنا فهو حرف استعلاء مجازي بمعنى التعهد والتحقق كقولك : (عليّ لك كذا) ولا شيء موجب على الله إلاّ وجوب وعده بفضله[٤]

قال ابن عطية : (إخباره تعالى عن أشياء أوجبها على نفسه يقتضي وجوب تلك الأشياء سمعاً وليس وجوباً)[٥] . ومنه قوله تعالى :

{ ومَـــنْ يهاجرْ في سبيلِ اللهِ يجدْ في الأرضِ مُرَاغماً كثيراً وسَعَةً ومَـــنْ يخرجْ مِنْ بيتِهِ مهاجراً إلى اللهِ ورسولِهِ ثمَّ يدركْهُ الموتُ فقدْ وقعَ أجرُهُ على اللهِ وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً }[٦] .

أي : وجـــب بمقتضى وعده وفضله[٧] لا بحسب الاستحقاق عدلاً[٨] فأعطى الحرف معنى الاستعلاء المجازي .

---

١ ــ الزمخشري وإن ظهر مذهبه الاعتزالي في قوله : إنما التوبة والغفران واجب على الله لهؤلاء ، تعـــالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٥٦ .وقد اتفق معه أبو حيان ولكنه أوضح اعتقاده في مسألة قائلاً : أن الله لا يجب عليه شيء من جهة العقل . انظر (البحر المحيط)، ج٣ ،ص١٩٧ . وهذه المسألة الاعتقادية بيّنها ابن القيم في (بدائع الفوائد) ،ج١ ، ص٣١٧ .

٢ ــ انظر (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص١٩٧ .

٣ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٤٩٦ .

٤ ــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٤ ، ص٢٧٨ .

٥ ــ انظر (المحرر الوجيز) ، ج٢ ، ص٢٤ .

٦ ــ الآية (١٠٠) .

٧ ــ انظر(روح المعاني) ، م٢ ،ج٥ ، ص١٢٨ .

٨ ــ انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج٥ ، ص٣٧٧ .

رابعاً : حرف الجر (عن) :

والأصـل فـي معـناه المجاوزة ولكن قد يخرج عنها لمعان أخرى تصاحب المجاوزة[١] .

ومما جاء على أصله قوله تعالى :

{ فإنْ طِبْنَ لكُمْ عَنْ شيءٍ منْهُ نفساً ... }[٢] .

قـال البيضاوي[*] : (المعنى فإن وهبن لكم من الصداق عن طيب نفـس ، لكـن جعل العمدة طيب النفس للمبالغة ، وعداه بـ(عن) لتضمن

---

١ ـ مثل الاستعانة التي هي للباء ، نحو قوله تعالى : { وما ينطق عن الهوى } (النجم / ٣) ، أي بالهوى .

وكـذا التعـليل مثل قوله تعالى : **{ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاّ عن موعدة وعدها إياه }**(التوبة / ١١٤) . أي : إلا لموعدة وعدها إياه .

وكـذا تأتي بمعنى (على) أي تفيد الاستعلاء مثل قوله تعالى : **{ فإنما يبخل عن نفسه }** (محمد / ٣٨) ، أي على نفسه .

وكذا تأتي (عن) بمعنى البدل ، نحو قوله تعالى : **{ واتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً }**(البقرة / ٤٨) . أي : بدل نفس .

وكـذا تأتي بمعنى (بعد) نحو قوله تعالى : **{ لتركبن طبقاً عن طبق }**(الانشقاق / ١٩) أي بعد طبق .

ولكن البصريين أكدوا أنه للمجاوزة في كل الأحوال ولو كانت له معاني تلك الحروف لعدم مطابقته لها في جميع أحوالها .

انظـر(مغـني اللبيب)لابن هشام ، ج١ ، ص١٤٧ وما بعدها . وكذا (معاني الحروف) للرماني ، ص٩٤ . وكذا (همع الهوامع) للسيوطي ، ج٢ ، ص٢٩ .

والحـق الظاهـر بالأمثـلة أن (عن) للمجاوزة أولاً ، ثم مصاحبة ذلك المعنى الذي يفيده الحـرف الآخر في بعض الأحيان ، وهذا ما بينته دراسة آيات سورة النساء المتضمنة هذا الحرف ، مـثل : (٤ ، ١٦ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٨١ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١٢١ ، ١٥٣ ، ١٦٧ ، ١٧٢) .

٢ ـ جزء من الآية (٤) .

* هو الإمام القاضي أبو الفتح عبد الله بن محمد بن محمد بن البيضاوي الفارسي ، قاض متحر في قضائه الخير ، توفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة .

انظر (تهذيب سير أعلام النبلاء) ، ج٣ ، ص١٠ .

معنى التجافي والتجاوز[١] أي تجاوزت هذه الهبة نفسها وتعدتها إلى نفسه[٢] دون إكراه .

ومما جاء يحتمل فيه معنى آخر مع المجاوزة قوله تعالى :

{ يُرِيدُ اللهُ أنْ يخفِّفَ عنكُمْ وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً }[٣]

و(عن) هنا في (عنكم) تفيد المجاوزة المعنوية (فإنه تعالى خفف عــن هــذه الأمة ما لم يخفف عن غيرها من الأمم الماضية)[٤] . ويصح معنى الاستعلاء بجانب المجاوزة أي يخفف عليكم لأن أمور الشرع تستعلي الإنسان وتحكم قياده ، وهي ثقيلة الحمل ، فتجاوزت هذه الأحكام الثقيلة أمة محمد – صلى الله عليه وسلم – إلى غيرها من الأمم ليكون ديننا دين يسر تكريماً لمحمد – صلى الله عليه وسلم – وأمته .

ومما صحب المجاوزة فيه معنى آخر قوله تعالى :

{ يــا أيُّها الذينَ آمنوا لا تأكلوا أموالَكُمْ بينَكُمْ بالباطِلِ إلاّ أنَ تكونَ تجارةً عنْ تراضٍ منكُمْ ولا تقتلوا أنفسكُمْ إنَّ اللهَ كانَ بكُمْ رحيماً }[٥] .

حــرف الجر (عن) أفاد السببية أو التعليل ، ولذا فالتجارة الناتجة عــن تــراضٍ استثنيت من الأكل بالباطل[٦] . وقد تفي لام التعليل بالغرض ولكــن اختيار (عن) يعمق هذا الرضا حيث يدل على امتلاء النفس به ، وتجاوزه إلى الطرف الثاني ، فيمتزج رضا الطرفين منتجاً تلك الصفقة التي تُكلل برضا الله سبحانه وتوفيقه .

---

١ ـــ انظر تفسير البيضاوي ، ج٣ ، ص١٠٤ .

وكذا (الاتجاه البلاغي في تفسير البيضاوي) للدكتور / محمد لطفي عبد التواب ، ص٩١.

٢ ـــ لأن : جزت الطريق وجاز الموضع سار فيه وسلكه .

انظر (اللسان) ، مادة (جوز) .

٣ ـــ الآية (٢٨) .

٤ ـــ انظر (روح المعاني) للألوسي ، م٢ ،ج٤ ، ص١٤ .

٥ ـــ الآية (٢٩) .

٦ ـــ انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج٢ ، ص٤١ .

وأما ما جاء بمعنى البدل ففي قوله تعالى :

{ ولا تجـادِلْ عـنِ الذينَ يختانونَ أنفسَهُمْ إنَّ اللهَ لا يحبُّ مَنْ كانَ خوّاناً أثيماً }[١] .

فالمجاوزة صحبت معنى البدل ، أي لا تجادل بدل الذين يختانونَ أنفسهم ، لكن (عن) صورت عمق الحماس الذي يدافع به عن المبدل عنه فيتعداه إليه .

وتأمل قوله تعالى :

{ أولئكَ مأواهُمْ جهنَّمُ ولا يجدونَ عنْها مَحِيصاً }[٢] .

(عن) هنا يحمل معنى الظرفية أي بمعنى (في) ولكن (في) لا يفي بما يفي به (عن) الذي يصور محاولات العدول والهروب قبل الدخول لما في جهنم من أهوال ترى من مكان بعيد .

---

١ ــ الآية (١٠٧) .

٢ ــ الآية (١٢١) .

خامساً : حرف الجر (الباء) :

ومعـــناه الخاص هو الإلصاق الذي قصره عليه سيبويه(*)[١] مع أن بعضـــهم عـــدد لها معاني كثيرة[٢] ترددت في كثير من كتب الأولين نذكر منها ما وجد في سورة النساء المباركة ، مثل قوله تعالى :

{ والمُحْصَنَاتُ من النساءِ إلاّ ما مَلَكتْ أيمانُكمْ كتابَ اللهِ عليكُمْ وأحلَّ لكمْ ما وراءَ ذلكُمْ أنْ تبتغوا بأمْوَالِكمْ مُحْصِنينَ غيرَ مُسافحينَ فما استَمْتَعْتُمْ بِـــه منِهنَّ فآتوهُنَّ أُجورَهنَّ فريضةً ولا جُنَاحَ عليكُمْ فيما تراضَيْتُمْ بهِ منْ بعدِ الفريضةِ إنَّ اللهَ كانَ عليماً حكيماً }[٣] .

ذكر حرف الجر (الباء) ثلاث مرّات في النص السابق الأولى منها فـــي قولـــه تعالى : { بأموالكم } ودل هنا على معنى الاستعانة وهي إحدى معانيه الأصلية ، والمعنى : فاستعينوا بأموالكم التي رزقكم الله بها على أحد سبيلي الحلال (التزوج والشراء)[٤] .

---

* هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، كان أعلم المتقدمين والمتأخرين في النحو ، صاحب (الكتاب) ، توفي سنة مائة وسبع وسبعين للهجرة .

انظر (وفيات الأعيان) ، ج٣ ، ص٤٦٣ .

١ ــ انظـــر (المساعد على تسهيل الفوائد) شرح ابن عقيل على كتاب التسهيل لابن مالك ، تحقيق وتعـــليق الدكـــتور محمـــد كـــامل بركات ، ج٢ ، ص٢٦١ . دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

وكذا (المغني) لابن هشام ، ج١ ، ص١٠١ .

٢ ــ أوصـــلها ابـــن هشـــام فـــي (المغـــني) إلى أربع عشرة مسألة وهي : الإلصاق ، التعدية ، الاســـتعانة ، الســـببية ، المصاحبة ، الظرفية ، البدل ، المقابلة ، المجاوزة ، الاستعلاء ، التبعيض ، القسم ، الغاية ، التوكيد ، ج١ ، ص١٠١ وما بعدها .

اتفق معه في بعضها الرماني في كتاب (معاني الحروف) ، ص٣٦ وما بعدها .

واتفق معه في أكثرها ابن عقيل في (المساعد على تسهيل الفوائد) ، ج١ ، ص٢٦١ وما بعدها .

٣ ــ الآية (٢٤) .

٤ ــ انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج٢ ، ص٣٦ .

وكذا (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج٣ ، ص٢١٦ .

أمـــا الموضـــع الثاني في قوله تعالى : { فما استمتعتم به } فهو دال عـــلى الســـببية أي (فـــآتوهن أجورهن من أجله أي من أجل ما استمتعتم به)[١] .

أما الموضع الثالث : { فيما تراضيتم به } فدل حرف الجر فيه على معنى الاستعلاء المجازي ، أي ما تراضيتم عليه . وكذلك يحتمل فيه معنى السببية أي فيما تراضيتم بسببه ، ولكن الأول أظهر وللمتأمل أن يلحظ معنى الإلصاق مصاحب تلك المعاني جميعها وهو ما أكده سيبويه رحمه الله .

ومما جاء فيه حرف الجر (الباء) بمعنى الاستعلاء قوله تعالى :

{ يومَـــئذٍ يودُّ الذينَ كفروا وعصوُا الرسولَ لوْ تُسوَّى بِهِمُ الأرضُ ولا يكتمونَ اللهَ حديثاً }[٢] .

أي مـــا يرونه من أهوال ذلك اليوم يجعلهم يتمنون لو يعودوا أمواتاً كمـــا كانوا وتسوى عليهم الأرض[٣] وإن كانوا من قبل في عذاب القبر إلا أنهم يرونه نعيماً لما ينتظرهم .

أما قوله تعالى :

{ مِـــنَ الذيـــنَ هـــادوا يحرِّفونَ الكَلِمَ عنْ مواضعِهِ ويقولونَ سمعْنا وعصينا واسمعْ غيرَ مُسْمَعٍ وراعنا ليّاً بألسنتِهِمْ وطعناً في الدِّينِ ولو أنَّهُمْ قالوا سمعْنا وأطعْنا واسمعْ وانظُرنا لكانَ خيراً لهُمْ وأقومَ ولكنْ لعنَهُمُ اللهُ بكفرِهِمْ فلا يؤمنونَ إلا قليلاً }[٤] .

{ ليـــاً بألسنتهم } يحمل الحرف معنى الاستعانة حيث استخدموا هذه الجارحـــة التي وهبهم الله إياها في معصيته سبحانه أي : (فتلاً بها وصرفاً

---

١ ــ المرجع السابق ، ج٣ ، ص٢١٨ .

٢ ــ الآية (٤٢) .

٣ ــ انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج١ ، ص٥٢٣ .
وكذا (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص٣٤ .

٤ ــ الآية (٤٦) .

للكلام عن نهجه إلى نسبة السب)[١] الذي قصدوه ؛ لأن قولهم : ({ اسمع غير مسمع } كلام ذو وجهين يحتمل الشر بأن يحمل على معنى اسمع حال كونـــك غير مسمع كلاماً أصلاً بصمم أو موت أي مدعواً عليك بلا سمعت أو غير مسمع كلاماً ترضاه)[٢]

وكذا في { راعنا } (جعلوها للسب بالرعونة أي الحمق أو بإجرائها مجرى ما يشبهها من كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها)[٣] .

والموضـــع الـــثاني في قوله تعالى : { لكن لعنهم الله بكفرهم } أي استحقوا لعنة الله بسبب كفرهم[٤] .

وقريب منه قوله تعالى :

{ فبظُــلمٍ منَ الذينَ هادوا حرَّمْنا عليهِمْ طيباتٍ أُحلَّتْ لهُمْ وبِصَدِّهِمْ عنْ سبيلِ اللهِ كثيراً }[٥] .

(الـــباء) فـــي الموضعين للتعليل الذي ترتب على الظلم والصد أن حـــرمت عـــليهم الطيبات[٦] وقد قدم السبب على المسبب تنبيهاً على فحش الظلم وتقبيحاً له وتحذيراً منه[٧].

كما تخرج (الباء) إلى معنى (مع) وخير ما يمثله قوله تعالى :

{ يـــا أيُّهـــا الناسُ قدْ جاءَكُمُ الرسولُ بالحقِّ مِنْ ربِّكُمْ فآمنوا خيراً لكُمْ ... }[٨] .

---

١ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٢٩ .

٢ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٢٩ .

وكذا (روح المعاني) للألوسي ، م٢ ، ج٥ ، ص٤٧ .

٣ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٢٩ .

٤ ــ المرجع السابق .

وكذا (الدر المصون) للسمين الحلبي ، ج٢ ، ص٣٧٤ .

٥ ــ الآية (١٦٠) .

٦ ــ انظر تفسير ابن كثير ، ج١ ، ص٥٨٥ .

٧ ــ انظر تفسير (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج٣ ، ص٣٩٤ .

٨ ــ الآية (١٧٠) .

أي جاءكم ومعه الحق من ربكم متلبساً به في كل ما يقول ويفعل .

وقد يأتي هذا الحرف زائداً وله مواضع في زيادته يقررها النحاة [١] ومما جاء منه في هذه السورة قوله تعالى :

{ فتيمَّموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهِكُمْ وأيديكُمْ إنَّ اللهَ كانَ عفواً غفوراً } [٢] .

زيدت (الباء) هنا في المفعول به [٣] أي امسحوا وجوهكم وأيديكم ، والغرض البلاغي منها هو إفادة معنى التأكيد حتى يكون المَسح حقيقياً على أو في صورَِه . والحاجة ماسة في هذا العمل إلى الإلصاق الذي هو المعنى الأصلي للحرف .

وكذا وردت زيادتها في فاعل (كفى) كثيراً ، منها قوله تعالى :

{ واللهُ أعلمُ بأعدائِكُمْ وكفى باللهِ ولياً وكفى باللهِ نصيراً } [٤] .

قـــال فيها أبو السعود : (و(الباء) مزيدة في فاعل (كفى) لتأكيد الاتصـــال الإســـنادي بالاتصال الإضافي) [٥] فقد تقوى وتأكد اتصال الفعل بالمســـند إليـــه (الله) بهذا الاتصال الزائد بـــ (الباء) لتقوية الحكم بهذه

---

١ ــ يقول ابن هشام في (المغْني) عند تعداده معاني (الباء) : (الرابع عشر التوكيد وهي زائدة ، وزيادتها في ستة مواضع) ثم أخذ يعدد ويمثل لذلك نلخص من كلامه ما يلي : أنها تزاد في الفاعل والمفعول والمبتدأ والخبر والحال والتوكيد بالنفس والعين والزيادة الإيضاح . انظر (مغني اللبيب) ، ج١ ، ص١٠٦ وما بعدها .

وكذا كتاب (معاني الحروف) للرماني ، ص٣٦ وما بعدها .

٢ ــ جزء من الآية (٤٣) .

٣ ــ قال السمين الحلبي : وهذه (الباء) تحتمل أن تكون زائدة ، وبه قال أبو البقاء ويحتمل أن تكون متعدية . لأن سيبويه حكى : (مسحت رأسه وبرأسه)) ، ج٢ ، ص٣٧٠ .

٤ ــ الآية (٤٥) .

٥ ــ تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٢٧ .

وكذا (روح المعاني) للألوسي ، م٢ ، ج٤ ، ص٤٥ . وزاد بقوله : (الباء) إلصاقية .

(الباء) الزائدة لغرض توكيد الكفاية[1] ، وهي الاتصال الإسنادي الأصلي في التركيب .

المغـــزى البـــلاغي من هذا التركيب هو زيادة التشويق إلى معرفة تفصـــيل ما أُجمل في نسبة الفعل إلى فاعله ، لأن الفعل يطلب فاعلاً ولا بد أن يصل إليه فتأتي (الباء) بما فيها من معنى الإلصاق تؤكد اتصال الأول بالثاني[2] .

ومثله قوله تعالى :

{ ويقولـــونَ طاعةٌ فإذا برزوا مِنْ عندِكَ بيّتَ طائفةٌ منهُم غيرَ الذي تقـــولُ واللهُ يكـــتبُ مـــا يبيّتونَ فأعرضْ عنهُمْ وتوكلْ على اللهِ وكفى باللهِ وكيلاً }[3] .

فقولـــه : { وكفى بالله وكيلاً } ، يقول الزجاج[*] في معرض حديثه عـــن قولـــه تعـــالى : { وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً }[4] وهو موضع مشابه تماماً قال : دخلت (الباء) فالكلام بمعنى الأمر ، وإن كان لفظه لفظ الخبر[5] .

---

١ ــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٤ ، ص٧٣ .

٢ ــ انظر (البرهان) للزركشي ، ج٤ ، ص٢٥٢ . تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، جامعة أم القرى ، الطبعة الثانية ، ١٣٩١هـ – ١٩٧٣م .

٣ ــ الآية (٨١) .

* هو الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج البغدادي ، نحوي زمانه ، وله تآليف جمة ، منها (معاني القرآن) ، توفي سنة إحدى عشرة وثلاثمائة .

انظر (تهذيب سير أعلام النبلاء) ، ج٢ ، ص٣٤ .

٤ ــ الآية (٣) من سورة الأحزاب .

٥ ــ انظـــر (معاني القرآن وإعرابه) للزجّاج ، ج٤ ، ص٢١٣ ، تحقيق الدكتور عبد الجليل عبده شلبي ، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م .

سادساً : حرف الجر (إلى) :

ومعناه انتهاء الغاية مطلقاً زماناً أو مكاناً ولكنه يخرج كغيره إلى معان أخرى فينوب عن بعض حروف الجر الأخرى بقرينة المضمون[1] ويبقى دائماً معنى الانتهاء ملازماً له وإلا لاستغني عن استعماله بذلك الحرف المبدل عنه .

وبتتبعي لمواطنه في سورة النساء اخترت هذه الطائفة من الأمثلة لتدل على غيرها ، قال المولى عز وجل :

{ وآتوا اليتامى أموالَهُمْ ولا تتبدَّلوا الخبيثَ بالطيبِ ولا تأكلوا أموالَهُمْ إلى أموالِكُمْ إنَّهُ كانَ حُوباً كبيراً }[2] .

في قوله تعالى : { إلى أموالكم } وجوه :

أحدها : أن (إلى) بمعنى (مع) كقوله تعالى : { إلى المرافق } وقوله تعالى : { من أنصاري إلى الله } والعرب تقول : (الذود إلى الذود إبل)[3] .

---

١ ــ انظر (المساعد على تسهيل الفوائد) لابن عقيل ، ج٢ ، ص٢٥٣ وما بعدها .

وقال ابن هشام في (المغني) : (إلى) حرف جر له ثمانية معان : انتهاء الغاية ، والمعية ، التبيين ، مرادفة اللام ، موافقة (في) ، الابتداء ، موافقة (عند) ، والثامن التوكيد . انظر ،ج١ ، ص٧٤ وما بعدها .وكذا (معاني الحروف) للرماني ، ص١١٥ وما بعدها .

وكذا (الهمع) للسيوطي ، ج٢ ، ص٢٠ .

٢ ــ الآية (٢) .

٣ ــ والذود في (اللسان) و (مجمع الأمثال) يضرب في اجتماع القليل إلى القليل حتى يؤدي إلى الكثرة ، والذود : القطيع من الإبل من الثلاث إلى التسع .

انظر (مجمع الأمثال) لأبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد إبراهيم النيسابوري الميداني ، المثل (١٤٥٦) ، ص٢٧٧ ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، الطبعة بدون .

الــثاني : أنها على بابها وهي ومجرورها متعلقة بمحذوف على أنها حال ، أي مضمومة أو مضافة إلى أموالكم[١] .

والــثالث : (أن يضمن (تأكلوا) معنى (تضموا) فأنه قيل : ولا تضموها إلى أموالكم آكلين)[٢] .

والأظهــر والأوفــق لمضمون الآية أنها لانتهاء الغاية حيث ربطت معــنى الأكــل بالأموال وجعلت أموال اليتامى في مقدمته ليصل الأكل بعد انتهائها إلى أموال الأوصياء وكأنه طوفان مَحَق أموال اليتامى ووصل إلى مــا بعدها وهذا يمثل أبشع صور الشره والطمع والظلم وأشنعها وكل معنى تنفر منه النفس المؤمنة السوية .

ومنه قوله تعالى :

{ ألم ترَ إلى الذينَ أُتوا نصيباً مِنَ الكتابِ يشترونَ الضلالةَ ويريدونَ أنْ تضِلّوا السبيلَ }[٣] .

معــنى الآية التنبيه والتعجب من حال هؤلاء اليهود[٤] و(رأى) هنا عــلمية وضــمنت معــنى ما يتعدى بــ (إلى) فلذلك لم يتعدّ الحرف إلى مفعولين وكأنه قيل : ألم ينته علمك إلى كذا ؟

قال أبو حيان : (رأيت) يتعدى بنفسه دون الجار ، لكن لما استعير قولهــم : ألم تر لمعنى ألم تنظر عدّى تعديته ، وقلّما يستعمل ذلك في غير التقرير[٥] .

---

١ ــ انظر (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة ، ص٥٧١ .

والآيــات الــواردة عــلى التوالي : جزء من الآية (٦١) سورة المائدة ، جزء من الآية (٥٢) سورة آل عمران .

٢ ــ انظر (الدر المصون) للسمين الحلبي ، ج٢ ، ص٢٦٨ .

٣ ــ الآية (٤٤) .

٤ ــ انظر تفسير الطبري ، م٤ ، ج٥ ، ص٧٤ .

٥ ــ انظر (البحر المحيط) ، ج٢ ، ص٢٤٩ . في معرض تفسير لقوله تعالى : { ألمْ تر إلى الذين **خرجوا من ديارهم وهم ألوف }** ، الآية (٢٤٣) ، سورة البقرة .

فضمن العامل معنى يناسب التعدي بـ (إلى) .

وقد تكرر هذا الأسلوب في سورة النساء في خمسة مواضع[١] واستعمال (إلى) هنا يتناسب معنوياً مع عمق الرؤية التعجبية حتى تصل بالخاطب إلى أقصى الغايات وهو من باب التشهير بهؤلاء المتعجب من حالهم ؛ فجُعِلوا عبرة لكل متعظ وذلك لأنه إذا عدّي رأيت بـ (إلى) اقتضى معنى النظر المؤدي إلى الاعتبار[٢] فأخذ (إلى) معنى الغاية المعنوية المتضمنة الزمان أو المكان .

وانظر حفظك الله إلى أهمية (إلى) في الآية الكريمة التالية وما فيها من أحكام شديدة الخطر على الإسلام والمسلمين . قال تعالى :

{ إلاّ الذينَ يصلونَ إلى قومٍ بينَكُمْ وبينَهُمْ ميثاقٌ أو جاءوكُمْ حَصِرَتْ صدورُهُمْ أنْ يقاتِلوكُمْ أو يقاتلوا قَوْمَهُمْ ولو شاءَ اللهُ لسلَّطَهُمْ عليكمْ فَلَقاتَلُوكمْ فإنِ اعْتَزَلوكمْ فَلَمْ يُقاتِلوكمْ وألْقَوْا إليكمْ السَّلَمَ فما جَعَلَ اللهُ لكمْ عليهِمْ سَبيلاً }[٣] .

حرف الجر (إلى) تكرر مرتين الأولى في قوله تعالى : { يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق } فـ (إلى) عُدّى بها الفعل (يصل) إلى مفعوله وقد أفادت غاية البلوغ إلى الأمن والأمان لهؤلاء القوم المستثنين[٤] ممن قال فيهم الحق تبارك وتعالى :

---

١ ـ وهي قوله تعالى : { ألمْ تر إلى الذين يزكون أنفسهم ... }، الآية (٤٩) .

وقوله تعالى : { ألمْ تر إلى الذين أُتوا نصيباً من الكتاب ... } ، الآية (٥١) .

وقوله تعالى : { ألمْ تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك ... }، الآية (٥٩).

وقوله تعالى : { ألمْ تر إلى الذين قيل لهم كُفوا أيديكم ... } ، الآية (٧٧) .

وجميعها تدل على الوصول إلى أقصى حالات الاعتبار بحال المتعجب منهم .

٢ ـ انظر مفردات الراغب الأصفهاني ، مادة (رأى) .

٣ ـ الآية (٩٠) .

٤ ـ انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج٣ ، ص٣١٥ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٦٣ .

{ فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم }[١] .

وسبب استثنائهم هو وصولهم إلى القوم المعاهدين فلهم من الأمان مثل ما لأولئك[٢] والمعنى إن كل من دخل في عهد من كان داخلاً في عهدكم فهم أيضاً داخلون في عهدكم[٣] والوصول هنا مجازي لأنه لا يرتبط بغاية زمانية أو مكانية .

أما الموضع الآخر ففي قوله تعالى : { وألقوا إليكم السلم } أي : صالحوكم لأن السلم هو الاستسلام[٤] (إلى) هنا صورت هذا الاستسلام في أبعد صورة لأنها أوصلته إلى أبعد غاياته بما تحمل من معنى الانتهاء أي أن المعنى (فتركهم وشأنهم هو السبيل ... وهكذا يلمس المنهج التربوي الحكيم نفوس المسلمين ويعلمهم أن يأخذوا الخير الذي يعرض فلا يرفضوه ، ويجتنبوا الشر الذي يأخذ طريقه بعيداً عنهم فلا يتناوشوه كما أنه ليس في هذا كله تفريط في شيء من دينهم . ولا تمييع لشيء من عقيدتهم ، ولا رضا بالدنيّة في طلب السلم الرخيصة)[٥] .

سابعاً : حرف الجر (اللام) :

وقد أوصلوا معانيه إلى اثنين وعشرين معنى[٦] منها ما هو خاص به وهو الاختصاص ، ومنها ما يقوم به بدل حرف آخر ولكن يبقى كما أسلفنا معناه الأصلي فارضاً نفسه على السياق مخالطاً كل معنى خرج إليه .

---

١ ــ جزء من الآية (٨٩) .

٢ ــ انظر (جامع البيان) للطبري ، م٤ ، ج٥ ، ص١٢٤ .

٣ ــ انظر (التفسير الكبير) للإمام فخر الدين الرازي ، ج١٠ ، ص٢٢٢ .

٤ ــ انظر (جامع البيان) ، ج٥ ، ص١٢٥ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص١٦٤ .

٥ ــ انظر في (ظلال القرآن) لسيد قطب ، ج٢ ، ص٤٨٣ .

٦ ــ أولها الاختصاص وهو المعنى الأصلي ، ثم الملك ، والتمليك ، والتعليل ، وتوكيد النفي ، وموافقة (على) و(عن) ، والصيرورة ، والقسم ، والتعجب ، والتعجب المجرد من القسم ، والتعدية ، والتوكيد ، والتبيين . =

ومن أمثلته في سورة النساء قوله تعالى:

{ لـــلرجالِ نصيبٌ ممَّا تركَ الوالدانِ والأقربونَ وللنساءِ نصيبٌ ممَّا تركَ الوالدانِ والأقربونَ ممَّا قلَّ منْهُ أو كثُرَ نصيباً مفروضاً }[١] .

(الـــلام) هـــنا للاستحقاق وهو نظير الاختصاص وفرع عنه[٢] ، وأعيدت هذه (اللام) في قوله :{ للنساء } (لإيراد حكمهن على الاستقلال دون الـــدرج فـــي تضاعيف أحكامهم بأن يُقال : للرجال والنساء ، للاعتناء بأمرهن والإيذان بأصالتهن في استحقاق الإرث والإشارة من أول الأمر إلى تفـــاوت ما بين نصيبي الفريقين والمبالغة في إبطال حكم الجاهلية)[٣] وقد كانت هذه الآية أول إعطاء لحق الإرث للنساء في العرب[٤] .

ونظير هذه الآية كثير جداً في هذه السورة ، منه قوله تعالى :

{ يوصيكُمُ اللهُ في أولادِكُمْ للذكرِ مثلُ حظِّ الأنثيينِ }[٥] .

وكذا قوله تعالى :

{ إنَّمـــا التوبةُ على اللهِ للذينَ يعملونَ السوءَ بجهالةٍ ثمَّ يتوبونَ منْ قريبٍ فأولئكَ يتوبُ اللهُ عليهِمْ وكانَ اللهُ عليماً حكيماً }[٦] .

فـــ(اللام) في { للذكر } وكذا { للذين } تؤدي معنى الاستحقاق مع اختلاف الأحكام فيها .

= انظر (مغني اللبيب) لابن هشام ، ج١ ، ص٢٠٨ وما بعدها .

وكذا (المساعد) لابن عقيل ، ج٢ ، ص٢٥٦ وما بعدها .

وكذا (معاني الحروف) للرماني ، ص٥١ وما بعدها .

١ ـــ الآية (٧) .

٢ ـــ انظر (مغني اللبيب) ، ج١ ، ص٢٠٨ .

٣ ـــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٤٨٦ .

٤ ـــ انظر تفسير (التحرير والتنوير) لابن عاشور ، ج٤ ، ص٢٤٩ .

٥ ـــ جزء من الآية (١١) .

٦ ـــ الآية (١٧) .

وكذلك تأتي (اللام) للتبليغ ، ومنه في سورة النساء قوله تعالى :

{ وإذا حضـرَ القسمةَ أولوا القربى واليتامى والمساكينُ فارزقوهُمْ منْهُ وقولوا لهُمْ قولاً معروفاً }[١] .

فقوله تعالى : { قولوا لهم } أي ألزمهم بالتبليغ بما تطيب به نفوسهم .

ومنه قوله تعالى :

{أولـئكَ الذيـنَ يعلمُ اللهُ ما في قلوبِهِمْ فأعرضْ عنهُمْ وعِظْهُمْ وقُلْ لهُمْ في أنفسِهِمْ قولاً بليغاً }[٢] .

وقوله تعالى :

{ ألـمْ تـرَ إلى الذيـنَ قيلَ لهُمْ كُفّوا أيديكُمْ وأقيموا الصَّلاةَ وآتوا الزكاةَ ... }[٣] .

في جميعها دلت (اللام) على معنى التبليغ الذي أُلزموا به وحوسبوا عـليه . ووجه اختيار هذا الحرف دلالته على عدة معاني منها الاختصاص والتنبيه والتعجب ومعاني كثيرة أخرى .

وتأتي اللام بمعنى (مع) مع احتمال معناها الأصلي وذلك مثل قوله تعالى :

{ والذيـنَ ينفقونَ أموالَهُم رئاءَ الناسِ ولا يؤمنونَ باللهِ ولا باليومِ الآخرِ ومَنْ يكُنِ الشيطانُ لهُ قريناً فساءَ قريناً }[٤] .

(اللام) في { له } أعطت معنى (معه) وصورت المنافق بصورة الشيطان للملازمة .

---

١ ـ الآية (٨) .
٢ ـ الآية (٦٣) .
٣ ـ الآية (٧٧) .
٤ ـ الآية (٣٨) .

فإن هذه الصفات التي عددها الله تبارك وتعالى لهذه الفئة (من نتائج مقارنة الشيطان ومخالطته وملازمته للمتصف بذلك ، لأنها شر محض ، إذ جمعت بين سوء الاعتقاد الصادر عنه النفاق رئاءً وسائر الأوصاف المذمومة)[١] .

ومنه قوله تعالى :

{ أولئكَ الذينَ لعنَهُمُ اللهُ ومَنْ يلعنِ اللهُ فلنْ تجدَ لهُ نصيراً }[٢] .

فـ(اللام) دلت على معنى (مع) أي لن تجد معه (نصيراً ينصره من عقوبة الله فيدفع ذلك عنه)[٣] . ومثله قوله تعالى :

{ وما أرسلنا مِنْ رسولٍ إلاّ ليطاعَ بإذنِ اللهِ ولو أنَّهُمْ إذْ ظلموا أنفسَهُمْ جاءوكَ فاستغفروا اللهَ واستغفرَ لهُمُ الرسولُ لوجدوا اللهَ توّاباً رحيماً }[٤] .

فقوله تعالى : { استغفر لهم الرسول } تدل (اللام) فيه على معنى (مع) ، أي : استغفر معهم (وشفع لهم في غفران ذنوبهم)[٥] فاستغفار من خصه الله برسالته وأكرمه بوحيه وجعله سفيراً بينه وبين خلقه[٦] يقوي توبتهم ويرفأ ما بها من ضعف فبانضمام استغفاره إلى استغفارهم صارت توبتهم مستحقة القبول والله أعلم[٧] .

---

١ ــ انظر (البحر المحيط) ج٣ ، ص٢٤٨ .
٢ ــ الآية (٥٢) .
٣ ــ انظر (جامع البيان) ، م٤ ، ج٤ ، ص٨٦ .
٤ ــ الآية (٦٤) .
٥ ــ انظر (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٢٨٣ .
٦ ــ انظر (التفسير الكبير) للرازي ، ج١٠ ، ص١٦٢ .
٧ ــ المرجع السابق بتصرف .

وفي الآية التفات رائع بالعدول عن لفظ الخطاب في قوله تعالى : { جاءوك } إلى الغائب في قوله تعالى : { واستغفر لهم الرسول } وسره البلاغي التفخيم من شأن هذا الاستغفار لأنه صادر عمَّن شرُّفَ بالرسالة وحُمّل الأمانة وبلغ الأمة .

انظر (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٢٨٣ .=

ثامناً : حرف الجر (الكاف) :

وقد جعلوا له خمسة معانٍ(١) أهمها التشبيه ، وووروده في سورة النساء في ثمانية مواضع أختار منها هنا قوله تعالى :

{ يـا أيُّها الذينَ أُوتوا الكتابَ آمِنوا بما نزّلنا مصدقاً لما معَكُمْ مِن قـبلِ أن نطمِـسَ وجوهاً فنردَّها على أدبارِها أو نلعنَهم كما لعنّا أصحابَ السبتِ وكانَ أمرُ اللهِ مفعولاً }(٢) .

خدم حرف الجر (الكاف) السياق أيما خدمة لأنه عمّق معنى اللعنة المتوعد بها بربطها بأبشع لعنة في تأريخ اليهود وهي مسخ بعض أجدادهم إلى قردة و خنازير وهم يوقنون بذلك حق اليقين ، و لذا نرى من هداه الله مـنهم إلى الإسلام أسرع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم معلناً إسلامه مخافة أن يمسخ قبل ذلك (٣) ؛ وكأن هذا الحرف وما جسده من صورة نزل كصاعقة عنيفة الأثر هزّت قلوب الصالحين من أهل الكتاب و أرشدتهم إلى الصراط المستقيم .

ومنه قوله تعالى :

{ ألم ترَ إلى الذينَ قيلَ لهُمْ كُفّوا أيديكُمْ وأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ فـلمّا كُتبَ عليهِمُ القتالُ إذا فريقٌ منهُمْ يخشَونَ الناسَ كخشيةِ اللهِ أو أشدَّ

=وكذا (التفسير الكبير) ، ج١٠ ، ص١٦٢ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٤٤ .

١ ــ قال ابن هشام في (المغني) : له خمسة معانٍ ، أحدها : التشبيه ، والثاني : التعليل ، والثالث : الاستعلاء أي بمعنى (على) ، والرابع : المبادرة ــ وهو غريب جداً ــ ، والخامس : التوكيد ، وهي الزائدة لزيادة التأكيد على المعنى . راجع ج١ ، ص١٧٦ وما بعدها .

و الأرجح من معانيها التشبيه كما ذكر السكاكي في (المفتاح) ، ص ٥٧ .

وعليه ستكون دراسته في هذه السورة المباركة بعون الله وتوفيقه .

٢ ــ الآية (٤٧) .

٣ ــ انظر تفسير ابن كثير ، ج١ ، ص ٥٠٩ .

خشيةً وقالوا ربَّنا لمَ كتبْتَ علينا القتالَ لولا أخرتَنا إلى أجلٍ قريبٍ قلْ متاعُ الدُّنيا قليلٌ والآخرةُ خيرٌ لمَنِ اتَّقى ولا تظلمونَ فتيلاً }[١] .

حــرف الجــر في قوله تعالى : { كخشية الله }[٢] صور هذا التشبيه المســوق مساق المبالغة في التوبيخ خشية هذه الفئة التي رغبت في تأخير العمــل بأمر الجهاد لخوفهم من بأس المشركين[٣] ، أقول : صوّر خشيتهم للناس بخشيتهم له سبحانه مع إيمانهم وعلمهم بقدرته سبحانه على نصرهم .

ومنه قوله تعالى :

{ ولــنْ تستطيعوا أنْ تعدِلوا بينَ النساءِ ولوْ حرصتُمْ فلا تميلوا كلَّ الميــلِ فــتذروها كالمُعــلّقةِ وإن تُصــلحوا وتــتّقوا فإنَّ اللهَ كانَ غفوراً رحيماً }[٤] .

لقد أضفى حرف التشبيه صورة حية على المشهد صور هذه الزوجة بالمعــلَّق الــذي لا يمــلك لنفسه قراراً ثابتاً يضع قدميه عليه ولا يستطيع الخــلاص مــنه فــلا هي زوجة ولا هي مطلقة وقرن هذا المشهد المروع (بالهــتاف المؤثــر العميق في النفوس المؤمنة للتجاوز عما ليس في طاقة الإنسان { وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً })[٥] .

---

١ ــ الآية (٧٧) .

٢ ــ هــذا مــن قــبيل إضافة المصدر إلى مفعوله . انظر (التبيان في إعراب القرآن) لأبي البقاء العكبري ،ج١ ، ص٣٧٤ .

وكذا (الكشاف) للزمخشري ، ج١ ، ص٢٨٢ .

وكذا (التفسير الكبير) للرازي ، ج١٠ ، ص١٨٥ .

وتفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٥١ .

وكذا للألوسي ، م٢ ، ج٥ ، ص٨٥ .

٣ ــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٥ ، ص١٢٥ .

٤ ــ الآية (١٢٩) .

٥ ــ انظر في (ظلال القرآن) لسيد قطب ، ج٢ ، ص ٥٤٢ .

الفصلُ الثاني

نظمُ الجملةِ

المبحث الأول : الجملة الخبرية .

المبحث الثاني : الجملة الإنشائية .

المبحث الأول

الجملة الخبرية

المطلب الأول : التقديم والتأخير .

المطلب الثاني : الحذف والذكر .

المبحث الأول : الجملة الخبرية

المطلب الأول : من حيث التقديم والتأخير .

لا يسعني في هذا الموضوع بعد الاطلاع على روائعه إلا أن أقول كما قال شيخ البلاغة وإمامها : (هو باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفترٌ لك عن بديعة ، ويقضي بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك ، أن قدم فيه شيء ، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان)[١] .

أحس عبد القاهر كما أحس الجميع أن للتقديم والتأخير مزية فريدة ، ترفع درجات الكلام إلى منابر البلاغة ومنصات الإعجاز ، وخاصة عندما يكون هذا الكلام بعيداً عن عبث العابثين ، والغرض منه زيادة الإيمان واليقين ، ومن أحسنُ من الله قيلاً ؟!

ويدرس هذا القسم :

أولاً : التقديم والتأخير بين جزأي الجملة :

والتقديم بين جزأي الجملة يشمل تقديم المبتدأ على الخبر[٢] سواءً كان الخبر فعلاً أو في قوة الفعل ، كما يشمل تقديم الخبر على المبتدأ سواءً كان مفرداً أو شبه جملة .

---

١ ــ انظر (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني ، ص١٠٦ .

٢ ــ قد يبدو إطلاق التقديم على هذا غريباً للبعض ، وذلك لأن المبتدأ مكانه الأصلي التقديم ، ولكن البلاغة تبحث أسرار وقوع الكلمات في مواقعها ما جاء منها على الأصل وما جاء على خلافه ؛ لأنها يمكن أن تقول : لم جاء هذا الأسلوب على الأصل ، وكان يمكن فيه المخالفة ؟ وفي الإجابة على هذا السؤال تنتظم أسرار اللغة . لزيادة الإيضاح انظر (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري) للدكتور محمد أبي موسى ، ص٣٢٥ وما بعدها .

أ ــ تقديم المسند إليه على المسند :

لاحـــظ البلاغيون[١] أن تقديم المبتدأ على الخبر يكون لعدة أغراض بلاغية ، وذلك تبعاً لأحوال المبتدأ وأنواع الخبر .

ومن أهم تلك الأغراض : التشويق ، والاختصاص ، وتقوية الحكم ، والتعميم ، وقد تتفرع عنها أغراض أخرى خاصة بكل موقف .

١ ــ التشويق :

هـــو تلهف المتلقي لسماع الخبر حيث يدفعه المبتدأ إلى ذلك دفعاً بما يـــثير فـــي نفسه من فضول وشوق للوصول إليه . ومما جاء موضحاً هذا الدافع في سورة النساء قوله تعالى :

{ إن الذينَ يأكلونَ أموالَ اليتامى ظلماً إنما يأكلونَ في بطونِهِم ناراً وسيصلونَ سعيراً }[٢] .

إن تقديـــم المسند إليه (الذين) المؤكد بأداة التأكيد (إنّ) مع جملة الصلة المشيرة إلى وضع (قد سبق للسامع علم به)[٣] ، وما تحمله الجملة من خصائص لفظية دقيقة في (يأكلون) وكذا (ظلماً) . كل هذه المقدمات أججت في نفس المتلقي لهفة ملحة لمعرفة الخبر (المسند) لأنه يحمل حكماً إلهيـــاً فـــي حق هذه الفئة ، فجاء الخبر صورة من أدق الصور لإبراز هذا الأكـــل بأبشع ما يكون عليه الظلم ، وأبلغ ما يأتي به التنفير ، فصادف في نفس السامع الشوق ولا بد أنه سيثمر سلوكاً سوياً .

ثـــم لا يخـــفى ما تحمله الآية من جملة مؤكدات أولها حرف التوكيد (إنّ) واســـمية الجملة وتكرار الفاعل بإعادته في الضمير المتصل[٤] في (يأكـــلون) ، وإعادة هذه المؤكدات نفسها في جملة الخبر ، وكذا الإطناب

---

١ ــ انظر (المفتاح) ، ص١١٣ .

٢ ــ الآية (١٠) .

٣ ــ انظر (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني ، ص٢٠٠ .

٤ ــ وذلك لأن الفاعل الحقيقي هو لفظة (الذين) وإن سبقت الفعل وأعربت اسماً لإنّ .

في { يأكلون في بطونهم } ، وكذا الجزم بسوء المصير بأسلوب التوعد ونبرة الاستعلاء في قوله { وسيصلون سعيراً } . كل هذه المزايا أو معظمها تختفي لو جاء أسلوب النهي مباشراً بتقديم الفعل المنهي عنه مثل : لا تأكلوا أموال اليتامى أو نحو ذلك . فكان للتقديم مزية التشويق والتأكيد معاً .

ومثله قوله تعالى :

{ إنَّ الذينَ توفَّاهُمُ الملائكةُ ظالمي أنفسِهِم قالوا فيمَ كنتُمْ قالوا كُنَّا مستضعفينَ في الأرضِ قالوا ألم تكنْ أرضُ اللهِ واسعةً فتهاجروا فيها فأولئكَ مأواهُمْ جهنَّمُ وساءَتْ مصيراً }[1] .

فالمسند إليه المقدم المؤكد بإنَّ هو (الذين) وخبره اسم الإشارة (فأولئك)[2] وكل ما بين الاسم والخبر من جملة الصلة (توفاهم) والجملة الحالية (ظالمي أنفسهم) والحكاية عنهم في الحوار الدائر بينهم وبين الملائكة ، كل ذلك زاد التشويق إلى معرفة الحكم الذي يحمله الخبر في حقهم ، فجاء الخبر ليروي صدى المتعطش لمعرفته وتكون الحكاية كلها موعظة وعبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد .

ومن ذلك قوله تعالى :

{ إنَّ الذينَ آمنوا ثمَّ كفروا ثمَّ آمنوا ثمَّ كفروا ثمَّ ازدادوا كفراً لم يكنْ اللهُ ليغفرَ لهم ولا ليهديَهم سبيلاً }[3] .

الآية الكريمة تصور حال فئة ضالة ، (الإيمان عندهم أدون شيء وأهونه)[4] ، فلا تملك النفس إلا أن تضيق ذرعاً بهم وتتشوق إلى جزاء

---

١ ــ الآية (٩٧) .

٢ ــ انظر (التبيان في إعراب القرآن) للعكبري ، ج١ ، ص٣٨٤ .

وكذا (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص١٦٧ . قال الألوسي : اسم الإشارة مبتدأ أول و (ومأواهم) مبتدأ ثانٍ و (جهنم) خبر الثاني وهما خبر الأول ، والرابط الضمير المجرور في (مأواهم) والمجموع خبر (إن) والفاء لتضمن اسمها معنى الشرط أي اسم (إن) .

٣ ــ الآية (١٣٧) .

٤ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١، ص٥٩٥ .

رادع لهم ، فيطالعنا الخبرفي قوله تعالى { لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً } وأنى لهم الهداية والمغفرة ، والإيمان الخالص الثابت الذي يقتضيها غير موجود في صدورهم [١].

فكـان تقديـم المسند إليه المؤكد بالحرف الناسخ وجملة صلته وما عطف على الصلة عاملاً مهماً في بث الشوق إلى الخبر الذي لم يرد إلا بعد طول نفسٍ . ومنه كثير جداً في هذه السورة المباركة [٢].

٢ــ التخصيص :

وهو من المعاني البلاغية الرائعة التي يفيدها التقديم بشكل عام وفي تقديـم المسـند إليه بشكل خاص ، وقد أوضح له البلاغيون مطلبين يجب توافرهما في الجملة الخبرية :

الأول : أن يسبق المسند إليه بنفي .

والثاني : أن يكون الخبر فعلاً [٣] أو ما هو في قوة الفعل [٤] .

فإذا توافر هذان المطلبان في الجملة الخبرية كان التقديم للتخصيص لا محالة . مثال الخبر الفعلي قولك : " ما أنا قصرت في واجبي ، وما أنت سعيت في السوء " ، ومثال الخبر الشبيه بالفعل قولك : " ما أنت مقصر في

---

١ ــ انظر تفسير (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص١٧١ .

٢ ــ الآية (١٦) والآيتان (١٥٠ ــ ١٥١) وكذا الآية (١٥٢) وكذا (١٦٧) وكذا (١٦٨) .

٣ ــ هذا مذهب الشيخ عبد القاهر في (دلائل الإعجاز) ، ص١٢٤ .

٤ ــ هذا مذهب الزمخشري اعتماداً على تفسيره لآيات القرآن الكريم وتأمله هذا المعنى فيها . انظر تفسيره ، ج٢ ، ص٢٣١ وما بعدها .

وقد مثل بها السكاكي في (المفتاح) على إرادة التأكيد . انظر ص١١١ .

وكذا انظر (الإيضاح) للخطيب القزويني ، ص٢٣ .

وتـبع الزمخشري في هذا الرأي كثير من العلماء . انظر (البلاغة فنونها وأفنانها) ، ص ٢١٦ .

واجــبك " وقوله تعالى : { **وما أنت علينا بعزيز** }[١] حكاية على لسان قوم شعيب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم .

والتخصــيص فــي هذا الأسلوب يعني : نفي الخبر عن المسند إليه وإثــباته لغيره[٢] ، فكأن المتكلم يرمي بهذا هدفين ، أولهما : أن ينفي الخبر عن المسند إليه . وثانيهما : أن يثبته لغيره عن طريق التنويه لا التصريح ، وهذا ما فهمه نبي الله شعيب من قول قومه { وما أنت علينا بعزيز } لذا رد عليهم بقوله { **يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله** }[٣] مدللاً على أن ما جاء به هو من عند الله لا مراء فيه .

ومما جاء في التخصيص من سورة النساء قوله تعالى :

{ وليســتِ الــتوبةُ لــلذينَ يعملونَ السيئاتِ حتى إذا حضرَ أحدَهُمُ المــوتُ قــالَ إني تبتُ الآنَ ولا الذينَ يموتونَ وهُم كفارٌ أولئكَ أعتدنا لهم عذاباً أليماً }[٤] .

الآية الكريمة بدأت بأداة النفي لتوضح أنه (لا يكون تائباً من لم يتب إلا مع حضور الموت)[٥] فهذه لا تسمى توبة[٦] عند الله سبحانه وإن جدوا فــي طلبها ، وكذلك من مات على حال كفره وإن تفانى أهله في الاستغفار له . وقد ذيلت الآية ببرهان ناصع في نفي هذه التوبة ، قال تعالى : { أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً } .

---

١ ـ جزء من الآية (٩١) ، سورة هود .

٢ ـ انظر (الإيضاح)، ص٣٣ وما بعدها .

وكذا (شروح التلخيص) ، ج١ ، ص٣٩٦ .

٣ ـ جزء من الآية (٩٢) ، سورة هود .

٤ ـ الآية (١٨).

٥ ـ انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج٢ ، ص٢٥ .

وكذا (روح المعاني) للألوسي ، م٢ ، ج٥ ، ص٢٣٩ .

٦ ـ روى ابــن كــثير عن أُبيّ عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله يقبل توبة عبده أو يغفر لعبده ما لم يقع الحجاب " قيل وما وقوع الحجاب ؟ قال : " تخرج النفس وهي مشركة " . ولهذا قال الله تعالى : { أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً } . أي موجعاً شديداً مقيماً ، ج١ ، ص٤٦٥ .

إذن خصت توبة هذا الصنف بعدم القبول دون سائر أنواعها وهذا هو معنى التخصيص في الحكم .

٣ـ تقوية الحكم :

عندما يختل شرط من الشرطين المحققين للتخصيص يكون الغرض البلاغي من تقديم المسند إليه غالباً تقوية حكم الإسناد . إلا أن يوجد بالجملة ما يفيد التخصيص بغير تلك الشروط[١]فيكون الهدف مزدوجاً بين الاثنين . ولنا أن نسأل ماذا نعني بتقوية الحكم وما هي صوره ؟

الذي نعنيه بذلك هو قوة العلاقة في الإسناد بين المسند والمسند إليه ، أي إثبات الحدث الذي يحمله المسند إلى المسند إليه بشكل لا يخالطه الريب أو التقليل ؛ ليزيل ما بنفس المتلقي من الشك والتردد . أما الصور التي تقيد ذلك فهي:

١ـ أن يتقدم المسند إليه على النفي . ومثال ذلك في سورة النساء قوله تعالى :

{ إنَّ اللهَ لا يظلمُ مثقالَ ذرةٍ وإنْ تكُ حسنةً يضاعفْها ويؤتِ من لدُنْهُ أجراً عظيماً }[٢] .

وذلك أقوى وأبلغ من أن يقال : لا يظلم الله مثقال ذرة ؛ لضياع التأكيد بأن والتأكيد باسمية الجملة والتأكيد في التخصيص ، فقد تضافر السياق على الدلالة بأن الله وحده هو الذي لا يقع منه جنس الظلم ولا أقل القليل منه سبحانه جل شأنه .

ومثله قوله تعالى :

---

١ ـ أحياناً يتأخر النفي عن المسند إليه ، أو لا يوجد نفي البتة ، ومع هذا تعطي الجملة معنى التخصيص ويكون مرد ذلك السياق العام أو وجود ملابسات خاصة بالموقف . لكن التخصيص بهذه الصورة يفيد إثبات الحكم للمسند إليه وتفرده به دون غيره وذلك عندما تخلو الجملة من النفي وسيأتي بعد قليل بإذن الله وتوفيقه .

٢ ـ الآية (٤٠) .

{ إنَّ اللهَ لا يغفــرُ أنْ يُشركَ بهِ ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لمنْ يشاءُ ومن يشركْ باللهِ فقدْ ضلَّ ضلالاً بعيداً }(١) .

في هذه الصورة من النظم تقدم المسند إليه (الله) على حرف النفي (لا) فاكتسـب الأسـلوب بهذا قدراً كبيراً من القوة والتأكيد والتنبيه على جدّية الموقف وعدم المهادنة فيه . وكيف لا وهو عماد العقيدة .

ولـو جربـنا تغييره بأي صورة أخرى مثل : لا يغفر الله أن يشرك به ، لفات المعنى شيء كثير مما ذكر .

كما أننا نلمح هنا معنى التخصيص بجانب تقوية الحكم ، وذلك لتفرده سبحانه بهذا العمل حسب عدله ومشيئته .

ومنه قوله تعالى :

{ إنَّ اللهَ لا يحبُّ من كانَ مختالاً فخوراً }.

هـذا المقطـع تذييل لآية حملت أهم أمر نزل به القرآن ، وكذا عدة أمور لا يكون صلاح المؤمن إلا بها :

{ واعـبدوا اللهَ ولا تشـركوا بـهِ شيئاً وبالوالدينِ إحساناً وبذي القـربى واليتامى والمساكينِ والجارِ ذي القربى والجارِ الجنُبِ والصاحبِ بالجـنبِ وابـنِ السبيلِ وما ملكَتْ أيمانُكم إنَّ اللهَ لا يحبُّ مَن كانَ مختالاً فخوراً }(٢) .

أمـور شتى ، كلها تصور معنى الخضوع والإحسان ولين الجانب ، فـلا مراء في أن تذييلاً بهذه الجملة التي يتقدّم فيها المسند إليه (الله) على حرف النفي ليجلب معه جملة مؤكدات لتقوية حكم الإسناد .

ومثله قوله تعالى :

{ إنَّ اللهَ لا يحبُّ مَنْ كانَ خواناً أثيماً } .

وذلك في معرض النهي عن المجادلة عن الخائنين بقوله تعالى :

---

١ ــ الآية (١١٦) .

٢ ــ الآية (٣٦) .

{ ولا تجـادلْ عـن الذينَ يختانونَ أنفسَهم إنَّ اللهَ لا يحبُّ من كانَ خوّاناً أثيماً }[١] .

قال ابن عطية : (الخوان هو الذي تكرر منه الخيانة ، والأثيم : هو الــذي يقصدها)[٢] . فكيف لا يتأكّدُ حكم الإسناد في عدم محبة الله سبحانه وتعــالى لهمــا ؟ وأظنُّ أن هذين الموضعين السابقين لتقوية حكم الإسناد لا غيــر ؛ لأن مثل هذا الأمر لا يخص المولى وحده بل يدخل فيه كل صالح من عباده . والله أعلم وأحكم .

٢ـ مــن صور تقوية الحكم كون الخبر مثبتاً مع تقديم المسند إليه ومجيء المسند فعلاً أو في قوة الفعل .

وسر تأكيد الحدث وتقوية الحكم يعود إلى حالة نفسية وذهنية شرحها الإمام عبد القاهر قائلاً : (فإن ذلك من أجل أنه لا يؤتى بالاسم معرى من العوامل إلا بحديث قد نوي إسناده إليه . وإذا كان كذلك ، فإذا قلت : " عبد الله " ، فقــد أشــعرت قلــبه بذلــك أنك قد أردت الحديث عنه ، فإذا جئت بالحديث فقلت مثلاً : " قام " أو قلت : " خرج " أو قلت : " قدم " فقد علم ما جــئت بــه وقــد وطأت له وقدمت الإعلام فيه ، فدخل على القلب دخول المــأنوس بــه ، وقبِلَهُ قبول المهيأ له ، المطمئن إليه ، وذلك لا محالة أشد لثــبوته ، وأنفى للشبهة ، وأمنع للشك ، وأدخل في التحقيق)[٣] . وفي هذا تقويــة للحكم الذي يسند إلى هذا الاسم المسند إليه . ثم إنه ينقسم في سورة النساء قسمين :

أ ــ كون الجملة حالية : وقد وردت الجملة الحالية المبتدئة باسم في ســتة مواضــع من سورة النساء ، واتسمت جميعها بطابع الإثبات مع كون

---

١ ــ الآية (١٠٧) .

٢ ــ انظر (المحرر الوجيز) ، ج٢ ، ص١١٠ .

٣ ــ انظر (دلائل الإعجاز) ، ص١٣٢ .

المسند إليه ضميراً والمسند مشتقاً . إلا واحدة كان المسند جاراً ومجروراً ، لكنه يؤول بفعل أو بمشتق[١] . ففي قوله تعالى :

{ يا أيُّها الذينَ آمنوا لا تقربوا الصلاةَ وأنتم سُكارى حتى تعلموا ما تقولونَ ... }[٢] .

الجملة الحالية[٣] { وأنتم سكارى } أكدت النهي عن قرب الصلاة وهم على تلك الحال المنافية لتمام العقل والمشاعر (لأن السكر علة تلحق العقل)[٤] وصاحبها جدير بالابتعاد عن أفضل عمل في الإسلام . ومن هنا كانت مؤذنة بتغيير شأن الخمر والتنفير منها لأن المخاطبين يومئذ هم أكمل الناس إيماناً وأعقلهم بالصلاة فلا يرمقون شيئاً يمنعهم من الصلاة إلا بعين الاحتقار[٥] وكان هذا تدريباً على تركها . وسكارى جمع تكسير سكران زنة فعلان صفة مشبهة باسم الفاعل ، ولهذا فهي في قوة الفعل .

وكذا قوله تعالى :

{ فإن كانَ من قومٍ عدوٍ لكمْ وهو مؤمنٌ فتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ }[٦] .

وكذا قوله تعالى :

{ ومن يعمل من الصالحاتِ من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلونَ الجنة ولا يظلمونَ نقيراً }[٧] .

---

١ ــ انظر (شرح ابن عقيل) ، ج١ ، ص١٩٧ ، وقال ابن مالك رحمه الله :

وأخبروا بظرفٍ أو بحرفِ جرْ ناوينَ معنى كائنٍ أو استقرْ

٢ ــ جزء من الآية (٤٣) .

٣ ــ انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج٢ ، ص٥٧ .

٤ ــ انظر (الكشاف) للزمخشري ، ج١ ، ص٢٦٩ .

٥ ــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٥ ، ص٦١ .

وهذا الحكم ضمن الأحكام التدريجية لتحريم الخمر ، وقد حرمت الخمر نهائياً بآية المائدة :

{ يا أيها الذينَ آمنوا إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ من عملِ الشيطانِ فاجتنبوهُ لعلكُمْ تفلحونَ } ، الآية (٩٠) .

٦ ــ جزء من الآية (٩٢) .

٧ ــ الآية (١٢٤) .

وكذا قوله عز وجل :

{ ومـــنْ أحســـنُ ديناً ممَّنْ أسلمَ وجهَهُ للهِ وهو محسنٌ واتَّبعَ ملّةَ إبراهيمَ حنيفاً }[١] .

وكذا قوله عز من قائل :

{ إنَّ المنافقينَ يخادعونَ اللهَ وهوَ خادعُهُمْ ... }[٢] .

فـــالجمل الحاليـــة : { وهـــو مؤمن } ، { وهو محسن } ، { وهو خادعهم } جميعهـــا بـــدأت بالضـــمير الذي هو مبتدأ (مسند إليه) وأُخِّر فيها المسند إشـــعاراً بـــتقوية الحكـــم وعمق الصلة بين جزئيها : المسند والمسند إليه ، وتأكيداً للحدث الذي أتت فيه الجملة حالاً .

ب ــ ومـــن أمثلة تقوية الحكم التي تعود إلى الحالة النفسية والذهنية أيضاً – وهي متعددة في هذه السورة المباركة – قوله تعالى :

{ واللهُ يـــريدُ أنْ يـــتوبَ عـــليكُمْ ويريدُ الذينَ يتبعونَ الشهواتِ أن تميلوا ميلاً عظيماً }[٣] .

المســـند إليه المقدم في جملة : { والله يريد أن يتوب عليكم } أفاد بلا شـــك تـــأكيد وتقويـــة حكم الإسناد ، ويتضح ذلك أكثر عند مقارنة موضع الشاهد بالآيتين السابقة واللاحقة في : **{ يريدُ اللهُ ليبيِّنَ لكم }**[٤] ، و **{ يريدُ اللهُ أنْ يُخفِّفَ عنكم }**[٥] ، بل حتى تكملة الآية نفسها عند بيان إرادة متبعي الشهوات : { ويريد الذين يتبعون الشهوات } . جميعها تقدّمَ فيها المسند على المســـند إليـــه ، والغـــرض من المخالفة في { والله يريد } يكمن في نوعية

---

١ ــ الآية (١٢٥) .

٢ ــ جزء من الآية (١٤٢) .

٣ ــ الآية (٢٧) .

٤ ــ جزء من الآية (٢٦) .

٥ ــ جزء من الآية (٢٨) .

الحـــدث الفعلي ؛ لأن إرادة التوبة عمل خاص به سبحانه ، ومن لم يتب الله عـــليه فلن تنفعه توبة من في السماوات والأرض ، وذلك بخلاف المواضع الأخـــرى فالأمـــر فيهـــا على اتساع ؛ لأن التبيين والتخفيف المطلوبين في الآيتين السابقة واللاحقة من الأعمال التي تدخل ضمن أمور التكليف .

كمـــا أن إرادة متبعي الشهوات – وإن كانت مستمرة – إلا أنها في ضعف وتذبذب دائمين . إذن تقديم المسند إليه أفاد تقوية الحكم لا محالة مع خصوصية الحدث لله سبحانه وتعالى . وهذا ما ذهب إليه الشيخ عبد القاهر رحمـــه الله . وهـــو ليـــس كذلـــك بالنسبة للسكاكي ؛ لأنه اشترط في إفادة الاختصاص أمرين :

أحدهما : أن يجوز تقدير كونه في الأصل مؤخراً ، بأن يكون فاعلاً في المعنى فقط كقولك : " أنا قمت " فإنه يجوز أن تقدر أصله : " قمت أنا " على أنَّ " أنا " تأكيد للفاعل الذي هو التاء في " قمت " . فقُدم " أنا " وجُعل مبتدأ .

وثانيهمـــا : أن يقـــدر كونـــه كذلك[١] ، أي يعتبر بصحة تقديره[٢] . وأوضـــح ذلـــك الخطيـــب بقولـــه : فإن انتفى الثاني دون الأول ، كالمثال المذكـــور إذا جـــرى على الظاهر – وهو أن يقدر الكلام مبنياً على المبتدأ والخبر – ، ولم يقدر تقديم أو تأخير ، أو انتفى الأول بأن يكون المبتدأ اسماً ظاهراً فإنه لا يفيد إلا تقوية الحكم[٣] دون التخصيص .

وأكده السكاكي صراحة في موضع آخر بقوله : (حق المعرف حمله على وجه تقوية الحكم وحق المنكر حمله على وجه التخصيص)[٤]

---

١ ــ انظر (الإيضاح) ، ص٦٦ .

٢ ــ انظر مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني ضمن (شروح التلخيص) ، ج٢ ، ص٤٠٧ .

٣ ــ انظر (الإيضاح) ، ص٦٦ .

٤ ــ انظر (المفتاح) ، ص١٠٧ .

مع أن نظم الجملة بهذا التركيب : { والله يريد أن يتوب عليكم } يفيد التأكيد باسمية الجملة وبدئها بلفظ الجلالة – وهو محور الحديث – وبتكرار الفــاعل . كل هذا يقتضي تأكيد الخبر وتحقيقه وتخصيصه بالمولى سبحانه وتعــالى دون ســواه . وفــي هذا أعظم بشرى لأمة محمد صلى الله عليه وسلم . والله أعلم وأحكم .

ومن هذا القبيل قوله تعالى :

{ ويسْتَفْتُونَكَ في النِّساءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُم فِيهِنَّ ... }[١] .

قدم المسند إليه في { الله يفتيكم } لتمييز هذا الإفتاء عن غيره ، حيث إن المسند أمر تحيّرت فيه عقول القوم وهم أصل الإسلام ويعلمون بإسلامهم أن الجاهــلية جحــدت النساء أبسط حقوقهن ؛ لذا طلبوا (الإفتاء الذي هو تــبيين المــبهم وتوضيح المشكل منه سبحانه)[٢] . ومع ما أفاده تقديم لفظ الجلالـــة مــن تقويـــة حكــم الإسناد حمل الأسلوب معنى الوعد والبشرى المســتمرين بدليل الفعل المضارع منبهاً المسلمين على وجوب العودة إلى كــتاب الله في الأحكام التي جاءت في شأنهن[٣] ، فتكون المسلمة في حماية دائمة من ظلم الرجل لضعفها أمامه .

ومثله قوله تعالى :

{ يستفتونكَ قل اللهُ يفتيكم في الكلالةِ ... }[٤] .

وقوله تعالى :

{ إنَّ المنافقينَ يخادعونَ اللهَ وهوَ خادعُهُمْ وإذا قاموا إلى الصلاةِ قاموا كُسالى يراءونَ الناسَ ولا يذكرونَ اللهَ إلاّ قليلاً }[٥] .

---

١ ــ جزء من الآية (١٢٧) .

٢ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٩٠ .

٣ ــ انظر تفسير (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٣٥٩ .

٤ ــ جزء من الآية الأخيرة (١٧٦) .

٥ ــ الآية (١٤٢) .

فقــد تطــلب تصوير الموقف تأكيد نسبة الخداع إلى هؤلاء المنافقين لتأصــيل هذه الصفة في نفوسهم ، فقدم المسند إليه المؤكد بأداة التأكيد ليدل دلالــة قويــة عــلى ذلــك ، ولهذا كان جزاؤهم من جنس العمل وبأسلوب ممــاثل[١] فــي قوله تعالى : { وهو خادعهم } . وقد فُسِّر هذا الخداع منه ســبحانه وتعــالى بأنه استدراج لهم في الدنيا وحتى يوم المعاد يعطون كما يعــطى المؤمنون المخلصون نوراً فيمشون به مطمئنين مستأنسين حتى إذا كانوا في أمس الحاجة إليه نُزِع عنهم[٢]، واستحقوا سوء المصير الموضح بقوله تعالى :

{ إنَّ المــنافقينَ فــي الــدركِ الأســفلِ مــن النارِ ولن تجدَ لهم نصيراً }[٣] . بصورة مشابهة أيضاً في تقوية الحكم[٤] .

ومنه أيضاً قوله تعالى :

{ لكنِ اللهُ يشهدُ بما أنزلَ إليكَ أنزلَهُ بعلمِهِ والملائكةُ يشهدونَ وكفى باللهِ شهيداً }[٥] .

تقدم المسند إليه في : { الله يشهد } وكذا { والملائكة يشهدون } لنفس الغــرض الســابق ، كما يدل هذا الموضع على التخصيص أيضاً دون قيد النفي ، وهو كثير جداً في سورة النساء وفي القرآن بشكل عام .

---

١ ــ المســند (خــادع) اسم فاعل وهو في قوة الفعل ، إلا أن البلاغيين يجعلونه أضعف لمشابهته الاسم الجامد في أن له صورة واحدة في التكلم والخطاب والغيبة .

انظر مختصر السعد ضمن (شروح التلخيص) ، ج١ ، ص٤٢١ .

وكذا (المنهاج الواضح) لحامد عوني ، ج٢ ، ص٥٧ .

٢ ــ انظر (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٣٧٧ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٩٨ .

وكذا (التحرير والتنوير) ، ج٥ ، ص٢١٩ .

٣ ــ الآية (١٤٥) .

٤ ــ يقدر المسند بفعل أو بمشتق محذوف يعلق به الجار والمجرور .

٥ ــ الآية (١٦٦) .

اسمع معي قوله تعالى : **{ فإنَّ العزةَ للهِ جميعاً }**[١] ألا تشعر أن بها مع تقوية الحكم تخصيصَ هذا الأمر له وحده جل شأنه ؟

وكذا قوله تعالى :

{ إنَّ اللهَ جامعُ المنافقينَ والكافرينَ في جهنَّمَ جميعاً }[٢] .

وكذا قوله عزَّ من قائل :

{ فاللهُ يحكمُ بينهم يومَ القيامةِ ... }[٣] .

وقوله :

{ واللهُ أعلمُ بإيمانكم ... }[٤] .

وقوله :

{ إنَّا أوحينا إليكَ كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيينَ من بعدِهِ وأوحينا إلى إبـراهيمَ وإسـماعيل وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وعيسى وأيوبَ ويونسَ وهارونَ وسليمانَ وآتينا داودَ زبوراً }[٥] .

أمـور دالـة على تفرد الله جل جلاله بها وحده ، فيثبت بذلك الحكم للمسـند إليه وينتفي عن غيره . وهذا هو التخصيص بالإثبات ، وهو عكس الأول صورة ومعنى .

فـي كل ما مر معنا كان المسند إليه معرفة ، فكيف إذا أتى نكرة ؟! هـناك غـرض وحيد اتفق عليه البلاغيون بالنسبة لتقديم المسند إليه النكرة وهو التخصيص[٦] لا غير . وأمثلته في سورة النساء محدودة جداً منها قوله تعالى :

---

١ ــ جزء من الآية (١٣٩) .

٢ ــ جزء من الآية (١٤٠) .

٣ ــ جزء من الآية (١٤١) .

٤ ــ جزء من الآية (٢٥) .

٥ ــ الآية (١٦٣) .

٦ ــ انظر (مفتاح العلوم) للسكاكي ، ص١٠٧ .

وكذا (الإيضاح) للخطيب ، ص٣٦ .

{ وإن كـــانَ رجلٌ يورثُ كلالةً أو امرأةٌ ولهُ أخٌ أو أختٌ فلكلِّ واحدٍ منهما السدُسُ ... }[١] .

جاء المسند إليه (رجل) نكرة مقدمة على المسند (كلالةً) ؛ لإرادة تخصيصه بحالة الحكم الذي يحمله المسند وقيد بحالة مخصوصة ، والتقييد هــنا يخص كل الجنس أي : أيَّ رجل من جنس الرجال مات وهو يتصف بهذا الوضع الأسري[٢] أو أي امرأة من جنس النساء كذلك[٣] .

وقد اضطردت هذه الصورة من التخصيص في اسم (لا) التي لنفي الجنس في سورة النساء المباركة من مثل قوله تعالى :

{ فإن لم تكونوا دخلتُمْ بهِنَّ فلا جناحَ عليْكُمْ ... }[٤] .

وكذلك قوله تعالى :

{ ولا جناحَ عليكُمْ فيما تراضيتُمْ بهِ من بعدِ الفريضةِ ... }[٥] .

وكذا قوله :

{ ولا جــناحَ عــليكُمْ إنْ كانَ بكُمْ أذىً من مطرٍ أو كنتُمْ مرضى أنْ تَضعوا أسلحتَكُمْ ... }[٦] .

جميـــع هذه المواضع أتى فيها المسند إليه نكرة . وقد يعود هذا إلى أصل لغوي حيث يشترط لصحة معنى النفي بهذه الأداة دخولها على نكرة ،

وكذا (شروح التلخيص) ، ج١ ، ص٤٠٣ وما بعدها .

وكذا (دلائل الإعجاز) للجرجاني ، ص١٤٢ وما بعدها .

١ ــ جزء من الآية (١٢) .

٢ ــ لأن قولــه تعالى { يورث كلالة } فيه احتمالان . الأول : كل من مات لا والد له ولا ولد فهو كلالــة ورثــته . أو كــل وارث ليس بوالد للميت ولا ولد فهو كلالة مورِّثه . وهذا مشتق من جهة العربية موافق للتنزيل والسنة .

انظر (لسان العرب) مادة (كلل) .

٣ ــ انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج١ ، ص٤٩٢ .

٤ ــ جزء من الآية (٢٣) .

٥ ــ جزء من الآية (٢٤) .

٦ ــ جزء من الآية (١٠٢) .

ولكـــن مع هذا فقد أدت معنى التخصيص في كافة المواضع السابقة ، حيث خُـــصَّ المؤمنون المنسحب عليهم الخطاب بنفي جنس الجناح عنهم في تلك الأحكام مع إثباته لغيرهم . أما قوله تعالى :

{ ليجمعنَّكُمْ إلى يومِ القيامةِ لا ريبَ فيه ... }[١] .

فالتقديم مع التنكير أفاد التخصيص . ومنه قوله تعالى :

{ لا خيــرَ فـــي كثيرٍ من نجواهُمْ إلاّ من أمرَ بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصـــلاحٍ بينَ الناسِ ومنْ يفعلْ ذلكَ ابتغاءَ مرضاتِ اللهِ فسوفَ نؤتيهِ أجراً عظيماً }[٢] .

والتخصـــيص حاصـــل مـــن إفـــادة نفي جنس الخير عن كثير من نجواهم .

ب ــ تقديم المسند على المسند إليه :

المسند تأخيره أظهر ؛ خاصة في الجملة الاسمية ، ولكن قد يقتضي المقام تقديمه فما هي مقتضيات ذلك ؟

<u>١ــ تخصيصه بالمسند إليه على سبيل الإثبات :</u>

كقولـــه تعالى : **{ لكم دينُكُمْ وليَ دينِ }**[٣]. قدم المسند (لكم) ليفيد تخصيصـــه بالمســـند إليه[٤] (دينكم) وقصره عليه . أي إثبات المسند إليه للمسند خاصة لا يتعداه إلى غيره ، وهذا لأن الجملة مثبتة .

ويمثل هذا اللون في سورة النساء آيات كثيرة منها على سبيل المثال قوله تعالى :

---

١ ــ جزء من الآية (٨٧) .

٢ ــ الآية (١١٤) .

٣ ــ الآية (٦) ، سورة الكافرون .

٤ ــ انظر (مفتاح العلوم) ، ص١٠٥ .

{ ولا تتمنَّوا ما فضَّلَ اللهُ بهِ بعضَكُمْ على بعضٍ للرجالِ نصيبٌ ممّا اكتسبوا وللنساءِ نصيبٌ ممّا اكتسبْنَ واسألوا اللهَ من فضلِهِ إنَّ اللهَ كانَ بِكُلِّ شيءٍ عليماً }[١] .

فكان تقديم المسند (للرجال) على المسند إليه (نصيب) لإثبات هذا النصيب للرجال خاصة ، ثمَّ نصيب للنساء خاصة[٢] . وهكذا حقق تقديم المسند حكماً شرعياً عظيماً وجديداً على من نزل عليهم القرآن الكريم .

وقد تقدم الخبر (المسند) على المسند إليه أيضاً بغرض تخصيص المسند بالمسند إليه على سبيل الإثبات في قوله تعالى :

{ فمنهم منْ آمنَ بهِ ومنهم منْ صدَّ عنْهُ وكفى بجهنَّمَ سعيراً }[٣] .

فقد خص المولى أسلاف اليهود بالانقسام والتذبذب ونعى على أخلافهم هذا لأنهم على نهج أسلافهم سائرون ، تبكيتاً لهم ومنقصة وتوعداً[٤] بسوء المصير بدليل آخر الآية .

وعلى نقيضه معنوياً جاء قوله تعالى :

{ والذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ سندخلُهُمْ جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها أبداً لهُم فيها أزواجٌ مطهرةٌ وندخلُهُمْ ظلاً ظليلاً }[٥] .

ومنه قوله تعالى :

{ مَن يشفعْ شفاعةً حسنةً يكُنْ له نصيبٌ منها ومنْ يشفعْ شفاعةً سيئةً يكُنْ لهُ كِفْلٌ منها وكانَ اللهُ على كلِّ شيءٍ مقيتاً }[٦].

---

١ ـ الآية (٣٢) .

٢ ـ وقد كانوا يجحدون نساءهم ذلك الحق حتى أنزل الله لهم الهدى . وقدم نصيب الرجال على نصيب النساء مراعاة لما لهم عليهن من درجة ، ومداراة لهم في تغيير ما رسخ في أذهانهم من هضم لحقوقهن .

٣ ـ الآية (٥٥) .

٤ ـ انظر (التحرير والتنوير) ، ج٥ ، ص٨٩ .

٥ ـ الآية (٥٧) .

٦ ـ الآية (٨٥) .

ومن أوضح ما يمثل الاختصاص في الإثبات قوله تعالى :

{ ولله ما في السماوات وما في الأرض وكانَ اللهُ بكلِّ شيءٍ محيطاً }[١] .

فقد خص سبحانه نفسه وحده دون سواه بهذا الملك والملكوت في السماوات والأرض ، وقد ساعد على توضيح هذه الصورة من الاختصاص تقديم المسند على المسند إليه . وأمثال هذا كثير[٢] في سورة النساء .

ثم إنه لا يقتصر على الجملة الاسمية بل قد يعطي تقديم المسند الفعلي ذلك أيضاً ، وأظهر أغراضه التخصيص للتشريف وذلك مثل قوله تعالى :

{ بل رفعَهُ اللهُ إليهِ وكانَ اللهُ عزيزاً حكيماً }[٣] .

فأتى تخصيص عيسى عليه السلام بالرفع الحاصل من المولى عز وجل بلفظ الجلالة تكريماً له وتشريفاً ورداً على من أنكر هذا . ومن هذا القبيل قوله تعالى :

{ وكلَّمَ اللهُ موسى تكليماً }[٤] .

فقدم الفعل (كلم) لما فيه من الاستغراب[٥] والتشريف لموسى عليه أفضل الصلاة والسلام . والله أعلم وأحكم .

٢ــ تخصيصه بالمسند إليه على سبيل النفي :

أما إذا كانت الجملة منفية فيكون المعنى نفي المسند عن المسند إليه خاصة وإثباته لغيره مثل قوله تعالى : **{ لا فيها غولٌ }**[٦] ، حيث نفى

---

١ ــ الآية (١٢٦) .

٢ ــ انظر الآيات (٢٥) ، (١٣١) ، (١٣٢) ، (١٧٠) .

٣ ــ الآية (١٥٨) .

٤ ــ جزء من الآية (١٦٤) .

٥ ــ فكلامه سبحانه مباشرة لم تجربه العادة .

٦ ــ جزء من الآية (٤٧) ، سورة الصافات .

الغــول عــن خمر الجنة خاصة وأثبته لسواها من الخمور ، ولهذا لم يقدم المسند في (لا ريب) في قوله تعالى : **{ ذلكَ الكتابُ لا ريبَ فيهِ }**[١] حتى لا يثبت الريب لباقي الكتب المنزلة من عند الله غير القرآن[٢] .

ومثاله في سورة النساء قوله تعالى :

{ ومـــا كـــانَ لمؤمنٍ أنْ يقتُلَ مؤمناً إلا خطأً ومنْ قتلَ مؤمناً خطأً فتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ وديةٌ مسلَّمةٌ إلى أهلِهِ ... }[٣] .

فقـــد نفى المولى عن المؤمن خاصة قتل أخيه المؤمن عمداً لأنه مما يوجـــب غضـــب الله عليه ، والمؤمّلُ من المؤمن تحاشيه عن ذلك والنفور منه .

وقد يأتي النفي بالاستفهام الإنكاري كما في قوله تعالى :

{ أمْ لهُمْ نصيبٌ منَ المُلْكِ فإذاً لا يؤتونَ الناسَ نقيراً }[٤] .

الآيـــة نـــزلت في أهل الكتاب فقد خصهم المولى بهذا الإنكار الذي تحملـــه همزة الاستفهام ، وأنكر عليهم أن يكون لهم نصيب من ملك[٥] الله لأن حـــالهم يـــدل عـــلى اعتقادهم بهذا ، وعلل سبحانه عدم استحقاقهم لهذا النصيب وأنكره عليهم لما هم عليه من اللؤم ودناءة النفس[٦] ؛ لأنه لو جعل لهم نصيباً من الملك لا يعطون الناس نقيراً منه لشدة بخلهم وقوة حسدهم[٧] والمقصود من هذا التخصيص المبالغة في احتقارهم ، فهم أحقاء بذلك .

---

١ ــ جزء من الآية (٢) ، سورة البقرة .
٢ ــ انظر في هذا (شروح التلخيص) ، ج٢ ، ص١٠٩ وما بعدها .
٣ ــ جزء من الآية (٩٢) .
٤ ــ الآية (٥٣) .
٥ ــ انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٧٤ .
٦ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٣٦ .
٧ ــ انظر تفسير (فتح القدير) للشوكاني ، ج١ ، ص٤٧٨ .

ثانياً : التقديم والتأخير في معمولات الجملة :

ومن أمثلته قوله تعالى :

{ وإذا حضــرَ القسمةَ أولو القُربى واليتامى والمساكينُ فارزقوهُمْ منهُ وقولوا لهُمْ قولاً معروفاً }[١] .

قُــدّم المفعول به هنا (القسمة) لفرط العناية به ؛ (لأنها المبحوث عــنها ، ولأن في الفاعل تعداداً ، فلو روعي الترتيب يفوت تجاوب أطراف الكلام)[٢] ، وقيل : قدمت القسمة لتكون أمام الحاضرين في اللفظ كما أنها أمامهم في الواقع[٣] .

ومثله قوله تعالى :

{ حتّى إذا حضرَ أحدَهُمُ الموتُ ... }[٤] .

قــدم المفعول به (أحدهم) إمعاناً في التهويل والشذب لهذا المتهاون العنيد في أمر التوبة حتى وصل به الحال إلى حياض الموت ، فصور هذا التقديم التسابق العنيد بين الإنسان والموت ؛ لذا قدم المفعول على الفاعل .

ومن تقديم المفعول به قوله تعالى :

{ وكُلاًّ وعدَ اللهُ الحُسنى ... }[٥] .

فكــلمة (كلاً) مفعول أول بـــ (وعدَ) مقدم عليه ، و (الحسنى) مفعــول ثــان[٦] ، وســر تقديمه ما تحمله لفظة (كل) في هذا المقام من

١ــ الآية (٨) .

٢ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٤٨٧ .

٣ــ انظر (روح المعاني) ، م٢ ، ج٤ ، ص٢١٢ .

٤ــ جزء من الآية (١٨) .

٥ــ جزء من الآية (٩٥) .

٦ــ انظر (التبيان في إعراب القرآن) ، ج١ ، ص٣٨٣ .
وكذا (الدر المصون) ، ج٢ ، ص٤١٧ .

البشـــرى لكافـــة المؤمنين بما فيها من إرادة العموم ؛ لأنهم فسروا الحسنى بالجنة ، وقد وُعِد بها المؤمنون كافة[١] .

وكما يقدم المفعول يقدم الحال ، مثل قوله تعالى :

{ رُسُـــلاً مبشِّـــرينَ ومُـــنذرينَ لئلاّ يكونَ للناسِ على اللهِ حُجَّةٌ بعدَ الرُّسُلِ وكانَ اللهُ عزيزاً حكيماً }[٢] .

(رســـلاً) حـــال موطئة لما بعدها[٣] تنبيهاً على عظم مكانتهم وما حُمّلوا به من قبل الله ؛ لأن إرسالهم من قِبَلِه تعالى حجة دامغة لكافة الناس وهداية لهم إلى الطريق المستقيم .

وقد يقدم الظرف أيضاً مثل قوله تعالى :

{ يومَـــئذٍ يودُّ الذينَ كفروا وعصَوُا الرسولَ لو تُسوّى بِهِمُ الأرضُ ولا يكتمونَ اللهَ حديثاً }[٤] .

قـــال العكبري[*] فيها : (والأصل في إذا : إذ ، وهي ظرف زمان مـــاض ، فقد استعملت هنا للمستقبل ، وهو كثير في القرآن ، فزادوا عليها التـــنوين عوضـــاً مـــن الجملة المحذوفة ، تقديره : يومئذ تأتي بالشهداء ،

١ـ انظر (المحرر الوجيز) ج٢ ، ص٩٨ .

٢ـ الآية (١٦٥) .

٣ـ انظـــر (التـــبيان فـــي إعراب القرآن) ، ج١ ، ص٤١٠ . وقد جعل لها احتمالات أخرى كأن تكـــون مفعـــولاً بفعل محذوف يقدر بـــ : أرسلنا رسلاً ، أو منصوبة على المدح أي : أعني رسلاً ، ولكن الحال أظهر .

٤ـ الآية (٤٢) .

* الإمـــام العلامـــة الـــنحوي محب الدين أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري ، ولد سنة ثمان وثلاثيـــن وخمسمائة ، قرأ بالروايات ، وبرع في الفقه والأصول ، ومن تصانيفه (تفسير القرآن) و (إعراب القرآن) ، توفي سنة ست عشرة وستمائة للهجرة .

انظر (تهذيب سير أعلام النبلاء) ، ج٣ ، ص١٨٤ .

وحـــركت الـــذال بالكســـر لسكونها وسكون التنوين بعدها)[١] . وغرضه البلاغي الاهتمام بهذا اليوم شديد البأس .

ومن تقديم الجار والمجرور على عامله قوله تعالى :

{ فبظلمٍ منَ الذينَ هادوا حرّمنا عليهِمْ طيّباتٍ أُحِلَّتْ لهُمْ ... }[٢] .

قـــدم هذا الجار والمجرور (بظلم) للتنبيه من أول الآية على سبب ذلـــك الـــتحريم الذي لم يفرضه الله عليهم منذ البداية ، وإنما فرض عليهم لتعســـفهم ، فكـــان إيذانـــاً بكمـــال عِظم ظلمهم الخارج عن حدود الأشباه والأشكال[٣] .

وقـــد تتقدم هذه المعمولات بعضها على بعض ، وهو كثير جداً في هذه السورة ، وأهم الأغراض لذلك التقديم : شدة تعلق هذا المقدم بالحدث ، وكذا للفت الانتباه إليه وحصر الاهتمام به . ومن ذلك قوله تعالى :

{ وجئنا بكَ على هؤلاءِ شهيداً }[٤] .

فـــي هـــذا المقطـــع من الآية عدة معمولات ، منها كلمة (شهيداً) الواقعـــة حـــالاً ، وكـــان حقها أن تلي الفعل مباشرة ، إلا أننا نرى الجار والمجـــرور (بـــك) وكـــذا (على هؤلاء) قُدّم عليها ؛ وذلك لما في هذا المقطـــع من مؤثرات نفسية داعبت خواطرالنبي – صلى الله عليه وسلم – حتى أوصلته إلى البكاء .

١ــ انظر (التبيان في إراب القرآن) ، ج١ ، ص٣٥٩ .

٢ــ جزء من الآية (١٦٠) .

٣ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٦٠٥ .

٤ــ جزء من الآية (٤١) .

ومما هو منه بسبيل قوله تعالى :

{ إنْ تجتنــبوا كــبائرَ ما تنهَونَ عنهُ نكفِّرْ عنكُمْ سيِّئاتِكُمْ ونُدخِلْكُمْ مُدخلاً كريماً }[1] .

وقوله تعالى :

{ فما جعلَ اللهُ لكُمْ عليهِمْ سبيلاً }[2] .

وقوله :

{ ومَــنْ يُهاجِرْ في سبيلِ اللهِ يجدْ في الأرضِ مُراغَماً كثيراً وسَعَةً ... }[3] .

وقوله تعالى :

{ وأنــزَلَ اللهُ عــليكَ الكتابَ والحكمةَ وعلَّمَكَ ما لم تكنْ تعلمُ وكانَ فضلُ اللهِ عليكَ عظيماً }[4] .

وقوله تعالى :

{ لعنَهُ اللهُ وقالَ لأتّخذنَّ مِنْ عبادِكَ نصيباً مفروضاً }[5] .

وكذا قوله تعالى :

{ أيبتغونَ عندَهُمُ العزَّةَ فإنَّ العزةَ للهِ جميعاً }[6] .

وتقديم المعمولات في هذه المواضع مع ما فيه من معنى الاختصاص إلا أنه يُلمح لكل موضع منهم خصوصية تميزه عن غيره ، ففي قوله تعالى { نكفــر عــنكم سيئاتكم } قدم الجار والمجرور (عنكم) على المفعول به (سيئاتكم) تعجيلاًفي إيصال البشرى التي يحملها الفعل (نكفر) .

١ــ الآية (٣١) .

٢ــ جزء من الآية (٩٠) .

٣ــ جزء من الآية (١٠٠) .

٤ــ جزء من الآية (١١٣) .

٥ــ الآية (١١٨) .

٦ــ جزء من الآية (١٣٩) .

أمـــا فـــي قولـــه تعالى { فما جعلَ اللهُ لكم عليهم سبيلاً } فتعلو مع الاختصاص نبرة الجد والتأكيد للفت الانتباه لما تقدم من الجار والمجرور .

وتقديم الجار والمجرور في قوله تعالى { يجد في الأرض مراغماً } على المفعول (مراغماً) لما تطلبه نفس المهاجر من الاستقرار إلى الأرض أم الإنسان .

ونلمح ملمحاً آخر في قوله تعالى { وأنزل الله إليك الكتاب والحكمة } وهو التعطف والتكريم لخليل الرحمن محمد – صلى الله عليه وسلم – .

وبالمقابل نجد لهجة العناد والكبر والتشفي تعلو على لسان عدو البشر إبليس عليه لعائن الله المتوالية إلى يوم الدين في قول الله عز وجل { لأتخذن مـــن عبادك نصيباً مفروضاً } . وقد صور هذا التقديم (من عبادك) الحقد المتأصل الدفين في نفسه ، كما أوضح خبثه وقلة أدبه من ربه .

أمـــا قوله تعالى { أيبتغون عندهم العزة } فتقديم الظرف (عندهم) عـــلى المفعول به فيه الكثير من السخرية والاستهزاء بأولئك الذين يبحثون عن الشيء في غير موضعه الأصلي سفهاً منهم وحمقاً .

ومثل هذه المواضع كثير في هذه السورة المباركة مما لا يتسع المقام لذكرها جميعاً .

المطلب الثاني : من حيث الذكر والحذف .

أولاً : الحذف :

الحــذف من أكثر الموضوعات تناسباً مع طبيعة اللغة العربية الميالة إلى الإيجــاز ، وحياة أهلها المليئة بالمفاجآت الصحراوية ، بل ويتناسب مع الحالــة النفســية لقوم سجيتهم الإشارة واللمح ؛ فهم لم يكتفوا بحذف الجمل والكلمات ، بل تعدوه إلى حذف بعض الحروف من بعض الكلمات إن دعت الحاجة إلى ذلك[١] .

وأحسب أن خير ما يدل على دقة مسلك هذا الموضوع وعجيب أمره تلك المقولة[٢] التي ترددت في كتب البلاغة لإمام البلاغة الشيخ عبد القاهر الجــرجاني – يــرحمه الله – ، فقــد أثارت فضول الكثير لبحثه واستقراء معاييره . فما هو المعيار الذي تضبط به قضية الحذف ؟

قــال الإمــام عبد القاهر : (فما من اسم أو فعل تجده قد حذف ، ثم أصــيب به موضعه ، وحذف في حال ينبغي أن يحذف فيها إلا وأنت تجد حذفــه هــناك أحسن من ذكره ، وترى إضماره في النفس أولى وآنس من الــنطق بــه)[٣] . وهذا يعني أن حذف الجزء الذي حذف قد أكسب الجملة جمــالاً وخفــة فــي الــلفظ واتساعاً وعمقاً في المعنى[٤] ، وتصور الجزء المحذوف من النص في ذهن المتلقي بما يتفق مع الجو العام يحقق التواصل

---

١ ــ انظر (خصائص التراكيب) للدكتور أبو موسى ، ص١١٢ . وقد نبه – جزاه الله خيراً – إلى مثل هذا اللون من البلاغة الذي يعد حقاً موطناً خصباً لها .

٢ ــ قــال الشــيخ عبد القاهر الجرجاني : (هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شــبيه بالســحر ، فإنك ترى به ترك الذكر ، أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتمّ بياناً إذا لم تبن .

انظر (دلائل الإعجاز) ، ص١٤٦ .

٣ ــ انظر المرجع السابق ، ص١٥٣ .

٤ ــ انظر (البلاغة فنونها وأفنانها) للدكتور فضل حسن عباس ، ج١ ، ص١٦٢ .

وكذا (خصائص التراكيب) للدكتور أبو موسى ، ص١١٨ .

المنشـــود بينه وبين المنشئ ، وما ذاك إلا (لأن المحذوف إذا دلت الدلالة عـــليه كان في حكم الملفوظ به ، إلا أن يعترض هناك من صناعة اللفظ ما يمنع منه)[١] فيجب الحذر من ذلك .

١ـــ حذف المسند إليه :

عـــلى الرغم من تأصل المسند إليه في عملية الإسناد الخبري وشدة حاجـــة الجمـــلة إليه ؛ إلا أننا نجد ذكره في بعض الأحيان زائداً عن حاجة المعـــنى لوجـــود قرينة حالية أو لفظية تدل عليه ، ولو تكلفنا ذكره أصبح الأســـلوب ثقيـــلاً نابياً عن مظان البلاغة ؛ لأنه لم يحذف إلا ليحقق أهدافاً بلاغية تتناسب مع السياق .

هذه الأهداف التي يحذف لها المسند إليه كثيرة لأنها (أحوال تتبعث مـــن دواخل النفس ولا يمكن التعرض لحصرها)[٢]وحسبي أن أذكر بعض المواطن التي يكثر معها حذف المسند إليه[٣] ثم أجتهد في تحديد أهم أهدافها البلاغية الموجودة في سورة النساء المباركة بحول الله وقدرته .

---

١ ـــ مـــن ذلك أن ترى رجلاً قد سدد سهماً نحو الغرض ثم أسبله ، فتسمع صوتاً فتقول : القرطاس والله ، أي أصاب القرطاس . فـــ (أصاب) الآن في حكم الملفوظ به البتة ، وإن لم يوجد في اللفظ ، غير أن دلالة الحال عليه نابت مناب اللفظ به . وكذلك قولك لرجل مهوٍ بسيف في يده : زيداً . أي : اضرب زيداً . وكذا قولك للقادم من السفر : خير مقدم . أي : قدمت خير مقدم ... إلخ .

انظر (الخصائص) لأبي الفتح عثمان بن جني ، ج١ ، ص٢٨٥ ، ٢٨٦ .

٢ ـــ انظر (خصائص التراكيب) للدكتور محمد أبو موسى ، ص١١٨ .

٣ ـــ يحذف المسند إليه المبتدأ في مواطن أهمها :

أ ـــ إذا وقعت جملته جواباً للشرط مع وجود الفاء .

ب ـــ إذا وقعت جملته مقولاً للقول .

ج ـــ إذا وقعت جملته جواباً لاستفهام .

د ـــ ويحذف عند ضيق المقام عن الإطالة .

هـــ ـــ وكونه معلوماً حقيقة وبديهة .

و ـــ وعند إرادة تكثير الفائدة .

ز ـــ وما جرت العادة بحذفه مثل الأمثال . =

أ ـ حـذف المبتدأ الواقع في جملة جواب الشرط : ومثاله من سورة النساء قوله تعالى :

{ ومـا كـانَ لمؤمنٍ أنْ يقتلَ مؤمناً إلا خطأً ومنْ قتلَ مؤمناً خطأً فتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ وديةٌ مسلَّمةٌ إلى أهلِه إلاّ أنْ يصدَّقوا فإن كانَ من قومٍ عـدوٍ لكُمْ وهو مؤمنٌ فتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ وإنْ كانَ من قومٍ بينَكُمْ وبينَهُمْ ميـثاقٌ فديـةٌ مسـلَّمةٌ إلى أهلِه وتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ فمنْ لمْ يجدْ فصيامُ شهرينِ متتابعينِ توبةً من اللهِ وكانَ اللهُ عليماً حكيماً }[1] .

فقوله تعالى : { فتحرير رقبة مؤمنة } جملة واقعة في جواب (من) الشرطية . والمسند إليه فيها محذوف ، أي : الواجب عليه تحرير رقبة[2] .

وقـد تكـرر هذا في الآية[3] ، ومثله : { فصيام شهرين } . ويحسن تقديـر المبتدأ المحذوف بقولنا : فكفارته أو فحقه أو فالواجب عليه كما ذكر كثير من العلماء .

= وغير هذا كثير . انظر (كشف الغموض) للدكتور ياسين الأيوبي ، ص٣٨ وما بعدها .

كما يحذف إذا كان فاعلاً وبني الفعل للمجهول لأغراض كثيرة منها :

أ ـ كون الفاعل معلوماً للمخاطب .

ب ـ كونه مجهولاً للمتكلم فلا يستطيع تعيينه .

ج ـ رغبة المتكلم في الإيهام أو في تعظيم الفاعل أو تحقيره أو الخوف منه أو عليه .

د ـ عدم تحقق غرض معين في الكلام بذكره .

انظر (علم المعاني) للدكتور عبد العزيز عتيق ، ص ١٢٦ وما بعدها .

وقـد يحذف الفاعل مع بناء الفعل له وذلك لظهوره بدلالة السياق عليه أو الحال وإلا كان ضرباً من التقصير .

انظر (خصائص التراكيب) للدكتور أبو موسى ، ص٢٣٢ ، ٢٣٤ .

١ ـ الآية (٩٢) .

٢ ـ انظـر (التبيان في إعراب القرآن) للعكبري ، ص٣٨٠ . وقد ذكر وجهاً آخر لإعراب الكلمة حيث يصح أن تكون مبتدأ لخبر محذوف يقدر بـ : فعليه تحرير رقبة أو يلزمه تحرير رقبة .

وقد ذكر هذا أبو حيان في (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٣٢٤ وما بعدها .

وكذا السمين الحلبي في (الدر المصون) ، ج٢ ، ص٤١٤ .

٣ ـ وتكرار هذا الحكم وجعله كفارة لعدة أوضاع من القتل الخطأ مرده إلى رغبة الإسلام الأكيدة في إنهاء العبودية . والله أعلم وأحكم .

والغـرض البلاغي مـن حذف هذا المسند إليه مع الإيجاز تركيز الاهتمام على المسند لما للعتق من قيمة دينية واجتماعية وإنسانية عظيمة ، وكذلك الصيام ، فهو تهذيب وتأديب وصلاح للفرد والجماعة .

ب ـ كمـا يحذف المسند إليه عند وقوعه مبتدأ في جملة القول : مثال ذلك من سورة النساء قوله تعالى :

{ ويقولـونَ طاعةٌ فإذا برزوا منْ عندِكَ بيَّتَ طائفةٌ منهُمْ غيرَ الذي تقولُ ... }[1] .

فـ (طاعـة) خبر لمبتدأ محذوف ، أي : أمرنا طاعة[2] . وفي حذفـه دلالة خفية على أحوال القوم النفسية ، فقد أرادوا أن يدللوا على شدة حرصهم ومبادرتهم بهذه الطاعة حتى سبق بها اللسان ، ولكنهم لم يعلموا أن الله كاشف لرسوله وللمؤمنين أمرهم حتى إن عبارتهم هذه قد سجلت عليهم مروقهم من الطاعة وضيقهم بها يؤكد الله هذا بدلالة مادة كلمة (برزوا) ، حيث إن مادة هذه الكلمة تصور خروجهم من عند رسول الله صلى الله عليه وسـلم بخروج الشيء من الضيق إلى السعة[3] كما كشفت سترهم[4] ، وقد أرادوا بحذف المسند إليه التنصل من التبعة فظهر عكس ما يريدون .

ومنه قوله تعالى :

{ ولا تقولـوا ثلاثةٌ انتهوا خيراً لكُمْ إنَّما اللهُ إلهٌ واحدٌ سبحانهُ أنْ يكونَ لهُ ولدٌ ... }[5] .

---

١ ـ جزء من الآية (٨١) .

٢ ـ ويجوز أن يكون المحذوف هو الخبر ويقدر بقولنا : عندنا طاعة أو منا طاعة .
انظر (التبيان في إعراب القرآن) ، ص٣٧٥ .
وكذا (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج٢ ، ص٨٢ وما بعدها .
وكذا (التحرير والتنوير) لابن عاشور ، ج٥ ، ص١٣٥ وما بعدها .

٣ ـ انظر (المفردات) ، مادة (برز) .

٤ ـ من دلالة هذه الكلمة : انكشاف ما كان مستوراً . انظر (المفردات) ، مادة (برز) .

٥ ـ جزء من الآية (١٧١) .

المحـــذوف مقـــدر بــــ : إلهنا ثلاثة أو الإله ثلاثة[1] . ولحذف هذا المبـــتدأ نكـــات بلاغيــــة منها التحرز من ذكر هذا الباطل الذي أفسد عقيدة النصـارى ، فهو أمر جلل ينبغي أن يتنزه عنه اللسان ، كما أنه يصور حالة

---

١ ــ انظر (التبيان في إعراب القرآن) ، ج١ ، ص٤١٢ .

وكذا (الدر المصون) ، ج٢ ، ص٤٧٠ .

وقـــد اعـــترض فضـــيلة الدكـــتور محمـــد أبـــو موســـى على هذا التقدير ووسمه بالفساد متـــبعاً فـــي ذلـــك الإمـــام عـــبد القاهـــر وقدره بـــ : لنا آلهةٌ ثلاثة ، وعلل هذا بقوله : وبيان ذلك إذا ســـلطت الـــنفي عـــلى الجمـــلة لا يـــتوجه الـــنفي إلى أحد طرفيها وإنما يتوجه إلى الحكم القائم بيـــن الطـــرفين ، وهـــذه قضـــية ثابـــتة ، فـــإذا قـــلت : ليـــس زيد بمنطلق فأنت لم تنف زيداً ولم توجـــب عدمـــه ، وإنمـــا تـــنفي إثـــبات معنى الانطلاق لزيد . وإذا قلت : ليس زيد النحوي عاقلاً فـــأنت لـــم تـــنف عـــن زيـــد كونـــه نحوياً وإنما نفيت عنه كونه عاقلاً ، وإذا قلت : ليس أمراؤنا ثلاثـــة فـــأنت لـــم تـــنف أن لـــنا أمـــراء بل توجب ذلك وتثبته وإنما تنفي أن تكون عدتهم ثلاثة . فـــإذا قـــلت : ليســـت آلهتـــنا ثلاثـــة فـــأنت لم تنف وجود الآلهة بل توجب ذلك وتقرره وإنما تنفي أن تكون ثلاثة ، وهذا واضح وفيه ما ترى . انظر (خصائص التراكيب) ، ص٢٢٣ .

ولا أرى كلامـــه إلا تـــأييداً لمـــا ذهـــب إليـــه العكـــبري والسمين ، حيث إن النفي مسلط عـــلى عـــدة الآلهـــة . وهـــذا حـــق بدليـــل آخـــر الآية { إنما الله إله واحد } . فهم لم ينفوا وجود الإله ، بل جعلوا عدته ثلاثة ، وقد نهوا عن هذا .

أمـــا تقديـــر الدكـــتور بقولـــــه : (لـــنا أو في الوجود آلهة ثلاثة) ففيه شيء من التكلف لأنـــه جعـــل الخـــبر (لـــنا أو فـــي الوجـــود) محذوفاً ، ثم المبتدأ (آلهة) محذوفاً أيضاً ، وجعل (ثلاثة) نعتاً للمبتدأ المحذوف ، ثم استشهد بالآية في باب حذف المسند إليه . ص٢٢٢ .

وكلامـــه وكـــلام الشـــيخ حـــق لـــو كـــان تقدير المبتدأ بالجمع (آلهتنا) ، ولكنهم قدروه بالمفـــرد (إلهـــنا ثلاثـــة ، أو الإلـــه ثلاثـــة) ، وهـــذه هـــي عقيدة النصارى حيث يجعلون الإله مكونـــاً مـــن ثلاثـــة عناصـــر : الأب والإبـــن وروح القـــدس ، جميعهم يكونون إلهاً واحداً ، لذلك ســـميت عقيدتهـــم بالتثـــليث . انظـــر (هدايـــة الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى) لابن القيم ، تحقيق الدكتور محمد أحمد الحاج ، ص١٧٧ وما بعدها .

ويؤيـــد هـــذا قولـــــه تعـــالى : **{ لقـــد كفـــر الذيـــنَ قـــالوا إن الله ثالث ثلاثة ... }** ، (٧٣) المـــائدة . وقـــد ذكـــر الإمـــام عـــبد القاهـــر ذلك بقوله : (ثم هاهنا طريق آخر وهو أن تقـــدر : ولا تقولـــوا الله والمســـيح وأمـــه ثلاثـــة ، أي نعـــبدهم كمـــا نعـــبد الله) . انظر (دلائل الإعجاز) ، ص٣٨٣ .

وفـــي هـــذا الـــتقدير تكـــون ثلاثـــة خـــبراً أيضاً لمبتدأ محذوف مكوناً من تلك العناصر الثلاثة المتعاطفة .

الشك والريبة التي تتغلغل في نفوس هؤلاء الضالين ، هذا الشك دعاهم إلى بـــتر الجمـــلة لعدم الجرأة على تأكيدها ، وذلك بيّن بمقارنتها بقوله تعالى : { إنما الله إله واحد } ، حيث الحق الواضح الذي يعلو ولا يعلى عليه .

ج ــ وقد يحذف المسند إليه إذا كان مبتدأ في غير ذلك : مثل قوله تعالى :

{ من الذينَ هادوا يحرّفونَ الكَلِمَ عن مواضعِهِ ... }[١] .

كلام مستأنف على أحد التقديرات[٢] ؛ إذ أن الجار والمجرور (من الذيــن) واقــع خبراً لمبتدأ محذوف تقديره : " قوم من الذين هادوا " ، دل عــلى هــذا المبتدأ الجملة الواقعة صفة له (يحرفون) ، وحذف المبتدأ في مــثل هــذا شــائع في كلام العرب اجتزاء بالصفة عن الموصوف إذا كان المبتدأ موصوفاً بجملة أو بظرف أو كان المبتدأ بعض اسم مجرور بحرف (من) وذلك الاسم مقدم على المبتدأ .

ومــن كلمات العرب المأثورة في ذلك قولهم : منّا ظعنَ ومنّا أقام ، أي منا فريق ظعن ومنا فريق أقام[٣] .

ومنه قوله تعالى :

{ فكيــفَ إذا أصابتْهُمْ مصيبةٌ بما قدّمَتْ أيديهِمْ ثمَّ جاءوكَ يحلفونَ باللهِ إنْ أردْنا إلاّ إحساناً وتوفيقاً }[٤] .

---

١ ــ جزء من الآية (٤٦) .

٢ ــ قــال الزمخشري : " من الذين هادوا " بيان من الذين أوتوا نصيباً من الكتاب في الآية (٤٤) لأنهــم يهــود ونصــارى ، وقوله والله أعلم : " وكفى بالله " و " وكفى بالله " من الآية (٤٥) جمل توســطت بين البيان والمبين على سبيل الاعتراض ، أو بيان " لأعدائكم " وما بينهما اعتراض ، أو صفة " لنصير " أي : ينصركم من الذين هادوا ... ويجوز أن يكون الكلام مبتدأ على أن " يحرفون " صفة مبتدأ محذوف تقديره : من الذين هادوا قوم يحرفون .

انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٧١ .

وكذا (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٥ ، ص٧٤ .

٣ ــ انظر (التحرير والتنوير) ، ج٥ ، ص٧٤ .

٤ ــ الآية (٦٢) .

تقديــر الكــلام : فكيــف حالُهم . حذف المبتدأ بدلالة سياق الكلام عليه[١] .

د ــ كما يحذف المسند إليه إذا وقع فاعلاً عند بناء الفعل للمجهول : ويكون وراء كل حذف غرض بلاغي يفهم من السياق[٢] ، ومن ذلك :

١ ــ كــون الفــاعل معلوماً للمخاطب . ومن أمثلته في هذه السورة قوله تعالى :

{ حرمَتْ عليكُمْ أمهاتُكُمْ وبناتُكُمْ وأخواتُكُمْ وعمّاتُكُمْ وخالاتُكُمْ وبناتُ الأخِ وبناتُ الأختِ ... }[٣] .

فالمخاطــبون بــه مؤمنون ، ويعلمون علم اليقين مصدره ، إذن لا حاجة لذكر الفاعل إذ هو معلوم عندهم ، والأولى والأجدى هنا لفت الانتباه إلى الفعــل نفسه ، فهو الحكم الشرعي الذي ينبغي التركيز عليه والامتثال لمقتضاه .

وأمثلــته مــتعددة فــي القرآن الكريم ، ومنه في هذه السورة قوله تعالى :

{ وأُحِلَّ لكُمْ ما وراءَ ذلكُمْ ... }[٤] .

وكذا قوله عز وجل :

---

١ ــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٥ ، ص١٠٧ .

٢ ــ انظر (علم المعاني) للدكتور عبد العزيز عتيق ، ص١٢٧ وما بعدها .

وقــد ذكر له سبعة مواضع هي : كون الفاعل معلوماً للمخاطب ، وكونه مجهولاً للمتكلم ، ورغــبة المتكلم في الإبهام ، ورغبته في إظهار تعظيمه للفاعل ،ورغبته في إظهار تحقيره للفاعل ، وخوف المتكلم من الفاعل ، وعدم تحقق غرض معين في الكلام بذكر الفاعل .

٣ ــ جزء من الآية (٢٣) .

٤ ــ جزء من الآية (٢٤) .

{ لكن الراسخونَ في العلمِ منهُمْ والمؤمنونَ يؤمنونَ بما أُنزِلَ إليكَ وما أنزِلَ من قبلِكَ ... }[١] .

٢ ـ كما يحذف أيضاً لعدم تحقق غرض معين في الكلام بذكره فيكون الإيجاز أولى باللغة . ومن أمثلته في سورة النساء قوله تعالى :

{ وإن كانَ رجلٌ يُورَثُ كلالةً أو امرأةٌ ... }[٢] .

وقوله تعالى :

{ فـإذا أُحصنَّ فإن أتينَ بفاحشةٍ فعليهِنَّ نصفُ ما على المحصناتِ من العذابِ ... }[٣].

الفعلان (يُـورَثُ) و (أُحْصِنَّ) كلاهما مبني للمجهول ، وحذف الفاعل هو الأولى ؛ لعدم الانشغال به وصرف الهمة إلى الحدث نفسه ، فهو الأحق بذلك .

ومما جاء على غراره قوله تعالى :

{ ومـن يقـاتلْ فـي سبيلِ اللهِ فيُقتَلْ أو يَغلِبْ فسوفَ نؤتيهِ أجراً عظيماً }[٤] .

وكذا قوله تعالى :

{ لا يحبُّ اللهُ الجهرَ بالسوءِ من القولِ إلاّ منْ ظُلِمَ وكانَ اللهُ سميعاً عليماً }[٥] .

---

١ ـ جزء من الآية (١٦٢) .

٢ ـ جزء من الآية (١٢) .

٣ ـ جزء من الآية (٢٥) .

وأحصِـنَّ : تزوجن أو زُوِّجنَ ... لهذا قيل المحصنات المزوجات ، تصور أن زوجها هو الذي أحصنها .

انظر (المفردات) للراغب الأصفهاني ، مادة (حصن) ، وفي هذا التقدير تضييق وحجر على معنى اللفظة ، فهي أرحب من ذلك بكثير .

٤ ـ جزء من الآية (٧٤) .

٥ ـ الآية (١٤٨) .

ففي الفعلين (يُقتَل) و (ظُلِمَ) إنما حذف المسند إليه لنفس الغرض .

٣ ــ كما يحذف الفاعل أحياناً للتعظيم . مثل قوله تعالى :

{ إنْ تجتنبوا كبائرَ ما تُنْهَوْنَ عنهُ نُكفِّرْ عنكُمْ سيئاتِكُمْ ونُدخِلْكُمْ مُدخلاً كريماً }(١) .

ومثله قوله تعالى :

{ ولو أنهُمْ فعلوا ما يوعظونَ بهِ لكانَ خيراً لهُمْ وأشدَّ تثبيتاً }(٢) .

وكذا قوله تعالى :

{ ألمْ ترَ إلى الذينَ قيلَ لهُمْ كفُّوا أيديكُمْ وأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ فلمَّا كُتِبَ عليهِمُ القتالُ إذا فريقٌ منهُمْ يخشونَ الناسَ كخشيةِ اللهِ أو أشدَّ خشيةً ... }(٣) .

لا شك أن حذف الفاعل في (تنهون) لأنه المولى سبحانه أو رسله ، وكذا في (يوعظون) وفي (قيل) و (كُتِب) . كلها حذف فيها المسند إليه تفخيماً لشأنه وتعظيماً له وللمعاني التي يحملها المسند ؛ لأنها لا تأتي إلاّ من عظيم يُنوّه بذكره ولا يُصرّح .

---

١ ــ الآية (٣١) .

٢ ــ الآية (٦٦) .

٣ ــ جزء من الآية (٧٧) .

وهذا كثير في هذه السورة المباركة ، منه قوله تعالى :

{ يريدونَ أن يتحاكموا إلى الطاغوتِ وقد أُمِروا أن يكفروا به ... } ، الآية (٦٠) .

وكذا قوله تعالى :

{ وإذا قيلَ لهُمْ تعالوا إلى ما أنزلَ اللهُ وإلى الرسولِ ... } ، الآية (٦١) .

وكذا الآية (١٢٧) ، والآية (١٢٨) ، والآية (١٥٧) ، والآية (١٦٠) .

٤ ـــ وكمـــا يحـــذف الفاعل تعظيماً يحذف لنقيضه . ومن ذلك قوله تعالى :

{ ســـتجدونَ آخرينَ يريدونَ أن يأمنوكُمْ ويأمنوا قومَهُمْ كلَّ ما رُدُّوا إلى الفتنةِ أُركِسوا فيها ... }[١] .

الأفعـــال محذوفة الفاعل هي : (رُدُّوا) و (أُركِسوا) وهما متقاربا المعنى ، إلا أن (أركس) أعمق وأدخل في المعنى . قال فيه الزمخشري : (كلما دعاهم قومهم إلى قتال المسلمين " أركسوا فيها " قلبوا فيها أقبح قلب وأشـــنعه وكـــانوا شراً فيها من كل عدو)[٢] . وقد قُرِئت الكلمة مثقلة بغير ألـــف (رُكِّسوا فيها) لتدل على وقوع الشيء بعد الشيء لأنهم جماعة[٣] ، ومـــا هـــذا الانخراط في الشر إلا لأنهم أسلموا قيادهم للشيطان فحق عليهم غضـــب الله ســـبحانه وتعـــالى ، وكـــانت علة الحذف تحقير الفاعل وهو الشيطان ، وتحقير نائبه والفعل الذي قاموا به .

ومنه قوله تعالى :

{ وقـــدْ نـــزَّلَ عـــليكُمْ في الكتابِ أنْ إذا سمعتُمْ آياتِ اللهِ يُكفَرُ بها ويُستهزَأُ بها فلا تقعدوا معَهُمْ حتى يخوضوا في حديثٍ غيرِهِ إنَّكُمْ إذاً مثلُهُمْ إنَّ اللهَ جامعُ المنافقينَ والكافرينَ في جهنَّمَ جميعاً }[٤] .

---

١ ـــ جزء من الآية (٩١) .

٢ ـــ انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٨٩ .

٣ ـــ انظـــر (المحتسب) لابن جني ، ج١ ، ص١٩٤ . تحقيق علي النجدي ناصف و د. عبد الحليم النجار و د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، مصر ، ١٣٨٦هـ

والـــركس : قلب الشيء على رأسه ورد أوله إلى أخره . يقال : أركستُه فركَسَ ، وارتَكَسَ في أمره . قال تعالى : **{ والله أركسهم بما كسبوا }** أي ردهم إلى كفرهم .

انظـــر (المفـــردات) لـــلراغب الأصفهاني ، مادة (ركس) . والآية (٨٨) ، النساء . ويلاحـــظ بناء الفعل للفاعل في هذه الآية لغرض التشفي فيهم وتصوير هذا القلب بأشد ما يكون لأن فاعله العظيم المنتقم الجبار سبحانه وتعالى .

٤ ـــ الآية (١٤٠) .

والفـــاعل المحـــذوف فـــي (يُكفَر) و (يُستهزَأ) ، وهم الكفرة[١] الغاشمين ، وحذفه تحقيراً لشأنهم لمجازاتهم بجنس عملهم .

هـــ ـ وحذف الفاعل لا يقتصر على بناء الفعل للمجهول بل يحذف أحياناً مـــع بناء الفعل له : وما ذاك إلا لأنه يوصل إليه بدلالة السياق . ومن ذلك قوله تعالى :

{ يوصـــيكُمُ اللهُ فـــي أولادِكُمْ للذكَرِ مثلُ حظِّ الأنثيينِ فإنْ كُنَّ نساءً فـــوقَ اثنتينِ فلهُنَّ ثلثا ما تركَ وإنْ كانَتْ واحِدةً فلها النصفُ ولأبويهِ لكلِّ واحدٍ منهما السّدسُ مما ترك ... }[٢] .

ففـــاعل الفعل (ترك) موجود في الذهن بدلالة الحال عليه ، وإن لم يتـــلفظ به لا سابقاً ولا لاحقاً حتى يقدّر بضمير مستتر يعود على مذكور ، لكـــن البلاغة تقتضي حذفه لأنه وإن لم يذكر لفظاً فقد تضافر السياق على ذكره معنى[٣] .

ومنه قوله تعالى :

{ واللاّتي يأتينَ الفاحشةَ منْ نسائِكُم فاستشهدوا عليهِنَّ أربعةً منكُمْ فإنْ شهدوا فأمسكوهُنَّ في البيوتِ حتّى يتوفّاهُنَّ الموتُ أو يجعلَ اللهُ لهُنَّ سبيلاً }[٤] .

المحـــذوف إيجـــازاً فـــاعل (يتوفاهن) أي : حتى يتوفاهن ملائكة المـــوت ، وقـــد أغنى عنه المضاف إليه (الموت) ، ولو لم يقدر الفاعل بالملائكـــة لأصـــبح الكلام (حتى يميتهن الموت لأن التوفي الموت بمعنى

---

١ ـــ انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج١ ، ص٥٩٧ .

٢ ـــ جزء من الآية (١١) .

٣ ـــ انظر تفسير (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص١٩٢ .

٤ ـــ الآية (١٥) .

واحـــد)[١] . كما أن إسناد هذا الفعل للملائكة ظاهر بيّن عقلاً ونقلاً لورود عدة آيات تذكر ذلك ، مثل قوله تعالى :

{ إنَّ الذينَ توفّاهُمُ الملائكةُ ظالمي أنفسِهِمْ ... }[٢] .

وقوله تعالى :

{ قُلْ يتوفّاكُمْ مَلَكُ الموتِ الذي وُكِّلَ بكُمْ ... }[٣] .

وأحســـبُ أن حذف هذا الفاعل وإنابة المضاف إليه بدلاً عنه لما في معنى كلمة (الموت) من جمود يتناسب مع حالة الحبس الذي استحقته هذه الفـــئة الضالة من النساء ، وهي كلمة تكسب الموقف رعباً شديداً يهدف إلى الزجر والتخويف وأخذ العبرة والحذر . والله أعلم وأحكم .

ومن ذلك قوله تعالى :

{ فأمّا الذينَ آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهِم أجورَهُمْ ويزيدُهُمْ من فضلِهِ وأما الذينَ استنكفوا واستكبروا فيعذِّبُهُمْ عذاباً أليماً ولا يجدونَ لهُمْ من دون اللهِ ولياً ولا نصيراً }[٤] .

الشـــاهد فـــي قولـــه تعالى (يوفيهم – يزيدهم – يعذبهم) ومن لا يستطيع الوصول إلى هذا الفاعل المحذوف لفظاً الواضح البين معنى ونبرة الاســـتعلاء والحـــزم والعظمة تعلو وترتفع في كل لفظ في الآية ؟! ولشدة وضوحه لم يقف عنده المفسرون .

---

١ ــ انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٥٦ .

٢ ــ جزء من الآية (٩٧) .

٣ ــ جزء من الآية (١١) ، سورة السجدة .

٤ ــ الآية (١٧٣) .

ومعـــنى استنكفوا أي : أنفوا ، وقال الراغب الأصفهاني : يقال : نكفتُ من كذا واستنكفت مـــنه : أنفت . وأصله من : نكفتُ الشيء نحيته ومن النكف : وهو تنحية الدمع عن الخد بالإصبع ، وبحر لا يُنكف : أي لا يُنزح ، والانتكاف : الخروج من أرض إلى أرض .

انظر (المفردات) ، مادة (نكف) .

٢ــ حذف المسند :

يحــذف المســند وإن كان هو الحكم في الجملة الخبرية طلباً لرفعة الكلام وعلو شأنه في بعض الأحيان . ودواعي حذفه كثيرة في سورة النساء المباركة . فمن ذلك :

أ ــ الاختصاص وتقوية الحكم :

مثل قوله تعالى :

{ وإن امرأةٌ خافَتْ من بعلِها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناحَ عليهما أنْ يُصلِحا بينَهما صلحاً والصلح خير ... }[(١)] .

(امــرأة) فــاعل لفعل محذوف دل عليه ما بعده ، أي : إن خافت امــرأة خافت . وتحليل ذلك أن الكلام مركب من جملتين فعليتين حذف من كل منهما جزء ، فالجملة الأولى حذف فعلها لدلالة ما بعده عليه ، والجملة الثانية من (خافت) حذف فاعلها لدلالة ما سبق عليه . وهذا فيه من تقوية الحكــم وتــأكيده مــا لا يخفى على متأمل ؛ فقد ذكر علماء النحو أن هناك أدوات لا تدخــل إلا عــلى الجمــل الفعلية[(٢)] من بينها (إنْ) الشرطية ، ودخولها على الاسم يعني إرادة التأكيد بتكرار المعنى بجملتين متتاليتين .

ولنا أن نحس ذلك بأنفسنا لو أدخلنا أداة الشرط على الفعل مباشرة : إن خافت امرأة . لا بد أن الذوق السليم يرجح التركيب الأول لما يشعر من القوة والتأكيد الذي يفتقر إليه التركيب الثاني .

ومثله تماماً قوله تعالى :

{ وإنِ امرؤٌ هلكَ ليسَ له ولدٌ وله أختٌ فلها نصفُ ما تركَ ... }[(٣)]

---

١ ــ جزء من الآية (١٢٨) .

٢ ــ وهــي أدوات الشــرط مثل : (إن ، إذا ، ولو) إذا جاء بعدها اسم فيجب أن يكون فاعلاً لفعل محذوف يقدر من لفظ الفعل المذكور .

انظر (شرح ابن عقيل) ، ج١ ، ص٤٣٠ وما بعدها .

٣ ــ جزء من الآية (١٧٦) .

المســند المحذوف يقدر بقولنا : إن هلك امرؤ هلك . وهذا التكرار الذي يفيد المعنى قوة وتأكيداً ، ولو ظهر هذا المسند في اللفظ لكسا التركيب ضعفاً وركاكة ؛ لذا كان حذفه .

ب ـ الاحتراز عن العبث :

بعدم ذكر ما لا ضرورة لذكره ، وهذا من شأنه أن يكسب الأسلوب قوة ويضفي عليه جمالاً فوق فضيلة الإيجاز . ومن أمثلته في سورة النساء المباركة قوله تعالى :

{ ولولا فضلُ اللهِ عليكُمْ ورحمتُهُ لاتبعتُمُ الشيطانَ إلاّ قليلاً }[1] .

مــن المعلوم أن لولا في أحد استعمالاتها تدخل على جملتين : اسمية ففعلية لربط امتناع الثانية بوجود الأولى[2] . و (لولا) هنا حرف لا محل لــه مــن الإعــراب ، وكــلمة (فضل) مبتدأ ، وخبره محذوف يقدر بــ (موجود) ووصولنا إلى هذا الخبر أمر بدهي ؛ لهذا فذكره من قبيل العبث الضــار بدرجة جودة التركيب وبلاغته ،وهذا ما تأباه العربية عامة ، فكيف يقــبله القــرآن الكريم ؟! ولكن يشترط في هذا الحذف أن يكون الخبر كوناً عاماً ، أي ليس حالة خاصة لا يهتدي إليها الذهن مباشرة .

ومثله قوله تعالى :

---

١ ـ جزء من الآية (٨٣) .

٢ ـ انظر (مغني اللبيب) لابن هشام ، ج١ ، ص٢٧٢ .

وقــد ذكــر وجوه استعمالات (لولا) قائلاً : استعمالات (لولا) أربعة ، الأول : ما نحن بصــدده ، والــثاني : أن تكون للتخصيص والعرض فتختص بالمضارع أو ما في تأويله نحو **{ لولا تســتغفرون الله }** ونحــو **{ لولا أخرتني إلى أجل قريب }** والآيتان على التوالي : (٤٦) النمل ، (١٠) المــنافقون . والــثالث : أن تكون للتوبيخ والتنديم فتختص بالماضي نحو **{ لولا جاءوا عليه بأربعــة شــهداء }** ، (١٣) الــنور . والــرابع : الاستفهام نحو **{ لولا أنزل عليه ملك }** ، (٨) الأنعام .

{ ولــولا فضــلُ اللهِ عــليكَ ورحمـــتُهُ لهمَّــتْ طائفــةٌ مــنهُمْ أنْ يضلُّوكَ ... }[١] .

ج ـ *الحذف لدلالة السياق :*

قــد يحــذف المسند لدلالة السياق عليه دون قياس معين في النحو ، ومن أمثلته في سورة النساء قوله تعالى :

{ والمُحْصَــناتُ مــنَ النســاءِ إلاّ مــا مــلكَتْ أيمــانُكُمْ كتابَ اللهِ عليكُمْ ... }[٢] .

الذي دل على المسند المحذوف نصب كلمة (كتاب) فعامل النصب لها غير موجود في السياق ولتقديره وجهان :

الأول : (أن كلمة (كتاب) مصدر مؤكد من غير لفظ الفعل ، لأن قولــه { حرمت عليكم } يدل على معنى الكتبة فالتقدير : كتب عليكم تحريم مــا تقدم ذكره من المحرمات كتاباً من الله ، ومجيء المصدر من غير لفظ الفعــل كثير نظيره قوله تعالى : **{ وترى الجبالَ تحسَبُها جامدةً وهيَ تَمُرُّ مَرَّ السحابِ صُنْعَ اللهِ ... }**)[٣]

الثاني : يجوز أن يكون منصوباً على جهة الأمر ، ويكون (عليكم) مفســراً له فيكون المعنى : الزموا كتاب الله . ولا شك أن حذف المسند هنا أحــدث قــدراً كبيراً من اللفت والتنبيه إلى هذا المنصوب لتتعدد فيه الآراء والتقديرات ؛ لأن فيه من توسيع المعنى وإيجاز اللفظ ما لا يخفى .

---

١ ـ جزء من الآية (١٦٣) .

٢ ـ الآية (٢٤) .

٣ ـ انظر (التفسير الكبير) للرازي ، ج١٠ ، ص٤٢ .

وكذا (التبيان في إعراب القرآن) لأبي البقاء العكبري ، ج١ ، ص٣٤٦ .

والآيــة (٨٨) النمل ، والمسند المحذوف فيها يقدر بفعل الأمر : تأملوا صنع الله أو هاكُم أو غيــره . أضاف حذفه مجالاً واسعاً في المعنى سعة ما في الكون من عجائب صنع الله . وهذا هو الإيجاز البلاغي المعجز .

ومنه كثير في هذه السورة مثل قوله تعالى :

{ ومَنْ لمْ يستطعْ منكُمْ طولاً أنْ ينكِحَ المحصناتِ المؤمناتِ فمِنْ ما ملكَتْ أيمانُكُمْ مِنْ فتياتِكُمُ المؤمناتِ ... }[١] .

المسند المحذوف فعل الأمر (فانكحوا) مما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات . وقد سوغ حذفه دلالة السياق عليه . وربما كان الهدف البلاغي من حذفه تفادي صيغة الأمر حتى لا يفهم منه الإلزام ، فالقضية قضية إباحة[٢] فقط .

ومنه قوله تعالى :

{ ومَنْ يُطِعِ اللهَ والرسولَ فأولئكَ مع الذينَ أنعمَ اللهُ عليهِمْ ... }[٣]

أي : ويطع الرسول .

ومن هذا القبيل أيضاً قوله تعالى :

{ فمالكُمْ في المنافقينَ فئتينِ واللهُ أركسَهُمْ بما كسبوا أتريدونَ أنْ تهدوا من أضلَّ اللهُ ومنْ يضلِلِ اللهُ فلنْ تجدَ له سبيلاً }[٤] .

(فئتين) نصب على الحال[٥] بتقدير ما لكم تفترقون في أمور المنافقين[٦] فئتين ، وحذف المسند (تفترقون) تحاشياً من أن يسند الافتراق إلى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالاً لهم .

---

١ ــ جزء من الآية (٢٥) .

٢ ــ في رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مما وسع الله على هذه الأمة نكاح الأمة واليهودية والنصرانية وإن كان موسراً . انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٦٣ .

والفتيات : جمع فتاة وهي المملوكة . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : لا يقولن أحدكم عبدي ولكن ليقل فتاي وفتاتي . ويقال للجارية الحديثة : فتاة ، والغلام فتى ، والأمة تسمى كذلك وإن كانت عجوزاً .

انظر تفسير الرازي ، ج١٠ ، ص٦٠ .

٣ ــ الآية (٦٩) .

٤ ــ الآية (٨٨) .

٥ ــ انظر (الكشاف) للزمخشري ، ج١ ، ص٢٨٧ .

٦ ــ انظر (التبيان) للعكبري ، ج١ ، ص٣٧٨ .

ومثله قوله تعالى :

{ لكِنِ الراسخونَ في العلمِ منهُمْ والمؤمنونَ يؤمنونَ بما أنزلَ إليكَ وما أنزلَ من قبلِكَ والمقيمينَ الصلاةَ والمؤتونَ الزكاةَ والمؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ أولئكَ سنؤتيهِمْ أجراً عظيماً }(1) .

موضع الشاهد : (والمقيمين) لفظ منصوب بين متعاطفات مرفوعة فما سبب نصبه ؟

أرجح الأقوال في نصبه : أنه نصب على المدح ، أي: أعني المقيمين(2) ؛ وذلك لبيان فضل الصلاة(3) وفضل مقيميها لما في اشتقاق اللفظ من معنى المداومة والاعتناء .

ومنه قوله تعالى :

{ للرجالِ نصيبٌ ممّا تركَ الوالدانِ والأقربونَ وللنساءِ نصيبٌ ممّا تركَ الوالدانِ والأقربونَ ممّا قلَّ منهُ أو كثُرَ نصيباً مفروضاً }(4) .

وذلك في نصب كلمة (نصيباً) ، أي أوجبَ أو جعلَ لهم نصيباً(5) . ومثله قوله تعالى :

{ فريضةً من اللهِ ... }(6) .

قال أبو البقاء إنها مصدر لفعل محذوف ، أي : فرض الله ذلكَ فريضةً(7) . ومنه :

---

١ ــ الآية (١٦٢) .
٢ ــ انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٣١٣ .
وكذا (التبيان) ، ج١ ، ص٤٠٧ .
٣ ــ انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٣١٣ .
٤ ــ الآية (٧) .
٥ ــ انظر (الدر المصون) للسمين الحلبي ، ج٢ ، ص٣١٥ .
٦ ــ جزء من الآية (١١) .
٧ ــ انظر (الدر المصون) ، ج٢ ، ص٣٢٣ .
وكذا (التبيان) ، ج١ ، ص٣٣٧ .

{ فصيامُ شهرينِ متتابعينِ توبةً من اللهِ }[١]

في نصب كلمة (توبةً)[٢] ، أي اقصدوا بها أو اطلبوا بها توبة من الله .

ومنه قوله تعالى :

{ ومَــنْ يقــتُلْ مؤمناً متعمّداً فجزاؤهُ جهنّمُ خالداً فيها وغضِبَ اللهُ عليهِ ولعنَهُ وأعدَّ لهُ عذاباً عظيماً }[٣] .

فقو‍ــله تعــالى (خالداً) نصب على الحال بمسند محذوف في حذفه تقديران : أحدهما : " يُجزاها خالداً فيها " ، فهو حال من الضمير المنصوب أو المــرفوع . والــثاني : " جــازاهُ " بدليل { وغضب الله عليه ولعنَهُ } ، فعطَفَ عليهِ الماضي . فعلى هذا يكون خالداً حال من الضمير المنصوب لا غير[٤] . والقيمة البلاغية تكمن في الإيجاز الذي سوّغه ذكر الجزاء من قبلُ في السياق : { فجزاؤه جهنّمُ } .

٣ــ حذف المفعول به :

ولحــذف المفعول به شأن عظيم في كتب البلاغة ؛ وذلك لما له من لطــائف بلاغية عجيبة[٥] تستحوذ على لب المتلقي الفطن ، وترقي به إلى الأكمل .

والقاعدة العامة في حذفه قوة دلالة السياق عليه لتحقيق غرض خاص معيــن في النفس ، وهذه الأغراض متنوعة يمكن الإشارة إلى بعضهافيما يلي :

١ــ جزء من الآية (٩٢) .

٢ــ انظر (الدر المصون) ، ج٢ ، ص٣٢٣ .

٣ــ الآية (٩٣) .

٤ــ انظر (التبيان) للعكبري ، ج١ ، ص٣٨١ .

٥ــ انظر (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني ، ص١٥٤ وما بعدها .

أ ـــ لدلالة السياق أو الحال عليه مع قصد الإيجاز [١] :

مثل قوله تعالى :

{ أولئك الذينَ لعنَهُمُ اللهُ ومَنْ يلعنِ اللهُ فلنْ تجدَ له نصيراً } [٢] .

حـــذف مفعول (يلعن) لسبق ذكره في الآية نفسها في قوله تعالى : { لعـــنهم } . هـــذا من الوجهة النحوية ، أما من الوجهة البلاغية فإن حذفه يشير بقوة إلى معنى العموم المكتسب من (مَن) ، ثم لتعلق النفس بالفاعل فيعظـــم أمـــر لعـــنه فيتجنب مسبباته ، ثم للإيجاز [٣] الذي تتصف به اللغة العربية .

ومما حذف مفعوله لدلالة السياق عليه قوله تعالى :

{ مذبذبينَ بينَ ذلكَ لا إلى هؤلاءِ ولا إلى هؤلاءِ ومَنْ يضللِ اللهُ فلنْ تجِدَ لهُ نصيراً } [٤] .

فمفعول (يضلل) محذوف بدلالة { تجد له } ، وفيه أيضاً تأكيد على العموم المستفاد من اسم الشرط (مَن) .

ومثله قوله تعالى :

{ لكنِ اللهُ يشهدُ بما أنزلَ إليكَ أنزلَهُ بعلمِهِ والملائكةُ يشهدونَ وكفى باللهِ شهيداً } [٥] .

مفعول (يشهدون) محذوف لدلالة ما قبله عليه (أي : يشهدون بما أنزل إليك وشهادة الملائكة تبع لشهادة الله) [٦] .

---

١ ـــ راجع في هذا (الخصائص) لابن جني ، ج١ ، ص١٨٦ وما بعدها .

ومن أمثلة ما حذف لدلالة السياق قوله تعالى : **{ ولا تؤتوا السفهاءَ أموالَكُمُ التي جعلَ اللهُ لكُمْ قياماً وارزقوهُمْ فيها واكسوهُمْ وقولوا لهُمْ قولاً معروفاً }** ، الآية (٥) . الشاهد : (التي جعل الله) .

٢ ـــ الآية (٥٢) .

٣ ـــ انظر (البلاغة فنونها وأفنانها) ، ج١ ، ص٢٧٧ .

٤ ـــ الآية (١٤٣) .

٥ ـــ الآية (١٦٦) .

٦ ـــ انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج١، ص٢٨٦ وما بعدها .

فـــي كل ما ذكر كان الحذف لدلالة السياق ولكن قد يحذف المفعول لدلالة الحال عليه . ومنه قوله تعالى :

{ وليخـشَ الذيــنَ لــو تركوا منْ خلفِهِمْ ذريةً ضعافاً خافوا عليهمْ فليتقوا اللهَ وليقولوا قولاً سديداً }[١] .

والـــتقدير : وليخـــشَ اللهَ[٢] الذين لو تركوا ؛ ولما كانت الخشية لا تكون إلا له سبحانه آثر الأسلوب القرآني حذف المفعول به تأكيداً على هذا المضـــمون ، فليس في الوجود من يستحق الخشية إلا هو سبحانه ، إذ هي نـــوع مـــن أنـــواع العبادة ، فكان الحذف لدلالة الحال تأكيداً على وجوب صرفها له سبحانه مع ما فيه من قصد الإيجاز .

ومنه قوله تعالى :

{ ولكــلٍّ جعلْـنا مواليَ ممّا تركَ الوالدانِ والأقربونَ والذينَ عقدَتْ أيمانُكُمْ فآتوهُمْ نصيبَهمْ إنَّ اللهَ كانَ على كلِّ شيءٍ شهيداً }[٣] .

مفعــول (عقدت) محذوف ، قدره العلماء بـــ (عاقدتهم أو عقدت حلفهم)[٤] ، ولكن لأن المعنى شائع معروف آثر القرآن الحذف على الذكر حـــتى لا يذكـــر فضولاً وحشواً ، وهو صورة رائعة من صور الإيجاز في القرآن الكريم .

ب ــ إثبات معنى الفعل بصرف الاهتمام له :

قال الإمام عبد القاهر بعد أن مثل بعدة أمثلة منها قوله تعالى :

{ قلْ هلْ يستوي الذينَ يعلمونَ والذينَ لا يعلمونَ }[٥] .

---

١ ــ الآية (٩) .

٢ ــ انظر (الدر المصون) للسمين الحلبي ، ج٢ ، ص٣١٦ .

٣ ــ الآية (٣٣) .

٤ ــ انظر (الدر المصون) ، ج٢ ، ص٣٥٧ .

٥ ــ الآية (٩) ، سورة الزمر .

قال رحمه الله : (وهكذا كل موضع كان القصد أن تثبت المعنى في نفســه فعلاً للشيء ، وأن تخبر بأن من شأنه أن يكون منه ، أو لا يكون إلا مــنه ، أو لا يكــون مــنه ، فإن الفعل لا يُعدّى هناك ، لأن تعديته تنقض الغــرض وتغيــر المعنى)[1] . فتتوسيت تعدية الفعل لتحقيق تلك المقاصد البلاغية .

وأمثلته متعددة في سورة النساء منها قوله تعالى :

{ كذلكَ كنتُمْ من قبلُ فمنَّ اللهُ عليكُمْ فتبيَّنوا إنَّ اللهَ كانَ بما تعملونَ خبيراً }[2] .

الفعــل (تــبيَّنَ) أصله متعدٍ يدل على شدة طلب البيان[3] حسب ما تقتضــيه صــيغة التَّفَعُّل ، ولكنه عومل معاملة اللازم وحذف مفعوله أو لم يطــلب أصــلاً ، وهذا يعطي مزيداً من التأكيد على مضمون الفعل نفسه . والمعنى كما قال المفسرون : اطلبوا التثبت والبيان[4] .

ومنه قوله تعالى :

{ ولــنْ تستطيعوا أنْ تعدِلُوا بينَ النساءِ ولو حرَصتُمْ فلا تميلوا كلَّ الميــلِ فــتذروها كالمعــلقةِ وإنْ تصــلحوا وتــتقوا فإنَّ اللهَ كانَ غفوراً رحيماً }[5] .

حــذف مفعولي الفعلين (تصلحوا وتتقوا) لئلاّ يحدد الإصلاح بأمر دون آخــر ، فهــو مطلوب في كل أمر، وأولها ما جاء في شأن العقيدة ، وحــذف من الثاني لأنه لا تقوى إلا له جل شأنه . والحذف يجعل الاهتمام

---

١ ـــ انظر (دلائل الإعجاز) ، ص١٥٥ .

٢ ـــ جزء من الآية (٩٤) .

٣ ـــ انظر (التحري والتنوير) ، ج٥ ، ص١٦٧ .

٤ ـــ انظر (الدر المصون) ، ج٢ ، ص٤١٥ .

وكذا (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٩١ .

وكذا بتفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٦٩ .

٥ ـــ الآية (١٢٩) .

منصـــباً على الفعلين لما لهما من أهمية عظمى في حياة المسلم ، وفي بناء أسرة سعيدة .

وكذلك قوله تعالى :

{ والكــتابِ الــذي نــزّلَ عــلى رســولِهِ والكتابِ الذي أنزلَ من قبلُ ... }[١] .

حــذف مفعولــي الفعــلين (نــزّل وأنزل) لنفس الغرض . ولعلك لاحظــت الفــرق بيــن صيغة الفعلين فــ (نزّل) مع القرآن لأنه منجم ، و(أنزل) مع الكتاب الذي قبله لأنه نزل جملة واحدة ، وهذا من جليل نظم القرآن المعجز . ومثله قوله تعالى :

{ إلاّ الذينَ تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله ... }[٢] .

في الفعل أصلحوا لإرادة العموم .

وكذا قوله :

{ إنّا أوحينا إليكَ كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيينَ من بعدِهِ ... }[٣] .

في { أوحينا إلى نوح } أي : أوحيناه . ولكن المماثلة بالتشبيه أغنت عن ذكرها .

وكذا قوله تعالى :

{ إنَّ الذيــنَ كفــروا وظــلموا لــمْ يكُنِ اللهَ ليغفرَ لهُمْ ولا ليَهديَهُمْ طريقاً }[٤] .

حــذف مفعول الفعل (ظلموا) ليدل على الشمول ، فظلمهم لم يقع عــلى أنفســهم فحسب بل على جملة أشياء تخص الفرد والمجتمع ، وذكره يحصر المعنى ويضيقه .

---

١ ـــ جزء من الآية (١٣٦) .

٢ ـــ جزء من الآية (١٤٦) .

٣ ـــ جزء من الآية (١٦٣) .

٤ ـــ الآية (١٦٨) .

وتأمل قوله تعالى :

{ يبينُ اللهُ لكُمْ أنْ تضلوا واللهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ }[١] .

وهـــي آخـــر آية في هذه السورة المباركة ، بل آخر جملتين فيها ، وأول الآيـــة تتحدث عن الكلالة ، وهي حكم يخص حالة معينة من الإرث ، ولكـــن الخاتمـــة جمعت كل ما دار في السورة من الأحكام التي لو تمسكنا بهـــا مـــا ضـــللنا أبداً ، ولم تقتصر هذه الخاتمة على الكلالة كما قال أحد المفســـرين : (مفعول البيان محذوف ، و { أن تضلوا } مفعول لأجله على حـــذف مضـــاف تقديره يبين الله أمر الكلالة كراهة أن تضلوا فيها أي في حكمها)[٢] .

ج ــ البيان بعد الإبهام :

سماه عبد القاهر الإضمار على شريطة التفسير[٣] ، والمقصود بهذا مفعول المشيئة والإرادة[٤] ، والغرض البلاغي من حذفه هو التشويق وجذب الانتـــباه لمـــا فيـــه مـــن الإيضاح بعد الإبهام مما يحدث توافقاً بين المتلقي والنص . ومثله قوله تعالى :

{ ولو شاءَ اللهُ لسلَّطَهُمْ عليكُمْ فلقاتلوكُمْ فإنِ اعتزلوكُمْ فلمْ يقاتلوكُمْ وألقوا إليكُمُ السَّلَمَ فما جعلَ اللهُ لكُمْ عليهِم سبيلاً }[٥] .

---

١ ــ جزء من الآية (١٧٦) .

٢ ــ انظر (الدر المصون) ، ج٢ ، ص٤٧٥ .

وقـــد ذكـــر السمين وجهاً آخر في مفعول (يبين) هو أنه المصدر المؤول من قوله تعالى { أن تضـــلوا } ، أي يـــبين الله لكـــم الضلالة فتجتنبوها ، لأنه إذا بُيِّنَ الشر اجتنب ، وإذا بُيِّنَ الخير ارتكـــب . لكـــن واقع الآية يخالف هذا التقدير ، حيث إن الآية شرحت الخير ولم تشرح الضلال ثم حذرت منه . والله أعلم وأحكم .

٣ ــ انظر (دلائل الإعجاز) ، ص١٦٣ .

٤ ــ انظر (البلاغة فنونها وأفنانها) ، ج١ ، ص٢٨٥ .

٥ ــ جزء من الآية (٩٠) .

مفعــول الفعــل (شـــاء) محذوف لأنه مفهوم من جواب الشرط ، وتقديره : لو شاء الله تسليطهُم لسلّطهم ، وذكره كما قال الإمام عبد القاهر : (يمجُّه السمع وتعافه النفس ؛ وذلك أن في البيان إذا ورد بعد الإبهام وبعد التحريك له أبداً لطفاً ونبلاً لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك)[١] وحذفه يجذب انتــباه الســـامع ويغـــريه بالمشاركة في تكملة النص وفي ذلك متعة نفسية عظمى ، وهو أسلوب دارج عند العرب .

ومنه قوله تعالى :

{ إن يشـــأ يُذهـــبْكُمْ أيُّهـــا الناسُ ويأتِ بآخرينَ وكانَ اللهُ على ذلكَ قديراً }[٢] .

مفعول المشيئة محذوف لكونه مضمون الجزاء أي : إن يشأ إفناءكم وإيجاد آخرين يذهبكُم[٣] . ومع أن ذكره مناف لطبيعة اللغة إلا أنَّ في حذفه مـــلمح بلاغي آخر هو البعد عن المواجهة بهذا الأمر الشديد ؛ لأن الخطاب عام والإشارة أجلب للنفوس صالحها وطالحها .

٤ـــ حذف معمولات الفعل :

أ ـــ حذف حرف الجر :

قد يحذف حرف الجر لغرض بلاغي دقيق ، وذلك كقوله تعالى :

{ يســـتفتونَكَ فـــي النساءِ قلِ اللهُ يفتيكُمْ فيهنَّ وما يُتلى عليكُمْ في الكـــتابِ فـــي يتامى النساءِ اللاتي لا تؤتونهُنَّ ما كتِبَ لهُنَّ وترغبونَ أنْ تـــنكحوهُنَّ والمستضـــعفينَ مـــنَ الولدانِ وأنْ تقوموا لليتامى بالقسطِ وما تفعلوا من خيرٍ فإنَّ اللهَ كانَ به عليماً }[٤] .

---

١ ـــ انظر (دلائل الإعجاز) ، ص١٦٣ ، ١٦٤ .

٢ ـــ الآية (١٣٣) .

٣ ـــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٩٣ .

٤ ـــ الآية (١٢٧) .

حذف حرف الجر بعد (ترغبون) وحذفه له موقع عظيم من البلاغة أي : ترغبون عن نكاح بعضهن ، وفي نكاح بعض آخر ؛ لأن (رغب) يتعدى بـ (عن) للشيء الذي لا يُحبُّ وبـ (في) للشيء المحبوب ، فإذا حذف احتمل المعنيين إن لم يكن بينهما تناف[١] .

ب ـ حذف شبه الجملة :

من ذلك قوله تعالى :

{ ألمْ ترَ إلى الذينَ أوتوا نصيباً من الكتابِ يشترونَ الضلالةَ ويريدونَ أنْ تضلّوا السبيلَ }[٢] .

قال السمين الحلبي[*] : (والمشترى به محذوف ، أي : بالهدى كما صرح به في مواضع)[٣] مثل قوله تعالى :

{ أولئك الذينَ اشتروُا الضلالةَ بالهدى فما ربحت تجارتُهُمْ وما كانوا مهتدينَ }[٤] .

ولعل علة الحذف في الآية موضع الدراسة هو حصر الاهتمام في شراء الضلالة لأنها وسيلتهم الناجعة في محاولة إضلال المسلمين بدليل قوله تعالى : { ويريدون أن تضلوا السبيل } تنبيهاً للمخاطبين على سوء نوايا عدوهم ووسائله الخبيثة .

ومن ذلك قوله تعالى :

---

١ ـ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٥ ، ص٢١٣ .

٢ ـ الآية (٤٤) .

* هو الإمام شهاب الدين أبو العباس بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي ، ترك مؤلفات عديدة تنم عن ثقافته الواسعة ، منها : (الدر المصون) ، (القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز) ، توفي سنة ست وخمسين وسبعماءة للهجرة .

انظر مقدمة تحقيق كتابه (الدر المصون) ، ج١ ، ص٧ وما بعدها .

٣ ـ انظر (الدر المصون) ، ج٢ ، ص٣٧١ .

٤ ـ الآية (١٦) ، سورة البقرة .

{ فقاتلْ في سبيلِ اللهِ لا تُكَلَّفُ إلاّ نفسَكَ وحرِّضِ المؤمنينَ عسى اللهُ أنْ يكُفَّ بأسَ الذينَ كفروا واللهُ أشدُّ بأساً وأشدُّ تنكيلاً }[1] .

موضـــع الحـــذف قوله تعالى : { وحرض المؤمنين } حيث لم يذكر المُحـــرَّض عليه وهو القتال ، أي : حثَّهم على القتال ورغبهم فيه وعظهم لأنهم آثمون بالتخلف عنه لفرضه عليهم[2] ولا تعنِّف بهم[3] .

ثانياً : الذكر :

لذكـــر المســـند والمسند إليه أسرار بلاغية وقف عندها العلماء وقفة تـــأمل وخـــرجوا بجمـــلة أغراض[4] ، ستتناول الدراسة بعضها بالمناقشة والتحليل حسب ورود أمثلة لها من سورة النساء المباركة .

١ــ الأغراض البلاغية لذكر المسند إليه :

أ ــ يذكـــر المسند إليه لأنه الأصل في الكلام ، ولا مقتضى للعدول عنه ، وذلك مثل قوله تعالى :

{ يوصيكُمُ اللهُ في أولادِكُم للذكرِ مثلُ حظِّ الأنثيينِ ... }[5] .

---

١ ــ الآية (٨٤) .

٢ ــ انظر (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص٩٧ .

وأصل التحريض إزالة الحرض وهو ما لا خير فيه ولا يعتد به .

انظر (المفردات) للراغب الأصفهاني ، مادة (حرض) .

٣ ــ انظر (تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٥٩ .

٤ ــ قـــال الخطيـــب القزويـــني : وأمّـــا ذكره فإمّا لأنه الأصل ولا مقتضى للحذف ، وإمّا للاحتياط لضعف التعويل على القرينة ، وإمّا للتنبيه على غباوة السامع ، وإما لزيادة الإيضاح والتقرير ، وإما لإظهـــار تعظيمه أو إهانته ... وإمّا للتبرك بذكره ، وإما لاستلذاذه ، وإما لبسط الكلام حيث الإصغاء مطلوب .

انظر (الإيضاح) ، ص٢٢ – ٢٣ .

وكذا (المفتاح) للسكاكي ، ص٨٥ .

وكذا (شروح التلخيص) ، ج١ ، ص٢٨ .

٥ ــ جزء من الآية (١١) .

فهي جملة مستأنفة منزلة بمنزل البيان والتفصيل لقوله تعالى :

{ للرجالِ نصيبٌ ممَّا تركَ الوالدانِ والأقربونَ وللنساءِ نصيبٌ ممّا تركَ الوالِدانِ والأقربونَ ... }[١] .

فالمسند إليه (الله) أصل لا يمكن الاستغناء عنه ؛ لأن التركيب الصحيح للجملة يطلبه ، كما أن التركيب المعنوي أيضاً يطلبه ، وبإلحاح شديد ، حيث إن أمر تقسيم الإرث بين الذكور والإناث أمر مستحدث على مسامع القوم ، وما زالت النفوس في طور التربية ، فعندما يسند هذا الأمر للاسم الجليل لا يسع المؤمنين إلا التسليم التام وإن جاهدوا بذلك طبائعهم .

ومثله في الحكم قوله تعالى :

{ ولكُمْ نصفُ ما تركَ أزواجُكمْ إن لم يكنْ لهنَّ ولدٌ ... }[٢] .

فالجملة لا يمكن أن تستقيم إلا بوجود المسند إليه (أزواجكم) لأنها تحمل حكماً شرعياً لا يحدد إلا بوجود فاعل (ترك) وتعيينه بصورة خاصة ، ولذا ذكره ضرورة لغوية وبلاغية .

ومثله في الأصل قوله تعالى :

{ إنَّ اللهَ لا يظلمُ مثقالَ ذرةٍ ... }[٣] .

فلو حذف المسند إليه لأبهم المعنى مع أن المراد إيضاحه وتأكيده .

ب ــ زيادة التقرير والإيضاح أو تأكيد مضمون الجملة :

أكثر ما يكون هذا الغرض في الجمل الواقعة تذييلاً للآيات الكريمات التي يكون فيها المسند إليه لفظ الجلالة ، فلذكره وقع شديد على النفس حيث تتجمع كل مفاهيم الآية في نقطة واحدة يعمل هذا المسند إليه على ترسيخها

١ ــ جزء من الآية (٧) .

٢ ــ جزء من الآية (١٢) .

٣ ــ جزء من الآية (٤٠) .

بصـــورة قويـــة . وأمثلته كثيرة جداً في القرآن الكريم بعامة وسورة النساء خاصة ، ومنه قوله تعالى :

{ يا أيها الناسُ اتّقوا ربَّكُمُ الذي خلقَكُم من نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجَهـــا وبـــثَّ مـــنهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا اللهَ الذي تساءلونَ به والأرحامَ إنَّ اللهَ كانَ عليكُمْ رقيباً }[١] .

فقد جاء ذكر المسند إليه في آخر جملة في الآية { إن الله كان عليكم رقيباً } تأكيداً وتقريراً لكل ما مر في الآية من الأمر بالتقوى وإقامة الحجة عـــليهم بربوبيـــته ســـبحانه وعجيـــب نشـــأتهم وتكاثـــرهم وأمور حياتهم الاجـــتماعية . وتـــلك أمور عظام لا يتناسب تأكيدها إلا مع لفظ الجلالة ، وهكذا جمعت معاني الآية كلها في هذا المسند إليه العظيم ، ومن أعظم من الله اسماً ؟!

ومثله قوله تعالى :

{ وصيةً من اللهِ واللهُ عليمٌ حليمٌ }[٢] .

لـــم يشـــأ سبحانه إلا ذكر هذا المسند إليه في { والله عليم حليم } في تـــأكيد وتقريـــر مـــنقطع الـــنظير بعد ذكر تلك القضايا المتشعبة في أمور الميراث . وكان يغني السياق ظاهرياً لو جاء : وصية من الله العليم الحليم ، لكنها جملة التذييل التي تأتي دائماً مستقلة في التركيب بنفسها عمّا قبلها مع عمق صلتها به معنوياً .

ومثله قوله تعالى :

{ واستغفرِ اللهَ إنَّ اللهَ كانَ غفوراً رحيماً }[٣] .

فهـــا هو لفظ الجلالة مرة ثانية مع قرب ذكره ، ذُكر لزيادة التقرير والتأكيد والترغيب والحث على المبادرة بالاستغفار .

---

١ ــ الآية (١) .

٢ ــ جزء من الآية (١٢) .

٣ ــ الآية (١٠٦) .

ج ــ تخصص المسند إليه بالمسند[١] :

ومنه قوله تعالى :

{ إنّمـــا التوبةُ على اللهِ للذينَ يعملونَ السوءَ بجهالةٍ ثمَّ يتوبونَ من قريبٍ فأولئكَ يتوبُ اللهُ عليهِم وكان الله عليماً حكيماً }[٢] .

موضــــع الشاهد : { فأولئك يتوب الله عليهم } . فقد ميز هذا الفريق المشار إليه بالمسند إليه (أولئك) عن باقي التائبين بقبول توبتهم (فالمعنى هــؤلاء هــم الذيــن جعلهم الله مستحقين قبول التوبة منهم)[٣] إذ خصص المســند إليه بالحكم الذي يحمله المسند ، أي جعل الحكم في المسند خاصاً بالمســند إليــه ليميزه عن غيره . ويتضح هذا التخصيص أكثر عند حذف المســند إليــه لتكون الجملة : ثم يتوبون من قريب فيتوب الله عليهم . فعند مقارنــتها بالأصــل نشعر أن وجود المسند إليه قام بدور التخصيص على أكمل وجه .

ومنه قوله تعالى :

{ أولئكَ الذينَ لعنَهُمُ اللهُ ومَنْ يلعنِ اللهُ فلن تجدَ له نصيراً }[٤] .

وذلك بعد قوله تعالى :

---

١ ــ قال السكاكي : وأما الحالة التي تقتضي إثباته فهي أن يكون الخبر عام النسبة إلى كل مسند إليه والمراد تخصيصه بمعين ، كقولك : زيد جاء وعمرو ذهب وخالد في الدار . (المفتاح) ، ص٨٥ .

وراجعــه الخطيــب بقوله : فيه نظر لأنه إن قامت قرينة تدل عليه إن حذف فعموم الخبر وإرادة تخصيصه بمعين وحدهما لا يقتضيان ذكره وإلا فيكون ذكره واجباً . (الإيضاح) ، ص٢٣ .

وأوضــح ذلك السبكي بقوله : لعله أراد بالتخصيص ذكر مسند إليه خاص أي معين . وفي موضع آخر قال : أي تخصيص المسند إليه بالمسند . (عروس الأفراح) ضمن شروح التلخيص ، ج١ ، ص٢٨٦ . والظاهر أن إرادة التخصيص تعني أن المسند إليه قد تميز عن العموم بالحكم الذي يحمله المسند فتعين به دون غيره والأمثلة الواردة توضح ذلك .

٢ ــ الآية (١٧) .

٣ ــ انظر (التحرير والتنوير) ، ج٤ ، ص٢٨٠ .

٤ ــ الآية (٥٢) .

{ ألـمْ تـرَ إلى الذيـنَ أوتـوا نصيباً منَ الكتابِ يؤمنونَ بالجبتِ والطاغوتِ ويقولونَ للذينَ كفروا هؤلاءِ أهدى من الذينَ آمنوا سبيلاً }[١] .

قال البقاعي : (ولما أنتج ذلك خزيهم قال " أولئك " أي البعداء عن الحضـرات الربانية " الذين لعنهم الله " أي طردهم بجميع ما له من صفات الكمـال طرداً هم جديرون بأن يختصوا به)[٢] مؤكداً على أن ذكر المسند إليه كان غرضه البلاغي اختصاصه بالمسند .

ومنه قوله تعالى :

{ إنَّ الذيـنَ توفَّاهُمُ الملائكةُ ظالمي أنفسِهِمْ قالوا فيمَ كنتُمْ قالوا كُنّا مستضـعفينَ فـي الأرضِ قالوا ألمْ تكُنْ أرضُ اللهِ واسعةً فتهاجروا فيها فأولئكَ مأواهُمْ جهنَّمُ وساءَتْ مصيراً }[٣] .

موضـع الشـاهد قولـه تعالى { فأولئك مأواهم جهنّم } حيث خص المسند إليه (أولئك) بهذا الحكم الذي يحمله المسند (مأواهم جهنم) . فمن مـات مـن أولئك بعد أن قبل الفتنة وارتد فهو كافر ومأواه جهنم على جهة الخـلود ، (وهـذا هو ظاهر أمر تلك الجماعة وإن فرضنا فيهم من مات مؤمـناً وأكـره على الخروج ، أو مات قبل ذلك فإنما هو عاص في ترك الهجرة)[٤] .

<u>د ـ ذكر *المسند إليه للتعظيم* :</u>

هذا الغرض تردد في كتب البلاغة بقصر صفة التعظيم على المسند إليـه فقـط ، ولكن بالاستقراء وجدت أن صفة التعظيم لا تخصه وحده بل تنسـحب أحيانـاً عـلى المسـند أو المفعول به وإليك بيان ذلك من الأمثلة المختارة .

---

١ ـ الآية (٥١) .
٢ ـ انظر (نظم الدرر) ، ج٥ ، ص٣٠١ .
٣ ـ الآية (٩٧) .
٤ ـ انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج٢ ، ص٩٩ .

١ ـ لتعظيم المسند إليه خاصة :

قال تعالى :

{ فـإذا قضيتُمُ الصلاةَ فاذكروا اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جنوبِكُمْ فإذا اطمأننتُمْ فأقيموا الصلاةَ إنَّ الصلاةَ كانَتْ على المؤمنينَ كتاباً موقوتاً }[١] .

إذا كان العلماء قد اشترطوا في ذكر المسند إليه لغرض بلاغي صحة الجمـلة بعـد حذفـه فهذه الآية تمثل ذلك . حيث يمكن أن يكون السياق : فأقيموا الصلاة لأنها كانت على المؤمنين ... أو فهي على المؤمنين أو نحو ذلك . ولكن الأسلوب القرآني آثر ذكر الصلاة للمرة الثالثة في جملة اسمية مؤكدة قال فيها المفسرون أن الأولى في صلاة الخوف والمرض ، والثانية فـي صلاة الأمن والاستقرار[٢] ، أما الثالثة فذكرت تعظيماً لشأنها وتأكيداً على أهميتها وأهمية الالتزام بتلك المواقيت التي جعلها الله لها .

ومما جاء فيه الذكر لتعظيم المسند إليه قوله تعالى :

{ ما يفعلُ اللهُ بعذابِكُمْ إنْ شكرتُمْ وآمنتُمْ وكانَ اللهُ شاكراً عليماً }[٣]

ظهـور لفـظ الجلالـة فـي قوله تعالى { وكان الله شاكراً عليماً } واتصافه بهذه الصفات مؤكداً عظمة هذا المسند إليه ، وهو أهل له دون شك فهـو سبحانه المتجاوز عن سيئاتكم في حالة شكركم وإيمانكم (فالشكر منه سـبحانه هو الرضا باليسير من طاعة عباده وأضعاف الثواب بمقابلته وهو العليم بكل شيء من جملتها شكركم وإيمانكم)[٤] . وهل هناك اسم أحق من لفظ الجلالة بهذه الصفات ؟!

---

١ ـ جزء من الآية (١٠٣) .

٢ ـ انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج٢ ، ص١٠٦ .

وكذا تفسير (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص١٣٨ .

وكذا (نظم الدرر) للبقاعي ، ج٥ ، ص٣٨٤ .

أو أي تفسير شئت .

٣ ـ الآية (١٤٧) .

٤ ـ انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج١ ، ص٦٠٠ .

ومنه قوله جل شأنه :

{ والذينَ آمنوا باللهِ ورسُلِهِ ولم يفرقوا بينَ أحدٍ منهم أولئكَ سوفَ يؤتيهِمْ أجورَهُمْ وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً }[١] .

فظهور اسم الإشارة { أولئك سوف يؤتيهم } تعظيماً لشأن هذا المسند إليـــه ، وقـــد كان يكفي لو جاء السياق : ولم يفرقوا بينَ أحد منهم فسوف يؤتيهـــم أجورهـــم . ولكن شتان بين هذا وذاك ؛ فذُكِرَ المسند إليه تعظيماً وتشريفاً للمنعوتين بهذه النعوت الجليلة[٢] .

٢ ــ *ذكر المسند إليه تعظيماً للمسند :*

ومنه قوله تعالى :

{ إنَّ اللهَ يأمرُكُمْ أنْ تؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلِها وإذا حكمتُمْ بينَ الناسِ أنْ تحكموا بالعدلِ ... }[٣].

أفـــلا نشـــعر أن شأن المسند - وهو الأمر - قد عظم بعظمة المسند إليه ، فأمر منه سبحانه لابد أن يكون عظيماً .

ومثله قوله تعالى :

{ يبينَ اللهُ لكُمْ أنْ تضِلُّوا ... }[٤] .

فذكـــر المسند إليه أضفى مزيداً من التعظيم على المسند (يبين) ؛ لأن ذلك التبيين لا بد أن يكون أعظم تبيين .

---

١ ــ الآية (١٥٢) .

٢ ــ انظر (روح المعاني) للألوسي ، م٢ ، ج٥ ، ص٥ .

٣ ــ جزء من الآية (٥٨) .

٤ ــ جزء من الآية (١٧٦) .

٣ــ ذكر المسند إليه لتعظيم المفعول به :

وذلك مثل قوله تعالى :

{ وأنــزلَ اللهُ عــليكَ الكتابَ والحكمةَ وعلّمَكَ ما لمْ تكُنْ تعلمُ وكانَ فضلُ اللهِ عليكَ عظيماً }[١] .

فقــد استمد المفعول به التعظيم من ذكر المسند إليه ، فكتاب وحكمة وعلم منزل منه سبحانه وتعالى لابد أن يكونوا ذوي شأن عظيم[٢] .

ومنه قوله تعالى :

{ ورسُــلاً قــد قصصناهُمْ عليكَ من قبلُ ورسُلاً لمْ نقصصْهُمْ عليكَ وكلَّمَ اللهُ موسى تكليماً }[٣] .

موضــع الشــاهد : { كلم الله موسى } ، وهل أعظم منها منة وميزة لنــبي الله موســى عــليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم ، إنه كليم الله ســبحانه وتعالى . فكان ذكر المسند إليه (الله) تشريفاً وتعظيماً للمفعول به (موســى) ، ودليل ذلك موجود في الآية نفسها حيث قال سبحانه وتعالى { قصصناهم } ولم يقل : قصّ الله .

هــ ــ ذكر المسند إليه للتحقير :

ومن أمثلته في سورة النساء قوله تعالى :

{ يعدُهُمْ ويُمنِّيهِمْ وما يعدُهُمْ الشيطانُ إلاّ غروراً }[٤] .

فذكــر الشــيطان هنا مع إمكان الاستغناء عنه بالضمير لوجوده في الآية التي قبلها :

---

١ ــ جزء من الآية (١١٣) .

٢ ــ قــال أبــو السـعود : أي القــرآن الجامع بين العنوانين ، وقيل المراد بالحكمة السنة ، وعلّمك بالوحي من خفيات الأمور .

انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج١ ، ص٥٨٣ .

٣ ــ الآية (١٦٤) .

٤ ــ جزء من الآية (١٢٠) .

{ ومنْ يتَّخذِ الشيطانَ ولياً من دونِ اللهِ فقدْ خسرَ خُسراناً مبيناً }[١]

بـل بـدأت الآية موضع الدراسة بضميره في { يعدهم ويمنيهم } ؛ ولكـن تحقيـراً له - لعـنه الله - ولوعده ولمن اغتروا بهذا الوعد ذكر هذا المسند إليه هنا صراحة لأن الشيطان اسم يحمل المذمة إن كان اشتقاقه من (شطن) أي : تباعد ، وهو قد تباعد عن الحق . وإن كان اشتقاقه من شاط يشـيط : أي احـترق غضـباً ، وهـو اسـم لكل عارم من الجن والإنس والحيوان[٢] .

ومنه قوله تعالى :

{ أولئكَ مأواهُمْ جهنَّمُ ولا يجدونَ عنها محيصاً }[٣] .

إشارة إلى (من اتخذ الشيطان من دون الله ولياً باعتبار معناه ، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الخسران)[٤] . فقد جعلوا مثالاً للضـلال تـروى حكايتهم عبر الأجيال . فهم بعداء من كل خير[٥] . وهذا كاف لتحقيرهم .

ومنه قوله تعالى :

{ أولئكَ همُ الكافرونَ حقاً وأعتدْنا للكافرينَ عذاباً مهيناً }[٦] .

فهم بعداء بغضاء لأنهم غارقون في الكفر[٧] . ودليل احتقارهم قرآن يُتلى : { وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً } ؛لأنهم قد كفروا بالله سبحانه وتعالى ورسله ، ويريدون أن يجعلوا الدين تابعاً لأهوائهم المريضة .

---

١ ـ جزء من الآية (١١٩) .

٢ ـ انظر (المفردات) ، مادة (شطن) .

٣ ـ الآية (١٢١) .

٤ ـ انظر (روح المعاني) للألوسي ، م٢ ، ج٥ ، ص١٥١ .

٥ ـ انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج٥ ، ص٤٠٨ .

٦ ـ الآية (١٥١) .

٧ ـ انظر (نظم الدرر) ، ج٥ ، ص١٥١ .

و ــ ذكر المسند إليه للتبرّك :

مثل قوله تعالى :

{ واللهُ أعلمُ بأعدائكُمْ وكفى باللهِ ولياً وكفى باللهِ نصيراً }[١] .

(أي : إذا أضمر لكم الأعداء السوء فالله وليكم يهديكم ويتولى أموركم شأن الولي مع مولاه)[٢] . فإعادة المسند إليه وتكراره بهذه الطريقة وفي هذا المقام ما هو إلا تبرك به للنصرة على الأعداء .

ومنه قوله تعالى :

{ وما أرسلْنا منْ رسولٍ إلا ليطاعَ بإذنِ اللهَ ولوْ أنَّهُمْ إذْ ظلموا أنفسَهُمْ جاءوكَ فاستغفروا اللهَ واستغفرَ لهُمُ الرسولُ لوجدوا اللهَ تواباً رحيماً }[٣] .

والتبرك في الآية بموضعين : أولهما في قوله تعالى { فاستغفر لهم الرسول } ذكر المسند إليه (الرسول) تبركاً باستغفاره. (ولم يقل المولى : واستغفرت لهم ، وعدل عنه إلى طريقة الالتفات تفخيماً لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعظيماً لاستغفاره ، وتنبيهاً على أنَّ شفاعة من اسمه الرسول من الله بمكان)[٤] .

٢ــ الأغراض البلاغية لذكر المسند :

يذكر المسند لأغراض بلاغية كثيرة ، منها ما يتفق فيها مع المسند إليه ، ومنها ما يخصه وحده . ومن تلك الأغراض التي يشترك فيها مع المسند إليه ما يلي :

---

١ ــ الآية (٤٥) .

٢ ــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٥ ، ص٧٣ .

٣ ــ الآية (٦٤) .

٤ ــ انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٧٧ .

أ ـ أنّه الأصل ، ولا مقتضي للعدول عنه . مثل قوله تعالى :

{ إنَّ اللهَ لا يغفــرُ أنْ يُشركَ بهِ ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لمنْ يشاءُ ومنْ يُشرِكْ باللهِ فقد افترى إثماً عظيماً }[1] .

على الرغم من إعادة الفعل (يغفر) إلا أنه لا يمكن العدول عنه إلى شــيء آخر ، والسبب حاجة المعنى إلى (التفرقة بين الشرك وما دونه بأن الله لا يغفر الأول البتة ويغفر الثاني لمن يشاء)[2] ، فاختلاف الحكمين في أمر من أهم الأمور العقدية أدى إلى ذكر المسند الثاني .

ومنه قوله تعالى :

{ مَــنْ يُطِــعِ الرسولَ فقدْ أطاعَ اللهَ ومَنْ تولى فما أرسلْناكَ عليهِمْ حفيظاً }[3] .

المسند الذي يعتبر أصلاً ولا يمكن العدول عنه مع تكرار ذكره قوله تعالى (يطع) ، وسبب نزول الآية يوضح ذلك ، (روي أنه عليه الصلاة والسّــلام قال : من أحبني فقد أحب الله ، ومن أطاعني فقد أطاع الله . فقال المنافقون : ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل لقد قارف الشركَ وهو ينهى أن يُعْــبَدَ غيــرُ اللهِ ، ما يريد إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى - عليه الصلاة والسلام - فنزلت . والتعبير عنه - عليه الصلاة والسلام - بالرســول دون الخطــاب للإيــذان بأن مناط كون طاعته - عليه الصلاة والســلام - طاعة له تعالى ، ليس لخصوصية ذاته - عليه الصلاة والسلام - بل من حيثية رسالته)[4] ، فالتأكيد على أن طاعته هي السبيل إلى طاعة

---

١ ـ الآية (٤٨) .

٢ ـ انظر (روح المعاني) للألوسي ، م٢ ، ج٥ ، ص٥٣ .

٣ ـ الآية (٨٠) .

٤ ـ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٥٥ . وكذا (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص٩١ .
والحديث مروي عن : ابن أبي حاتم عن أحمد بن سنان عن معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ، وهو ثابت في الصحيحين .
انظر تفسير ابن كثير ، ج١ ، ص٥٢٩ .

الله أوجب ذكر المسند وبصيغة المضارع ليدل على وجوب هذا الأمر في كل زمان ومكان .

ومنه قوله تعالى :

{ ودُّوا لـوْ تكفـرونَ كمـا كفروا فتكونونَ سواءً فلا تتخذوا منْهُمْ أوليـاءَ حـتّى يهاجـروا في سبيلِ اللهِ فإنْ تولَّوا فخذوهُمْ واقتلوهُمْ حيثُ وجدتموهُمْ ولا تتخذوا منهُمْ ولياً ولا نصيراً }[١] .

موضـع الشاهد في إعادة الفعل المنهي عنه (ولا تتخذوا) ، إذ لا مقتضى للعدول عنه ؛ لأن النهي الأول في حال الشك في كفرهم ، أما في الثاني فذلك بعد التأكد . قال الطبري : (وهذا الخبر من الله جل ثناؤه إبانةٌ عـن صحة نفاق الذين اختلف المؤمنون في أمرهم وتحذيرٌ لمن دافع عنهم عـن المدافعة عنهم)[٢] ، فهو برهان على نفاقهم، وتحذير من مخالطتهم ، فودادهـم وكـل ذلك لا يتأكد إلا بإعادة العامل المنهي عنه لزيادة التقرير والإيضاح والتأكيد .

ب ـ يذكر المسند لزيادة التقرير والإيضاح والتأكيد . وذلك مثل قوله تعالى في سورة النساء :

{ إنَّ الذينَ يأكلونَ أموالَ اليتامى ظلماً إنَّما يأكلونَ في بطونِهِمْ ناراً وسيصلَوْنَ سعيراً }[٣] .

لا شـك أن إعـادة المسند (يأكلون) للتأكيد على أن هذا الأكل من أبشع صور الظلم ، ولذلك قرن بصورة موضحة له (أي يأكلون ما يجرهم إلى الـنار فكأنه نار في الحقيقة . روي أنه يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة

---

١ ـ الآية (٨٩) .

٢ ـ انظر (جامع البيان) ، م٤ ، ج٥ ، ص١٢٤ .

٣ ـ الآية (١٠) .

وهو كثير منه الآية (١٠٢) في قوله تعالى { وليأخذوا حذرهم } و { خذوا حذركم } .

والدخان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه وأذنيه وعينيه فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم في الدنيا)[١] .

ومنه قوله تعالى :

{ ولا تهِـنوا في ابتغاءِ القومِ إنْ تكونوا تألمونَ فإنَّهُمْ يألمونَ كما تألمونَ وترجونَ من اللهِ ما لا يرجونَ وكانَ اللهُ عليماً حكيماً }[٢] .

موضــع الشاهد : { يألمون كما تألمون } ، وكان يكفي السياق " أنهم كذلــك " ، ولكن أعيد المسند لضرورة بلاغية ملحة لا يمكن الاستغناء عنها (فهــو تعليل كاف للنهي في أول الآية " ولا تهنوا " ، وتشجيع لهم أي ليس مــا تقاســونه مــن الآلام مختصاً بكم بل هو مشترك بينكم وبينهم ثم إنهم يصبرون على ذلك فما لكم لا تصبرون مع أنكم أولى به منهم حيث ترجون مــن الله مــن إظهار دينكم على سائر الأديان ومن الثواب في الآخرة ما لا يخطــر بــبالهم)[٣] . ومن هنا كان لإعادة المسند (يألمون) مزية التقرير والإيضاح .

ومنه قوله تعالى :

{ لكنِ اللهُ يشهدُ بما أنزلَ إليكَ أنزلَهُ بعلمِهِ والملائكةُ يشهدونَ وكفى باللهِ شهيداً }[٤] .

جاء الأسلوب (بعطف شهادة الملائكة على شهادة الله سبحانه وتعالى لــزيادة تقريــر هذه الشهادة بتعدد الشهود ، ولأن شهادة الله مجاز في العلم وشــهادة الملائكــة حقيقــة . وإظهار الفعل (يشهدون) مع وجود حرف العطف للتأكيد)[٥] ، ولولا غرض التأكيد والتقرير والإيضاح لكفى السياق

---

١ ـــ انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٥١ .

٢ ـــ الآية (١٠٤) .

٣ ـــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٨٠ .

وكذا (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص١٣٨ .

٤ ـــ الآية (١٦٦) .

٥ ـــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٦ ، ص٤٤ ، ٤٥ .

– والملائكــة كذلك – ولكن دحراً وإبطالاً لافتراء المنكرين أتى هذا التأكيد الشديد على أن القرآن الكريم منزّل من قبله سبحانه وتعالى ، ثم توج بقوله تعالى : { وكفى بالله شهيداً } .

ج ــ يذكر المسند لاختصاصه بالمسند إليه . ومن ذلك قوله تعالى :

{ لــلرجالِ نصيبٌ مما تركَ الوالدانِ والأقربونَ وللنساءِ نصيبٌ مما تركَ الوالدانِ والأقربونَ مما قلَّ منه أو كَثُرَ نصيباً مفروضاً }[١] .

فــتكرار المســند (للنساء) يثبت أن كل فئة منهم مستحقين لأصل النصــيب[٢] وإلاّ لقيــل لــلرجال والنســاء نصيب ، ولكن أعيد مع النساء للاعتــناء بأمــرهن وللإيذان بأصالتهن في استحقاق الإرث ، والإشارة من أول الأمــر إلى تفــاوت مــا بين نصيبي الفريقين والمبالغة في إبطال حكم الجاهلية[٣] ، خصوصاً أنها أول ما نزل في ذلك[٤] .

وليس أدل على الاختصاص من قوله عز من قائل :

{ ولله ما في السمواتِ وما في الأرضِ ... }[٥] .

وقــد تكــررت كثيراً في القرآن الكريم ، وفي سورة النساء خاصة تأكيداً على تفرده سبحانه في الملك .

ومنه قوله تعالى :

{ فكيــفَ إذا جئــنا مــن كــلِّ أمَّــةٍ بشهيدٍ وجئنا بكَ على هؤلاءِ شهيداً }[٦] .

---

١ ــ الآية (٧) .

ومثلها الآية (٣٢) : { للرجال نصيبٌ مما اكتسبوا وللنساءِ نصيبٌ مما اكتسبن .. } .

٢ ــ انظر (التفسير الكبير) للرازي ، ج٩ ، ص١٩٥ .

٣ ــ انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج١ ، ص٤٨٦ .

٤ ــ انظر (روح المعاني) ، م٢ ، ج٤ ، ص٢١٠ .

٥ ــ انظر الآيتين (١٣١) ، (١٣٢) ، وكذا الآيات (١٢٦) ، (١٣٤) ، (١٧٠) ، (١٧١)

٦ ــ الآية (٤١) .

لقد أعيد المسند (جئنا) مرة ثانية مع المسند إليه وهو نون العظمة ليـدل عـلى اختصاص هذا المسند بالمسند إليه ، فهذا الموقف العظيم في ساحة العرض الكبرى ، كل أمة حاضرة ، وعلى كل أمة شهيد بأعمالها[١] ، ويجـيء المـلك الواحد الأحد برسولنا الحبيب شاهداً على الجميع . عمل يخـتص به سبحانه فهو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء في يوم لا ينفع فيـه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . أي مشهد هذا ! وأي تكريم للخـليل المصـطفى - صـلوات الله وسـلامه عليه - ! ولذا دمعت عيناه الشريفتان عندما تليت عليه هذه الآيات[٢] .

ومنه قوله تعالى :

{ ألمْ ترَ إلى الذينَ يزعُمونَ أنَّهُمْ آمنوا بما أنزِلَ إليكَ وما أنزلَ من قبـلِكَ يريدونَ أنْ يتحاكموا إلى الطاغوتِ وقد أمروا أن يكفروا بهِ ويريدُ الشيطانُ أنْ يُضلَّهُمْ ضلالاً بعيداً }[٣] .

المسـند المذكور لغرض التخصيص (أنزل) في قوله تعالى { وما أنزل من قبلك } لقد كان يغني السياق ذكر فعل واحد ليكون " ما أنزل إليك ومـن قبـلك " ، ولكـن شتان بين هذا وذاك ، وأحسب أن ذكره لاختلاف المُـنْزَلِ ، فما أنزلَ إليكَ أي : القرآن الكريم ، أما ما أنزل من قبلك أي : إلى موسـى عليه السلام فهو التوراة[٤] ، وكل منهما مختص بنبي وإن كان

---

١ ـ انظر (في ظلال القرآن) لسيد قطب ، ج٢ ، ص٣٧٣ .

٢ ـ انظر (المحرر الوجيز) لابن عطية ، ج٢ ، ص٥٥ .

أو أي تفسير شئت .

٣ ـ الآية (٦٠) .

٤ ـ انظر (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص٦٧ .

وقوله تعالى : **{ ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك }** مبني للمفعول وقُرئا مبنيين للفاعل وهو الله تعالى .

انظر (الدر المصون) للسمين الحلبي ، ج٢ ، ص٣٨١ .

مصــــدرهما واحـــداً ؛ فلهذا الاختصاص أعيد ذكر المسند تأكيداً على تلك الفروق . والله أعلم وأحكم .

ومنه قوله تعالى :

{ الذينَ يتربصونَ بكمْ فإنْ كانَ لكمْ فتحٌ من اللهِ قالوا ألمْ نكُنْ معكمْ وإن كـــانَ للكافرينَ نصيبٌ قالوا ألم نستحوذْ عليكُم ونمنعكمْ من المؤمنينَ ... }[١] .

والاختصــــاص بيـــنٌ في قوله تعالى : { فإن كان لكم فتح } ، وكذا { وإن كان للكافرين نصيب } .

د ــ يذكر المسند تنبيهاً على اختلاف الموقف . وذلك مثل قوله تعالى :

{ الذينَ آمنوا يقاتلونَ في سبيلِ اللهِ والذينَ كفروا يقاتلونَ في سبيلِ الطاغوتِ فقاتلوا أولياءَ الشيطانِ إنَّ كيدَ الشيطانِ كانَ ضعيفاً }[٢] .

المســـند المذكور بلاغياً إعادة الفعل (يقاتلون) لبيان دافع كل قتال مـــنهما وذكــــره كذلك (ترغيباً وتشجيعاً للمؤمنين وإخباراً من الله أنهم إنما يقاتـــلون في سبيل الله ، فهو وليهم وناصرهم ، وأعداؤهم يقاتلون في سبيل الشـــيطان فلا ولي لهم إلا الشيطان ، وكيد الشيطان للمؤمنين إلى جانب كيد الله للكافرين أضعف شيء وأوهنه)[٣] .

ومنه قوله تعالى :

{ وإنْ تُصِـــبهُمْ حســـنةٌ يقولوا هذه من عند اللهِ وإنْ تُصبْهُمْ سيئةٌ يقولـــوا هـــذه مـــن عندِكَ قُلْ كلٌّ من عندِ اللهِ فما لهؤلاءِ القومِ لا يكادونَ يفقهونَ حديثاً }[٤] .

---

١ ــ جزء من الآية (١٤١) .

٢ ــ الآية (٧٦) .

٣ ــ انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٨١ .

٤ ــ جزء من الآية (٧٨) .

الملاحـــظ أن اختلاف الموقف أدى إلى ذكر المسند مرتين لتدل كل مـــنهما عـــلى حادثة معينة في وقت مختلف وهو تعريض بهم وتنبيه على ســـخفهم ، لذلك ساغ التكرار لإبراز ضلالهم بأوضح ما يكون ؛ لأن الأمر كله من عند الله دون منازع .

ومنه قوله تعالى :

{ ورفعْنا فوقَهمُ الطورَ بميثاقِهِمْ وقلْنا لهُمُ ادخلوا البابَ سُجَّداً وقلنا لهُمْ لا تعدوا في السبتِ وأخذنا منهُمْ ميثاقاً غليظاً }[١] .

المســـند المقصود (قلنا) ، وتكراره كما هو واضح لاختلاف زمن وموقف القول أو لتعداد مواطن عصيانهم ، وهي : " رفع الطور ، والأمر بقـــتال أهـــل أريحا ، ودخولهم بابها سُجّداً ، وتحريم صيد البحر عليهم في الســـبت "[٢] ، أو إنّهـــا مواقـــف مختـــلفة فـــي أزمنة مختلفة وربما لجيلٍ مختلف[٣] .

ومنه قوله تعالى :

{ ولأضـــلنَّهُمْ ولأمنّيَـــنَّهُم ولآمُرنَّهُمْ فلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الأنعامِ ولآمُرنَّهُمْ فـــليُغيِّرُنَّ خلقَ اللهِ ومن يتخذِ الشيطانَ ولياً من دونِ اللهِ فقد خسرَ خُسراناً مبيناً }[٤] .

---

١ ــ الآية (١٥٤) .

٢ ــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٦ ، ص١٧ ، ١٨ .

٣ ــ قـــال ابـــن عطيـــة : (الطـــور) الجـــبل اسم جنس ، هذا قول ، وقيل (الطور) : كل جبل غيـــر منـــبت وبالشـــام جـــبل قـــد عـــرف بـــالطور ولـــزمه الاســـم ، وهو طور سيناء ، وليس بالمـــرفوع عـــلى بـــني إســـرائيل ، لأن رفـــع الجـــبل كان فيما يلي فحص التيه من ديار مصر ، وهـــم ناهضـــون مـــع موســـى عليه السلام ، وقوله **{ و قلنا لهم ادخلوا الباب سُجَّداً }** : هو باب فـــي بيـــت المقـــدس المعـــروف بـــباب حطـــة ، وقوله : **{ وقلنا لهم لا تعدوا في السبت }** أي : عـــلى الحيـــتان وفـــي ســـائر الأعمـــال ، وهـــؤلاء كـــانوا بأَيْـــلَةَ مـــن ســـاحل الـــبحر ، فأمروا (بالسكون عن كل شغل في يوم السبت فلم يفعلوا) .

انظر (المحرر الوجيز) ، ج٢ ، ص١٣٢ .

٤ ــ الآية (١١٩) .

في إعادة المسند (ولآمرنهم) ؛ لما لهذا العمل من أثر كبير على ولد آدم في الدنيا والآخرة .

هـ ـ ذكر المسند لإرادة التجديد أو الثبوت .

من المعروف بلاغياً أن الفعل يفيد التجدد لأنه مرتبط بزمن والأزمنة تتغير ، أما الاسم فهو ثابت على الدوام ، وعليه فإذا ذكر الحدث في صيغة الفعل اكتسب معنى التجدد وإذا ذكر في صيغة الاسم دل على الثبوت[١] . والفرق بينهما يظهر في أثر كل منهما على السياق . تأمل قوله تعالى :

{ فأولئكَ عسى اللهُ أنْ يعفُوَ عنهم وكان اللهُ عفواً غفوراً }[٢] .

الآية تتحدث عن عفو الله جل جلاله عن أناس مستضعفين استثنوا من فئة أخبر عنهم أنهم باءوا بأسوأ مصير ، فهم في جهنم - أعاذنا الله منها[٣] - . وحالهم هذا يتجدد مع غيرهم في كل زمان ومكان ودائماً يقترن معه تجدد عفو الله سبحانه ، وما هذا التجدد في العفو إلا صفة ثابتة له جل شأنه وهو أنه (عفو) فمع الفعل ناسب التجدد ومع الاسم ناسب الثبوت .

---

١ ـ انظر (دلائل الإعجاز) ، ص ١٤٢ وما بعدها .

٢ ـ الآية (٩٩) .

ومنه قوله تعالى : **{ واستغفرِ اللهَ إنَّ اللهَ كانَ غفوراً رحيماً }** ، (١٠٦) .

ومنه قوله تعالى : **{ ولا تجادلْ عن الذينَ يختانون أنفسهم إنَّ اللهَ لا يحبُّ من كانَ خوّاناً أثيماً }** ، (١٠٧) .

ومنه قوله تعالى : **{ ومن يعملْ سوءً أو يظلم نفسه ثم يستغفرِ اللهَ يجدِ اللهَ غفوراً رحيماً }** ، (١١٠) .

٣ ـ جاءت آية الدراسة في رحاب القول الكريم :

{ إنَّ الذينَ توفاهُمُ الملائكةُ ظالمي أنفسِهِمْ قالوا فيمَ كنتُمْ قالوا كنّا مستضعفينَ في الأرضِ قالوا ألَمْ تكُنْ أرضُ اللهِ واسعةً فتهاجروا فيها فأولئك مأواهُم جهنَّمُ وساءتْ مصيراً * إلاّ المستضعفينَ من الرجالِ والنساءِ والولدانِ الذينَ لا يستطيعونَ حيلةً ولا يهتدونَ سبيلاً } ، (٩٧ ـ ٩٨) .

وقد جيء بكلمة الإطماع[١] (عسى) حتى لا يُوجَبَ شيءٌ على الله . فالعفو بمشـــيئته ســـبحانه وإن كان صفة الله الثابتة ، ولهذا قُرن في الآية الكريمة بصفة اسمية أخرى وهي لفظ (غفور) ليدل على أن هذا شأن الله وصفته على الدوام .

ومنه قوله تعالى :

{ وإنِ امرأةٌ خافَتْ مِنْ بعلِها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناحَ عليهما أن يُصــلحا بينهما صلحاً والصلحُ خيرٌ وأُحضِرتِ الأنفُسُ الشُّحَّ وإنْ تحسنوا وتتّقوا فإنَّ اللهَ كانَ بما تعملونَ خبيراً }[٢] .

فالتجدد ظاهر في قوله { أن يصلحا } ، وهي صيغة تقتضيها طبيعة البشـــر ، ففي ظروف الحياة تتجدد الخلافات ويتطلب ذلك تجديد الصلح ، وما ذلك إلا لأن الصلح خير ، وهذه صفة ثابتة للمجتمع الإسلامي .

وأيضاً قد يلحظ جمال التفاوت بين الفعل والاسم في الآية الكريمة :

{ إنَّ المـــنافقينَ يخادعونَ اللهَ وهو خادعُهُمْ وإذا قاموا إلى الصلاةِ قاموا كُسالى يراءونَ الناسَ ولا يذكرونَ اللهَ إلاّ قليلاً }[٣] .

فالمنافقون ديدنهم أن يخادعوا الله بإظهار الإيمان وإبطان الكفر لهذا جـــاءت صـــيغة الفعل في الزمن المضارع ؛ لتدل على التجدد الدائم طوال حياتهم وعبر الأجيال إلى أن تقوم الساعة ، (والله فاعل بهم ما يفعل الغالب فـــي الخداع ، حيث يتركهم في الدنيا معصومي الدماء والأموال ، وأعد لهم فـــي الآخـــرة الدرك الأسفل من النار)[٤] - والعياذ بالله - فكان خداعه لهم عـــلى جهـــة الـــدوام والثبوت ، ولهذا كان التعبير في جانبه سبحانه بالاسم (خادعهم) .

---

١ ـــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٧٥ .

٢ ـــ الآية (١٢٨) .

٣ ـــ الآية (١٤٢) .

٤ ـــ انظر تفسير أبو السعود ، ج١ ، ص ٥٩٨ .

و ــ ويذكر المسند استئناساً للقول وتبركاً به. في مثل قوله تعالى :

{ ومـــالَكُمْ لا تقاتــلونَ فـــي ســبيلِ اللهِ والمُستضعَفِينَ منَ الرجالِ والنســاءِ والولدانِ الذينَ يقولونَ ربَّنا أخرجْنا منْ هذهِ القريةِ الظالمِ أهلُها واجعلْ لنا منْ لدُنْكَ ولياً واجعلْ لنا منْ لَدُنْكَ نصيراً }[١] .

موضع الشاهد قوله تعالى : { واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً } ، في إعادة الفعل (اجعل) مع النصير بعد ذكره مع الولي ، وقد جُمِعا في غير هذا الموقف كثيراً مثل قوله تعالى :

{ ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً }[٢] ،

وقوله تعالى :

{ مَــنْ يعمــلْ ســوءً يُجْــزَ بِــهِ ولا يَجِدْ لَهُ مِنْ دونِ اللهِ ولياً ولا نصيراً }[٣] .

وعــلة تكــرار المسند في شاهدنا تكمن في الموقف الشعوري الذي يغمر المتضرع إلى الله بطلب النجدة يريد أن يُفصّل ويطيل و يعيد ويكرر ليفرغ ما بداخله من طاقة شعورية تدعوه إلى بسط الكلام و إطالته[٤] . كما أن فيه إشارة خفية إلى استحباب ذلك لأن الله يحب عبده المُلِح .

ومنه قوله تعالى :

{ فضّلَ اللهُ المجاهدينَ بأموالِهِمْ وأنفسِهِمْ على القاعِدينَ درجةً وكلاً وعَدَ اللهُ الحُسنى وفضّلَ اللهُ المجاهدينَ على القاعدينَ أجراً عظيماً }[٥] .

في إعادة المسند (فضّل) مسند إلى أعظم اسم تبركاً واستئناساً لهذا العمل العظيم وتأكيداً على بعد منزلته عند الله سبحانه وتعالى .

---

١ ــ الآية (٧٥) .

٢ ــ جزء من الآية (٨٩) .

٣ ــ جزء من الآية (١٢٣) .

٤ ــ انظر (البلاغة فنونها وأفنانها) للدكتور فضل حسن عباس ، ج١ ، ص٢٥٦ .

٥ ــ الآية (٩٥) .

وقريب منه قوله تعالى :

{ ومَــنْ يهاجرْ في سبيلِ اللهِ يجدْ في الأرضِ مراغماً كثيراً وسَعَةً ومــنْ يخرجْ منْ بيتِهِ مهاجراً إلى اللهِ ورسولِهِ ثمَّ يدركْهُ الموتُ فقدْ وقعَ أجرُهُ على اللهِ وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً }[١] .

والجــزء المذكــور استئناســاً في قوله تعالى { ومن يخرج من بيته مهاجــراً } ذكر للاستئناس بحالة شعورية عظيمة حيث يضحي فيها المؤمن بأعــز مــا لديــه (البيت) وكل ما يعبر عنه من الراحة والدعة والمودة والــرحمة والأنــس بالأهل والولد ، كل ذلك يتركه المؤمن في سبيل ربه ؛ لذلك يقع أجره على الله ، فلتصوير هذه الحالة أعيد فيها لفظ (مهاجراً) مع إمكانية الاستغناء عنه لولا هدفه البلاغي حيث يكمُل السياق في التركيب لو قيــل " ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يدركه الموت فقد وقع أجره على الله " لكن شتان بين هذا وذاك .

ومنه قوله تعالى :

{ لكنِ الراسخونَ في العلمِ منهُمْ والمؤمنونَ يؤمنونَ بما أنزلَ إليكَ ومــا أُنــزِلَ من قبلِكَ والمقيمينَ الصلاةَ والمؤتونَ الزكاةَ والمؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ أولئكَ سنؤتيهِمْ أجراً عظيماً }[٢] .

فقــد ذكــر فيها المسند (يؤمنون) استئناساً بهذا اللفظ ودليلاً على الــتجديد والدوام ، أي أن الإيمان يتجدد مع كل دليل يرشد إلى الله سبحانه وتعــالى ، وكــان يمكــن الاســتغناء عنه بمثل " لكن الراسخون في العلم والمؤمــنون بما أنزل إليك " . ولكنها لفظة حبيبة يحبها الرحمن لذا كُررت حتى آخر الآية { والمؤمنون بالله واليوم الآخر } .

---

١ ــ الآية (١٠٠) .

٢ ــ الآية (١٦٢) .

٣ـ الأغراض البلاغية لذكر متعلقات الفعل :

ومن أمثلة ذكر متعلقات الفعل قوله عز وجل :

{ أفلا يتدبرونَ القرآنَ ولو كانَ منْ عندِ غيرِ اللهِ لوجدوا فيهِ اختلافاً كثيراً }[١] .

المتعـــلق الذي أقصده هنا كلمة (عند) ذكر تأكيداً على النفي الذي دلــت عليه (غير) وقد كان يمكن الاستغناء عنه لولا ذلك ، فالآية جعلت تدبر القرآن يفضي إلى اليقين التام بصدق مخبره – صلى الله عليه وسلم –، فإذا كان كله قائماً على (بلاغة معجزة فائقة لقوى البلغاء ، وتناصر صحة معـــان وصدق إخبار ، علم أنه ليس إلا من عند قادرٍ على ما لا يقدر عليه غيره ، عالمٍ بما لا يعلمه أحد سواه)[٢] . وفي هذا تصديق بنبوته – صلى الله عليه وسلم – .

ومنه قوله تعالى :

{ وإذا كنتَ فيهم فأقمتَ لهُمُ الصلاةَ فلتقُم طائفةٌ منهُمْ معكَ وليأخذوا أســلحتَهُمْ فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأتِ طائفةٌ أخرى لم يصلّوا فليصـــلوا معكَ وليأخذوا حذرهم وأسلحتَهم ودَّ الذينَ كفروا لو تغفُلُونَ عن أسلحتِكُمْ وأمتعتِكُمْ فيميلونَ عليكُمْ ميلةً واحدةً ولا جناحَ عليكُمْ إنْ كانَ بكمْ أذىً مـــن مطـــرٍ أو كنتُمْ مرضى أن تضعوا أسلحتَكُمْ وخذوا حذرَكُمْ إنَّ اللهَ أعدَّ للكافرينَ عذاباً مهيناً }[٣] .

---

١ ـ الآية (٨٢) .

٢ ـ انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٨٤ .

وكذا (البحر المحيط) ، وقال أن المضمر في (فيه) عائد على القرآن وهذا في علم البيان الاحتجاج النظري أو المذهب الكلامي ، ج٣ ، ص٣٠٥ .

وكذا (التفسير الكبير) ، ج١٠ ، ص١٩٦ .

وكذا (المحرر الوجيز) ، ج٢ ، ص٨٤ .

وكذا (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص٩٢ .

٣ ـ الآية (١٠٢) .

تردد ذكر عدة كلمات في هذه الآية الكريمة منه كلمة (معك) ذكر مع الطائفتين { فلتقم طائفة منهم معك }وكذا { ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك } ، وذكره مرتين بغرض التنصيص على استمرار صلاة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام مع الطائفين في صلاة واحدة له[١] وذلك إبرازاً لقيمة صلاته صلى الله عليه وسلم ، لأن الصلاة بإمامته لا عوض عنها مع غيره خصوصاً في مثل تلك المواقف العصيبة التي تُصلى فيها صلاة الخوف .

ومنه لفظ (الحذر) في قوله تعالى : { وليأخذوا حذرهم } ، وقوله عز وجل : { وخذوا حذركم } ، وهذا الذكر جاء ليدل على أهمية اليقظة والحيطة وعدم التواكل حتى ولو كان العبد مشغولاً بالعبادات أو في حالة مرض أو أذى .

ومنه قوله تعالى :

{ مذبذبينَ بينَ ذلكَ لا إلى هؤلاءِ ولا إلى هؤلاءِ ومنْ يضللِ اللهُ فلنْ تجدَ له سبيلاً }[٢] .

المتعلق الذي يعنيني هنا هو القول الكريم { لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاءِ } أي لا منسوبين إلى المؤمنين ولا منسوبين إلى الكافرين (أو لا صائرين إلى الأولين ولا إلى الآخرين ، ومحله النصب على الحال من ضمير مذبذبين)[٣] ، وكلمة مذبذبين تعطي نفس المعنى ولكن زيادة في إبراز صورة ضياعهم وحيرتهم وترددهم أتى هذا المقطع ليرسم مشهد الركض بين الفريقين على غير هدى ثابت وهذا أبلغ في التقطيع[٤] .

١ ـ انظر صفة صلاة الخوف في أي تفسير على سبيل المثال (المحرر الوجيز) ، ج٢ ، ص١٠٥. وفي قوله : { خذوا حذركم } استعارة مكنية حيث شبه هذا الشيء المعنوي بشيء حسي يمكن أخذه .

٢ ـ الآية (١٤٣) .

٣ ـ انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج١ ، ص٥٩٨ .

٤ ـ انظر (روح المعاني) ، م١ ، ج٥ ، ص١٧٧ .

المبحث الثاني

الجملة الإنشائية

المطلب الأول : الاستفهام.

المطلب الثاني : الأمر .

المطلب الثالث : النهي .

المطلب الرابع : التمني .

المطلب الخامس : النداء .

المبحث الثاني : الجملة الإنشائية .

مدخل :

الإنشاء لغة : الخلق والابتداء . قال تعالى في كتابه الكريم :

{ هوَ الذي أنشأكُمْ منْ نفسٍ واحدةٍ فمُستقرٌّ ومُستودَعٌ }[١] .

وأنشأ اللهُ الخلقَ أي : ابتدأ خلقَهُم[٢] ، وفي التنزيل العزيز :

{ ولقدْ علمتُمُ النشأةَ الأولى ... }[٣] .

وقال تعالى :

{ وهوَ الذي أنشأكُمْ وجعلَ لكُمُ السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ ... }[٤] .

ومن معاني الكلمة : الوضع والبناء والإتيان بجديد[٥] .

أمّا اصطلاحاً فهو : الكلام الذي ليس له وجود خارجي قبل النطق به ليقاس عليه صدقه أو كذبه ، فيكون بهذا نقيض الخبر .

وصُنّفَ حسب مفاده إلى نوعين : طلبي وغير طلبي . وما يهمنا في الدرس البلاغي هو النوع الأول ، فالإنشاء الطلبي هو : ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب ، ويضم عند البلاغيين الأنواع الآتية : الاستفهام ، والأمر ، والنهي ، والتمني ، والنداء[٦] .

---

١ ـ جزء من الآية (٩٨) ، سورة الأنعام .

٢ ـ قال الراغب الأصفهاني : النشءُ والنشأةُ إحداث الشيء وتربيته . مادة (نشأ) .

٣ ـ جزء من الآية (٦٢) ، سورة الواقعة .

٤ ـ جزء من الآية (٢٣) ، سورة الملك .

٥ ـ انظر (لسان العرب) ، مادة (نشأ) .

٦ ـ قلنا أهمها لأن العرض والتحضيض من أنواع الإنشاء الطلبي لكن الأنواع الخمسة المذكورة أكثر استعمالاً وحملاً لشتى الدلالات واللطائف البلاغية ولذلك قصر البلاغيون الحديث عليها .

انظر (شروح التلخيص) ، ج٢ ، ص٢٣٤ وما بعدها .

المطلب الأول : الاستفهام .

الاســتفهام لغة : طلب الفهم[١] . واصطلاحاً : طلب معرفة شيء لم يكن معروفاً من قبل بواسطة إحدى أدواته الإحدى عشرة ، فيكون الاستفهام هــو : الســؤال عــن حقيقة أمر أو عمل في معناه الحقيقي أو لغرض آخر يترجمه السياق في معناه البلاغي . وستقف الدراسة على ما هو موجود من أدواته في سورة النساء .

أولاً : الهمزة .

وهــي رأس الأدوات وصــدر الصيغ الاستفهامية ، ومن أجل ذلك اختصت بالدلالة على معنى الاستفهام[٢] : التصور والتصديق .

والتصــور هو إدراك المفرد ، أي الاستفهام عن المسند إليه أو عن المســند أو أي معمــول من معمولات الجملة يستفهم عنه وحده ، وهذا هو التصــور المفرد . ومثال تصور المسند إليه : " أمحمد حضر أو أحمد ؟ " والإجابــة بــتعيين أحدهمــا . ومــثال تصور المسند : " أطبيب محمد أم ممرض ؟ " فيجاب بتعيين مسند واحد .

أما التصديق فهو طلب إدراك نسبة حكم المسند إلى المسند إليه ، أي ســؤال عن علاقة الإسناد في الجملة أثابتة أم منفية ، ولذا يجاب عليها بــ (نعــم) فــي حالة الإثبات ، و بــ (لا) في حالة النفي ، ولا تحتاج إلى معــادل ، وإن جــاءت (أم) بعدهــا فهي منقطعة بمعنى (بل) . ومثال

---

١ ــ فــي اللســان : استفهمه : سأله أن يُفهمه . وقد استفهمني الشيء فأفهمتُهُ وفهّمتُهُ تفهيماً . مادة (فهم) .

٢ ــ أدوات الاستفهام على ثلاثة أقسام :

أ ــ ما يطلب له التصور تارة والتصديق أخرى . وهو : الهمزة .

ب ــ ما يطلب به التصديق فقط . وهو : هل .

ج ــ ما يطلب به التصور فقط . وهي بقية أدوات الاستفهام .

انظر (مفتاح العلوم) ، ص١٤٨ وما بعدها .

التصديق بالهمزة : " أحضر المدير ؟ " للاستفهام عن ثبوت نسبة الحضور للمدير أو نفيها عنه ، وكذا إن قلنا : " هل حضر المدير ؟ " . والإجابة عن كلا السؤالين بنعم أو لا[١] .

والمسؤول عنه بالهمزة هو الذي يليها مباشرة . قال الإمام عبد القاهر - رحمه الله - : (فإن موضع الكلام على أنك إذا قلت : " أفعلت ؟ " فبدأت بالفعل ، كان الشك في الفعل نفسه وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده . وإذا قلت " أ أنت فعلت ؟ " فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو وكان التردد فيه)[٢] . وبالمثل عند سؤالك عن المفعول تقدمه أو أي معمول من المعمولات تجعله يلي الهمزة مباشرة .

ولا بد لهذه الهمزة من معادل في المعنى ، إن كان مذكوراً فنعمت وإلاّ فلابد من تقديره .

وقد وردت همزة الاستفهام في سورة النساء بمعنى واحد وهو التصديق ، وخرجت من معناها الحقيقي إلى معان بلاغية رائعة تحاول الدراسة الوقوف عليها واستجلاءها بعون الله وتوفيقه . من ذلك قوله تعالى :

{ وإنْ أردْتُمُ استبدالَ زوجٍ مكانَ زوجٍ وآتيتُمْ إحداهُنَّ قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونَهُ بهتاناً وإثماً مبيناً }[٣] .

الآية تتحدث عن موقف من أصعب المواقف المؤلمة في حياة المرأة ولذا أتى الاستفهام في قوله تعالى (أتأخذونه) استنكاراً وتشنيعاً[٤] لهذا السلوك المستبعد حصوله من المؤمنين .

---

١ ـ انظر (مفتاح العلوم) ، ص١٤٨ وما بعدها .

٢ ـ انظر (دلائل الإعجاز) ، ص١١١ .

٣ ـ الآية (٢٠) .

٤ ـ انظر (من هدي سورة النساء) لحنان لحام ، ص٨٧ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٠٠ .

وقد آزر هذا الاستفهام الإنكاري استفهام آخر لنفس الغرض في الآية التي تليها في قوله تعالى :

{ وكيـــفَ تأخذونَهُ وقدْ أفضى بعضُكُمْ إلى بعضٍ وأخذنَ منكُمْ ميثاقاً غليظاً }[١] .

قال الرازي فيه : (استفهام على معنى الإنكار والإعظام ، والمعنى أن الظاهــر أنكــم لا تفعــلون مــثل هذا الفعل مع ظهور قبحه في الشرع والعقــل)[٢] . لأنه أبشع ما تكون عليه الخسة واللؤم الذي يجب أن يترفع عنه المسلمون .

ومما أتت فيه الهمزة للإنكار قوله تعالى :

{ أفــلا يــتدبّرونَ القــرآنَ ولوْ كانَ من عندِ غيرِ اللهِ لوجدوا فيهِ اختلافاً كثيراً }[٣] .

يــنكر المــولى عز وجل على عباده غفلتهم عن القرآن وهو صلاح دنيــاهم وآخــرتهم . قال أبو حيان : (وهذا استفهام معناه الإنكار أي فلا يتأملون ما نزل عليك من الوحي ولا يعرضون عنه ، فإنه في تدبره يظهر برهانه ، ويسطع نوره ، ولا يظهر ذلك لمن أعرض عنه ولم يتأمله)[٤] ، بــل يحمــل مــع الإنكار معنى أشد لذعاً وهو (التوبيخ والتعجب منهم في اســتمرار جهلهم مع توفر أسباب التدبر لديهم)[٥] ، كما يحمل لعامة الأمة الحض على هذا الفعل الذي به صلاح الدنيا والآخرة .

ومن هذا القبيل قوله تعالى :

---

١ ـــ الآية (٢١) .

٢ ـــ انظر (التفسير الكبير) ، ج١٠ ، ص١٥ .

٣ ـــ الآية (٨٢) .

٤ ـــ انظر (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٣٠٥ .

٥ ـــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٥ ، ص١٣٧ .

{ الذينَ يتخذونَ الكافرينَ أولياءَ من دونِ المؤمنينَ أيبتغونَ عندهُمُ العزَّةَ فإنَّ العزَّةَ للهِ جميعاً }[١] .

الاستفهام في (أيبتغون) يطلب صدق نسبة هذا الحكم لهذه الفئة التي تطلب العزة عند غير الله واتجه المعنى فيه إلى إنكار عملهم هذا وإبطال ما فيه ، وبيان خيبة رجائهم وقطع أطماعهم الفارغة[٢] .

ومثله تماماً قوله تعالى :

{ يا أيها الذينَ آمنوا لا تتخذوا الكافرينَ أولياءَ من دونَ المؤمنينَ أتريدونَ أنْ تجعلوا للهِ عليكُمْ سلطاناً مبيناً }[٣] .

قال فيها أبو السعود : (أي أتريدون بذلك أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة على أنكم منافقون ؟ فإن موالاتهم أوضح أدلة النفاق)[٤] .

ثم جعل الاستفهام مسلطاً على استنكار إرادة الجعل مبالغة في تهويل[٥] هذا الأمر للتنفير منه ؛ لما فيه من الضرر الشنيع على الإسلام ومسخ هوية المسلم .

وقد يأتي معنى الإنكار مع حذف همزة الاستفهام مثل قوله تعالى :

{ أم لهم نصيبٌ من الملكِ فإذاً لا يؤتونَ الناسَ نقيراً أم يحسُدونَ الناسَ على ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فضلِهِ فقدْ آتينا آلَ إبراهيمَ الكتابَ والحكمةَ وآتيناهُمْ مُلكاً عظيماً }[٦] .

بدأت الآيتين بـ (أم) التي هي منقطعة للإضراب بمعنى (بل) ولكن أخفت معها معنى الاستفهام محذوفة أي : ألهم نصيب من الملك فلا

---

١ ــ الآية (١٣٩) .

٢ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٩٦ .

وكذا (روح المعاني) م٢ ، ج٥ ، ص١٧٢ .

٣ ــ الآية (١٤٤) .

٤ ــ انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج١ ، ص٥٩٩ .

٥ ــ انظر المرجع السابق .

٦ ــ الآيتين (٥٣) ، (٥٤) .

يؤتون الناس نقيراً ، فهو إنكاري حكمه حكم النفي أي : ليس لهم شيء من الملك البتة[١] . والعطف بـ (الفاء) على جملة (لهم نصيب) وكذلك (إذاً) جعل الاستفهام داخلاً على مجموع الجملة وجزائها معاً ، لأنهم ينتفي إعطاؤهم الناس نقيراً على تقدير ثبوت الملك لهم لا على انتفائه وهذا الكلام تهكم على اليهود في انتظارهم أن يرجع إليهم ملك بني إسرائيل . وتسجيل للبخل عليهم[٢] .

وكما أنكر عليهم الله سبحانه البخل كذلك أنكر عليهم الحسد بنفي الأسلوب في قوله تعالى : { أم يحسدون الناس } والتقدير : بل يحسدون الناس[٣] ، ودلت الهمزة المحذوفة هنا أيضاً على (الاستفهام الذي يصحبه الإنكار)[٤] .

وقد أنكر المولى عز وجل بهاتين الآيتين خصلتين ذميمتين لو ابتلى بهما أحد لباء بغضب الله أعاذنا الله من هذا المصير .

ومن معاني الهمزة البلاغية : التقرير الموصل إلى التعجب وقد تكرر في سورة النساء ومنه قوله تعالى :

{ ألَمْ تَرَ إلى الذينَ أُوتوا نصيباً منَ الكتابِ يشترونَ الضلالةَ ويريدونَ أنْ تضلّوا السبيلَ }[٥] .

دخل حرف الاستفهام على النفي (لم) وبهذا تكون الإجابة بالإثبات في هذا المقام أي : بلى رأيت . والخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية من المؤمنين[٦] .

---

١ ــ انظر (التفسير الكبير) للرازي ، ج١٠ ، ص١٣٠ .

٢ ــ انظر (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٥ ، ص٨٨ .

٣ ــ انظر (التفسير الكبير) ، ج١٠ ، ص١٣٢ .

٤ ــ انظر (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج٣ ، ص٢٧٣ .

٥ ــ الآية (٤٤) .

٦ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٢٦ .

وكذا (روح المعاني) للألوسي ، م٢ ــ ، ج٥ ، ص١١٠ .

والغرض من هذا الاستفهام مع التقرير التعجب من حالهم التي بلغت درجة كبيرة من الشناعة[١] . ومنه قوله تعالى :

{ ألــمْ تــرَ إلى الذيــنَ يزكونَ أنفسَهم بلِ اللهُ يزكِّي مَنْ يشاءُ ولا يظلمونَ فتيلاً }[٢] .

دخــل فــي زمرة من يزكون أنفسهم أهل الكتاب دخولاً منطقياً لما عرف عنهم من تأصل هذه الخصلة الذميمة فيهم ثم ينسحب الحكم على كل مــن حــذا حذوهم وقد امتزجت فيه معاني بلاغية كثيرة من أهمها التقرير للرؤية والتعجب والتنفير من هذا الخلق وغير هذا .

ومثله قوله تعالى :

{ ألــمْ تــرَ إلى الذيــنَ أوتــوا نصيباً منَ الكتابِ يُؤمنونَ بالجبتِ والطاغوتِ ويقولونَ للذينَ كفروا هؤلاءِ أهدى منَ الذينَ آمنوا سبيلاً }[٣].

وكذا قوله :

{ ألمْ ترَ إلى الذينَ يزعمونَ أنَّهم آمنوا بما أُنزلَ إليكَ وما أُنزلَ من قبــلِكَ يريدونَ أنْ يتحاكموا إلى الطاغوتِ وقد أُمِروا أنْ يكفروا بِهِ ويريدُ الشيطانُ أنْ يُضلَّهُم ضلالاً بعيداً }[٤] .

وما ظني في هذا التكرار إلاّ لأن أهل الكتاب اُشتهِروا بهذه المخازي فصارت حكايات تروى عنهم وهم أحقّاء بأن يكونوا عبرة لمن يعتبر .

وكذا (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور ، ج٥ ، ص٧٩ .

١ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٢٦ .

٢ ــ الآية (٤٩) .

٣ ــ الآية (٥١) .

٤ ــ الآية (٦٠) .

ومما جاء للتقرير فقط قول الله تعالى على لسان المنافقين :

{ قالوا ألمْ نستحوذْ عليكمْ ونمنعْكمْ من المؤمنينَ ... } ، جزء من الآية (١٤١) .

قال ابن عاشور : الاستفهام تقريري .

انظر (التحرير والتنوير) ، ج٥ ، ص٢٣٧ .

ثانياً : كيف .

ويطـــلب بهـــا تعيين الحال وهو نوع من طلب تصور المفرد . وقد وردت في سورة النساء المباركة في ثلاثة مواضع أولها قوله تعالى :

{ وكيــف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً }[١] .

وقـــد خرج معنى الاستفهام عن الحال إلى معنى بلاغي قرره السياق وهـــو التعجب من استرداد مهر المطلقة بعد معاشرتها ، (أي : لأي وجه ولأي معـــنى تفعـــلون هـــذا ؟ فإنها بذلت نفسها لك ، وجعلت ذاتها لذاتك وتمتعك ، وحصلتْ الألفة التامة والمودة الكاملة بينكما ، فكيف يليق بالعاقل أن يسترد منها شيئاً بذله لها بطيبة نفسه؟! إن هذا لا يليق البتة بمن له طبع سـليم وذوق مســتقيم)[٢] . ولا شك أن التعجب بهذه اللهجة الشديدة يحمل مغزى تربوياً عظيماً .

ثاني مواضع كيف في سورتنا المباركة قوله تعالى :

{ فكيــفَ إذا جئـــنا مِـــنْ كُـلٍّ أمَّــةٍ بشهيدٍ وجئنا بِكَ على هؤلاءِ شهيداً }[٣] .

السؤال بكيف هنا عن الحال المتوقعة في ذلك الموقف العظيم ، والله سـبحانه وتعـــالى أعـــلم به ، ولكن القرآن يخاطب العرب بما اعتادته في لغـــتها ، فقد كان (من عادة العرب أنهم يقولون في الشيء الذي يتوقعونه: كيف بك إذا كان كذا وكذا ، وإذا فعل فلان كذا ، وإذا جاء وقت كذا ؟ ليثير هذا السؤال صوراً كثيرة واحتمالات شتى ، فمعنى الكلام : كيف ترون يوم

---

١ ـــ الآية (٢١) .

٢ ـــ انظر (التفسير الكبير) للرازي ، ج١٠ ، ص١٧ .

٣ ـــ الآية (٤١) .

القيامة إذا استشهد الله على كل أمة برسولها ، واستشهدك على هؤلاء . يعني بني قومه المخاطبين بالقرآن)[١] .

والسؤال في معناه الحقيقي (أي : كيف حال كل أولئك إذا جاء الشهداء وظهر موجب الشهادة على العمل الصالح وعلى العمل السيئ)[٢] ، ولكن هذه الحال في علم الغيب ، ومهما اتسع الخيال لا يمكن تصورها بما هي عليه ؛ لذا فهي تحمل معنى الدهشة والتعجب والتهويل المصاحب لهذا الموقف العظيم الذي (يؤذن بحالة مهولة للمشركين وتنادي على حيرتهم ومحاولتهم التملص من العقاب بسلوك طريق الإنكار أن يكونوا أنذروا مما دل على مجيء شهيد عليهم)[٣] .

ثالث المواضع قوله تعالى :

{ فكيفَ إذا أصابَتْهُمْ مصيبةٌ بما قدّمَتْ أيديهِمْ ثمَّ جاءوكَ يحلفونَ باللهِ إنْ أردْنا إلاّ إحساناً وتوفيقاً }[٤] .

صورت (كيف) حالة عجزهم التام عند مفاجأتهم بالمصيبة ، أي (كيف يكون حالهم وكيف يصنعون)[٥] . كما جعلها أبو حيان (وعيداً لهم على فعلهم وأنهم سيندمون عليه عند حلول بأس الله حين لا ينفعهم الندم ولا يغني عنهم الاعتذار)[٦] . ولكن (كيف) أخرجت هذا الوعيد إلى التهويل[٧] كما تقدم في :

---

١ ـ انظر (التفسير الكبير) ، ج١٠ ، ص١٠٦ .
٢ ـ انظر (التحرير والتنوير) ، ج٥ ، ص٥٦ .
٣ ـ المرجع السابق ، ج٥ ، ص٧٦ .
٤ ـ الآية (٦٢) .
٥ ـ انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٧٦ .
٦ ـ انظر (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٢٨١ .
٧ ـ انظر (التحرير والتنوير) ، ج٥ ، ص١٠٧ .

{ فكيـف إذا جئـنا مـن كـلِّ أمّـة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً }[١] .

ثالثاً : ما .

يسـتفهم بهـا عن الجنس . تقول : ما عندك ؟ بمعنى : أي أجناس الأشـياء عندك ؟ وجوابه بتعيين جنس ذلك ، فتقول مثلاً : كتابٌ ، أو طعامٌ ونحـو ذلـك . كمـا يستفهم بها عن الوصف . تقول : ما زيدٌ وما عمرٌ ؟ وجوابه : الكريم أو الفاضل وما شاكل ذلك[٢] . وفي كلا الحالين هو سؤال عن تصور المفرد . وقد ورد الاستفهام بـ (ما) في هذه السورة في عدة مواضع منها قوله تعالى :

{ ومـاذا عليهُمْ لوْ آمنوا باللهِ واليومِ الآخرِ وأنفقوا ممّا رزقَهُمُ اللهُ وكانَ اللهُ بهمْ عليماً }[٣] .

الاسـتفهام الوارد في الآية في (ماذا)[٤] يحتمل أن تكون كلها اسم اسـتفهام والخبر شبه جملة (عليهم) ، ويحتمل أن تكون (ما) استفهاماً و (ذا) بمعـنى الذي وهو الخبر ، و (عليهم) صلة . قال هذا أبو حيان ، وفـي كلا التقديرين فإن (ما) اسم استفهام يطلب تصور المفرد ، وخرج إلى معـنى الاسـتنكار والـتوبيخ والتعجب[٥] من أناس كان بمقدورهم أن يكسـبوا رضـا الله وعفوه بإنفاق أموالهم في سبيله بعد إيمانهم بالله واليوم الآخر[٦] ، ولكنهم استحبوا العمى على الهدى .

ومن مواضعه أيضاً قوله تعالى :

---

١ ــ الآية (٤١) .

٢ ــ انظر (مفتاح العلوم) ، ص١٤٩ .

٣ ــ الآية (٣٩) .

٤ ــ راجع (مغني اللبيب) فقد فصّل في (ماذا) تفصيلاً دقيقاً ، ج١ ، ص٣٠٠ وما بعدها .

٥ ــ انظر (التحرير والتنوير) ، ج٥ ، ص٥٤ .

٦ ــ بدليل الآية السابقة عليها (٣٨) .

{وما لكُمْ لا تقاتلونَ في سبيلِ اللهِ والمستضعفينَ منَ الرجالِ والنساءِ والولدانِ الذينَ يقولونَ ربّنا أخرجْنا من هذهِ القريةِ الظالمِ أهلُها واجعلْ لنا منْ لدنْكَ ولياً واجعلْ لنا منْ لدنْكَ نصيراً }[١] .

الاستفهام بـ (ما) فيه إنكار شديد منه سبحانه وتعالى لتركهم القتال ، وكأنه تأكيد على ما تقدم من الأمر بالجهاد في قوله تعالى :

{ فليقاتلْ في سبيلِ اللهِ الذين يشرونَ الحياةَ الدنيا بالآخرة ... }[٢] .

أي (لا شيء لكم في حال لا تقاتلون ، والمراد أن الذي هو لكم هو أن تقاتلوا . فهو بمنزلة أمر ، أي : قاتلوا في سبيل الله لا يصدكم شيء عن القتال)[٣] ، فحمل هذا اللفظ الكنائي الاستفهام والإنكار والتعجب والأمر، وهو من الأساليب العجيبة في القرآن الكريم .

ومما جاء على شاكلته قوله تعالى :

{ أينما تكونوا يدرككُمُ الموتُ ولو كنْتم في بروجٍ مشيدةٍ وإنْ تصبْهمْ حسنةٌ يقولوا هذهِ منْ عنْدِ اللهِ وإنْ تصبْهمْ سيئةٌ يقولوا هذهِ منْ عنْدكَ قلْ كلٌ منْ عندِ اللهِ فمالِ هؤلاءِ القومِ لا يكادونَ يفقهونَ حديثاً }[٤].

الاستفهام في قوله تعالى : (فمال) استفهام يحمل التعجب والإنكار لعمل هذه الفئة ، حيث نسبوا السيئة لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – . هذا النوع من الاستفهام يتضمن إنكار ما استفهم عن علته وأنه ينبغي أن يوجد مقابله[٥] ، أي الواجب عليه أن يدربوا عقولهم على تفهم علل الأشياء حتى تكون تصرفاتهم أقرب إلى الصواب .

---

١ ــ الآية (٧٥) .

٢ ــ جزء من الآية (٧٤) .

٣ ــ انظر (التحرير والتنوير) ، ج٥ ، ص١٢٢ .

٤ ــ الآية (٧٨) .

٥ ــ انظر (الدر اللقيط) على هامش (البحر المحيط) لأبي حيان ، ج٣ ، ص٣٠٠ .

وقـــد يجمـــع الاستفهام بين الإنكار والتوبيخ والنفي ، وخير ما يمثله قوله تعالى :

{ فما لكُمْ في المنافقينَ فئتينِ واللهُ أركسَهُمْ بما كسبوا أتريدونَ أن تهدوا من أضلَّ اللهُ ومَنْ يُضلِلِ اللهُ فلنْ تجدَ له سبيلاً }[١] .

قـــال أبـــو السعود فيه : (فما لكم مبتدأ وخبر ، والاستفهام للإنكار والـــنفي ، والخطاب لجميع المؤمنين ؛ لكن ما فيه من معنى التوبيخ متوجه إلى بعضهم والمراد إنكار أن يكون للمخاطبين شيء مصحح لاختلافهم في أمر المنافقين)[٢] ، فهم كفار لا ريب ، بل أشد الناس عذاباً بدليل الاستفهام الثاني في الآية : { أتريدون أن تهدوا من أضل الله } ، وفي هذا تأكيد شديد عـــلى الـــتوبيخ لتنـــبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعي الجواب[٣] .

ومما جاء للنفي خاصة قوله تعالى :

{ ما يفعلُ اللهُ بعذابِكُمْ إنْ شكرتُمْ وآمنْتُمْ وكانَ اللهُ شاكراً عليماً }[٤]

حمـــل هـــذا الاستفهام معنى نفي الحكم (أي : ما يعذبكم إن شكرتم وآمنتم ، والمعنى أنه لا منفعة له في ذلك ولا حاجة)[٥] .

وقد تأتي (ما) الاستفهامية مجرورة بحرف وهنا يجب حذف ألفها ، وعـــلة الحـــذف التفريق بين الاستفهام والخبر ، وتحرك بالفتح للدلالة على الألف المحذوفة[٦] . ومنه قوله تعالى :

---

١ ــ الآية (٨٨) .

٢ ــ انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج١ ، ص٥٦١ .

٣ ــ انظر (دلائل الإعجاز) ، ص١١٩ .

٤ ــ الآية (١٤٧) .

٥ ــ انظر (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٣٨١ .

٦ ــ انظر (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) ، ج١ ، ص٢٩٨ ، ٢٩٩ .

{ إنَّ الذيــنَ توفّاهُمُ الملائكةُ ظالمي أنفسِهِمْ قالوا فيمَ كنتُمْ قالوا كنّا مستضعفينَ في الأرض ... }[١] .

الاســتفهام في (فيم) أي (في أي شيء كنتم من أمور دينكم)[٢] ، وهو تقرير وتوبيخ ، فالتقرير ليصور حالهم عند الوفاة بأنهم ظالمي أنفسهم لعدم هجرتهم فارين بدينهم ، والتوبيخ على تفريطهم في هذا الأمر الذي كان بمقدورهــم وهــو تخليص أنفسهم به من غضب الجبار ، ولكنهم لم يفعلوا فاستحقوا سوء المصير ، واعتذارهم الذي ذكروه غير مقبول[٣] .

وقــد علق الزمخشري على هذا الاستفهام بقوله : (فإن قلت كيف صــحّ وقوع قولهم { كنا مستضعفين في الأرض } جواباً عن قولهم { فيم كنــتم } ؟ وكــان حــق الجواب أن يقولوا كنا في كذا أو لم نكن في شيء (قــلت) معنى فيم كنتم ؟ التوبيخ بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين حيث قدروا على المهاجرة ولم يهاجروا)[٤] .

رابعاً : مَنْ .

ويطلب بها أحد العقلاء[٥] ، وتعيين العاقل يحصل بالعَلَم ، أي بذكر اسم المسؤول عنه ، كقولنا في جواب : مَنْ هذا ؟ هذا محمد أو علي مثلاً ، كما يحصل بالصفة ، أي بذكر صفة من صفات المسؤول عنه ، كقولنا في جــواب الســؤال السابق : مَنْ هذا ؟ هذا معلم أو طبيب أو صديق . ولذلك فهي لتصور المفرد باسمه أو صفته . ومثاله من سورة النساء قوله تعالى :

---

١ ــ الآية (٩٧) .

٢ ــ انظر (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص١٢٥ .

وكذا أبو السعود ، ج١ ، ص٥٧٣ .

٣ ــ انظر (المحرر والوجيز) ، ج٢ ، ص١٠٠ .

٤ ــ انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٩٢ .

٥ ــ انظر (مفتاح العلوم) ، ص١٤٩ وما بعدها .

{ اللهُ لا إلــهَ إلاّ هــوَ ليَجْمَعَــنَّكُمْ إلى يومِ القيامةِ لا ريبَ فيهِ ومَن أصدقُ مِن اللهِ حديثاً }[١] .

قال فيه بعض المفسرين : (الاستفهام إنكاري ، والمعنى لا أحد أكثر صــدقاً مــنه تعالى في وعده وسائر أخباره ، ويفيد أيضاً نفي المساواة)[٢] مطلقاً .

ومــا جــاء فيه الاستفهام لغرض مشترك بين الإنكار والتوبيخ قوله تعالى :

{ ها أنتُمْ هؤلاءِ جادلتُمْ عنهُمْ في الحياةِ الدنيا فمَن يُجادِلُ اللهَ عنهُمْ يومَ القيامةِ أمْ مَنْ يكونُ عليهِمْ وكيلاً }[٣] .

فقد اشتمل على الإنكار والتوبيخ معاً (أي : فمن يخاصم ويجادل الله عــنهم يوم القيامة عند تعذيبهم بذنوبهم)[٤] ، وهو درس عظيم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم لأخذ الحيطة والحذر من موالاة الكفار . وقد تكرر في الآية لزيادة التأكيد على هذا الهدف .

ومنه قوله تعالى :

{ والذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ سندخلُهُمْ جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها أبداً وعدَ اللهِ حقاً ومَنْ أصدقُ مِن اللهِ قيلاً }[٥] .

استفهام تقريري[٦] لما وعد الله به عباده المؤمنين . وقريب منه قوله تعالى :

---

١ ــ الآية (٨٧) .

٢ ــ انظر تفسير (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص١٠٥ .

وكذا (التحرير والتنوير) ، ج٥ ، ص١٤٨ .

٣ ــ الآية (١٠٩) .

٤ ــ انظر (فتح القدير) للشوكاني ، ج١ ، ص٥١ .

٥ ــ الآية (١٢٢) .

٦ ــ انظر (المحرر الوجيز) ، ج٢ ، ص١١٥ .

{ ومَـنْ أحسـنُ ديناً ممّنْ أسلمَ وجهَهُ للهِ وهوَ مُحسِنٌ واتّبعَ ملَّةَ إبراهيمَ حنيفاً واتخذَ اللهُ إبراهيمَ خليلاً }[١] .

فيـه إنكـار واسـتبعاد لأن يكون أحد أحسن ديناً ممّن فعل ذلك أو مساوياً له[٢] ، وحتماً لا أحد أحسن ديناً ممّن أخلص قلبه لله ، وفوّض أمره إليه سبحانه وتعالى .

---

١ ــ الآية (١٢٥) .

٢ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٨٨ .

المطلب الثاني : الأمر .

الأمــر نقيــض الــنهي[١] . وفي البلاغة طلب الفعل من المخاطب استعلاءً وإلزاماً[٢] كقوله تعالى :

{ يا أيها الناس اتّقوا ربّكم ... }[٣] .

وله صيغ أربع هي : فعل الأمر ، والمضارع المقترن بلام الأمر ، واسم فعل الأمر ، والمصدر النائب عن فعل الأمر . وليس المهم في بحث الأمر معرفة صيغه التي يجري بها ، وإنما المهم معرفة المعاني التي يخرج إليها عن معناه الأصلي .

قال الخطيب القزويني[*] : (صيغة الأمر قد تستعمل في غير طلب الفعــل بحسب مناسبة المقام)[٤] . وفي ظني أن كل أمر ورد في كتاب الله العزيــز لا يخــلو مــن غــرض بلاغي حتى في حالة صدوره على جهة الاســتعلاء والإلزام ، وهذه آيات سورة النساء دليل على ذلك . قال المولى عز من قائل :

{ يا أيها الناسُ اتّقوا ربَّكُمْ الذي خلقَكُمْ مِنْ نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجَهــا وبــثَّ مــنهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا اللهَ الذي تساءلونَ به والأرحام إن اللهَ كانَ عليكُمْ رقيباً }[٥] .

---

١ ــ انظر (اللسان) ، مادة (أمر) .

٢ ــ انظر (مفتاح العلوم) ، ص١٥٢ .

٣ ــ جزء من الآية (١) .

* هــو القاضي جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني المتوفى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة لــلهجرة ، كان خطيباً في المسجد الأموي بدمشق ، وكان عالماً بارعاً ، له مصنفات عدة في البلاغة وأصول الفقه ، أهمها (الإيضاح) .

انظر (تاريخ البلاغة العربية) ، ص٣٠٢ .

٤ ــ انظر (الإيضاح) ، ص٨٤ .

٥ ــ الآية (١) .

وقال سبحانه :

{ وآتوا اليتامى أموالَهُمْ ... }[١] .

وقال :

{ وآتوا النساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحلَةً ... }[٢] .

وأمثاله كثير جداً . ولو تأملنا صيغ الأمر : (اتقوا) و (آتوا) وجدنا أن الأمر فيها حقق شروط الوجوب ، حيث إنه على جهة الاستعلاء والإلزام ، فهو من المولى عز وجل إلى عباده ، إذن قد جاء الأمر هنا على حقيقته ، ولكن هل تخلو هذه الصيغ من أغراض بلاغية ؟

إنّ الأمر في وجوب التقوى صلاح للدين والدنيا ، وعندما يأتي من جهة الله سبحانه وتعالى يتبع هذا التعظيم والتبجيل والامتثال التام بنفس راضية مطمئنة ، خاصة وقد اشتملت الآيات على مبررات الوجوب ؛ صيانة حق الضعيفين : المرأة واليتيم ، وكعادة الأسلوب القرآني خاطب النفوس والعقول ليصل إلى حد الانقياد والطاعة بنفس راضية مطمئنة ، واستسلام تام .

والآيات التي تحمل معنى الوجوب كثيرة ، ولكن نختار بعضها ، من ذلك قوله تعالى :

{ فما استمتعتُمْ بِهِ منهُنَّ فآتوهُنَّ أجورهُنَّ فريضةً ولا جناحَ عليكُمْ فيما تراضَيْتُمْ بهِ من بعدِ الفريضةِ إنَّ اللهَ كانَ عليماً حكيماً }[٣] .

وقريب منه قوله تعالى :

{ فانكِحوهنَّ بإذنِ أهلِهِنَّ وآتوهُنَّ أجورَهُنَّ ... }[٤] .

---

١ ــ جزء من الآية (٢) .

٢ ــ جزء من الآية (٤) .

٣ ــ الآية (٢٤) .

٤ ــ جزء من الآية (٢٥) .

صيغ الأمر في : (فآتوهن) ، (فانكحوهن) ، (وآتوهن) أتت فيما حققه الشرع من مهور النساء وهو واجب في صحة العقد سواء في ذلك موافقة الولي للحرة من النساء وموافقة السيد إذا تعلق الأمر بالإماء . بل أتت صيغة الأمر بملحظ لطيف في قوله تعالى : { فانكحوهن بإذن أهلهن } حيث يجب أن تتوثق العلاقة بين الأمة ومواليها فليست علاقة الفتاة بأهلها إلا علاقة مودة ورعاية ومسؤولية .

والأَولى والآكد في الإلزام والوجوب[١] في قوله تعالى :

{ واعبدوا اللهَ ولا تشركوا بهِ شيئاً وبالوالدينِ إحساناً ... }[٢] .

الصيغة الأولى (واعبدوا) فعل أمر صريح ، وهل ألزمُ في الدينِ من هذا ؟ وقد أكّد هذا الإلزام ووضحه صيغة النهي { ولا تشركوا به شيئاً } .

الصيغة الثاني { وبالوالدين إحساناً } ، (إحساناً) مصدر نائب عن فعل الأمر ، أي : أحسنوا إلى الوالدين إحساناً ، ومن رحمة الرحمن الرحيم أن قرن هذا بعبادته تقديراً لجهودهما وجهادهما في سبيل الولد .

ومثله في الوجوب قوله تعالى :

{ يا أيُّها الذينَ أوتوا الكتابَ آمنوا بما نزّلْنا مُصدِّقاً لما معكُمْ ... }[٣] .

الفعل (آمنوا) يحمل مع الوجوب الكثير من التهديد والوعيد بلهجة المستعلي القادر سبحانه وتعالى ، ومن ذلك قوله تعالى :

---

١ ــ انظر (الصاحبي) لابن فارس ، ص٣٠١ .

والآيات التي مثلت هذا الغرض في السورة هي : (٨٤ ، ٨٩ ، ١٠٣ ، ١٣٥ ، ١٣٦) .

٢ ــ جزء من الآية (٣٦) .

٣ ــ جزء من الآية (٤٧) .

{ يا أيُّها الذينَ آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمرِ منكُمْ فــإنْ تنازعْــتُمْ فــي شيءٍ فردُّوهُ إلى اللهِ والرسولِ إن كنتُمْ تؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ ذلكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلاً }[١] .

كــل صــيغ الأمــر فــي هذا القول الكريم على حقيقتها من الإلزام والوجــوب ، فقوام الدين طاعة الله فيما شرع والرسول فيما شرح[٢] وأولي الأمر فيما ترجموا هذه الشرائع إلى حياة اجتماعية قويمة ، ولا شك أن هذه هــي الركائــز العظــمى لبناء مجتمع مثالي يقوم على ما قامت عليه أسس المجتمع الإسلامي الأول الذي ساد الدنيا ونصر الدين .

هــذا النوع من صيغ الأمر كثير جداً في سورة النساء ؛ لأنها تعنى بالتشــريعات ، والضــابط فيــه ما قاله السكاكي : (لا شبهة في أن طلب المتصور على سبيل الاستعلاء يورث إيجاب الإتيان به على المطلوب منه ، ثم إذا كان الاستعلاء ممن هو أعلى رتبة من المأمور استتبع إيجابه وجوب الفعــل)[٣] . أي إذا صدر الأمر بأسلوب الاستعلاء كان على المطلوب منه التــنفيذ بحكــم مــا تقتضيه الصيغة ، فكيف إذا كان الآمر أعلى رتبة من المأمور علواً حقيقياً ؟ وكيف إذا كان الآمر هو رب العالمين ؟

ولكــن قد يكون الآمر هو الله سبحانه وتعالى ويخرج الأمر من حيز الوجــوب إلى أغــراض بلاغية أخرى مثل الإرشاد والتوجيه . اسمع قوله تعالى :

{ ولا تؤتوا السفهاءِ أموالَكُمُ التي جعلَ اللهُ لكُمْ قياماً وارزقوهُمْ فيها واكسوهُمْ وقولوا لهم قولاً معروفاً }[٤] .

---

١ ــ الآية (٩٩) .

٢ ــ انظر (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٢٧٨ .

٣ ــ انظر (مفتاح العلوم) ، ص١٥٢ .

٤ ــ الآية (٥) .

كل صيغ الأمر في الآية (ارزقوهم) و(اكسوهم) و(قولوا لهم) خـرجت من معناها الحقيقي إلى معنى الإرشاد والتوجيه ، وأكبر دليل عليه أسلوب الآية الهادئ الذي يناسب المواقف التعليمية .

ومنه تلك الصيغ الواردة في قوله تعالى :

{ وابتـلوا اليـتامى حـتّى إذا بلغوا النكاحَ فإنْ آنستُمْ منهُمْ رُشداً فادفعوا إليهِمْ أموالَهُمْ ولا تأكلوها إسرافاً وبِداراً أنْ يكبَروا ومَنْ كانَ غنيّاً فلْيَسْـتَعْفِفْ ومَـنْ كـانَ فقيراً فلْيأكُلْ بالمعروفِ فإذا دفعتُمْ إليهِمْ أموالَهُمْ فأشهدوا عليهِمْ وكفى باللهِ حسيباً }[١] .

فالصيغ الواردة في الآية : (وابتلوا ، فادفعوا ، فليستعفف ، فليأكل ، فأشـهدوا) كلها لم تخرج عن معنى الإرشاد والتوجيه لسلوك النهج الأقوم في هذه المواقف . وأمثالها كثير جداً[٢] .

وربما حملت الآية الواحدة عدة صيغ تدل على عدة معان ، من ذلك قوله تعالى :

{ الرجالُ قوّامونَ على النساءِ بما فضّلَ اللهُ بعضَهُمْ على بعضٍ وبما أنفقوا من أموالِهِمْ فالصالحاتُ قانتاتٌ حافظاتٌ للغيبِ بما حَفِظَ اللهُ واللاّتي تخـافونَ نشـوزَهُنَّ فعظوهُـنَّ واهجروهُنَّ في المضاجعِ واضربوهُنَّ فإنْ أطعْنَكُمْ فلا تبغوا عليهِنَّ سبيلاً إنَّ اللهَ كانَ عليّاً كبيراً }[٣] .

الإرشاد بيّنٌ في قوله تعالى (فعظوهن) ، أما قوله (واهجروهن)، (واضـربوهن) فهـو يحمل غرضاً آخر وهو الإباحة ، ومع الإباحة ورد النهي عن الإسراف في قوله تعالى { فلا تبغوا عليهن سبيلاً } .

ومما جاء في الإباحة قوله تعالى :

١ـ الآية (٦) .

٢ ـ انظـر الآيـات : (٨ ، ١٦ ، ١٩ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٦٣ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٦ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٢٧) .

٣ ـ الآية (٣٤) .

{ وآتــوا النساءَ صدُقاتِهِنَّ نِحلةً فإنْ طِبْنَ لكُمْ عن شيءٍ منهُ نَفْساً فكلوهُ هنيئاً مريئاً }[١] .

الأمــر الــذي خرج للإباحة هو : { فكلوه هنيئاً مريئاً } ، قال فيها الزمخشــري : (هــذه عــبارة عــن التحليل والمبالغة في الإباحة وإزالة التبعة)[٢] . ومما يدل على الإباحة أيضاً قوله تعالى :

{ وإنْ كنــتُمْ مرضــى أو على سفرٍ أو جاءَ أحدٌ منكُمْ منَ الغائِطِ أو لامســتُمُ النســاءَ فلَمْ تجدوا ماءً فتيمّموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهِكُمْ وأيديكُمْ إنَّ اللهَ كانَ عفواً غفوراً }[٣] .

لقــد خفــف الله عــلى أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - عند عدم تمكــنهم مــن استعمال الماء ، وأباح لهم أيضاً الاقتصار على مسح الوجه والأيدي فقط ؛ ليكون تخفيفاً بعد تخفيف .

ومــن الأغــراض الــبلاغية التي خرجت إليها صيغ الأمر في هذه السورة المباركة التخيير ، وهو : طلب لا يقصد به إلا تخيير المخاطب بين أمرين على أنه لا يحق له أن يأتي بالأمرين معاً في وقت واحد[٤] .

ومن أمثلته في هذه السورة قوله تعالى :

{ وإنْ خفتُمْ ألاّ تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طابَ لكمْ منْ النساءِ مَثنى وثُلاثَ ورُباع... }[٥] .

صيغة الأمر في (فانكحوا) خرجت من معنى الإلزام والوجوب إلى معــنى التخيير ؛ لأنه لو كانت على حقيقتها للزم التعداد لكل أحد ، ثم عزز التخيير بعطف الأعداد بالواو حتى يختار البعض الاثنين ، والبعض الثلاث والــبعض الرباع ، ويكتفي البعض بالواحدة عند الخوف من عقاب الله حال

١ــ الآية (٤) .

٢ ــ انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٤٦ .

٣ــ الآية (٤٣) .

٤ ــ انظر (البلاغة العربية في ثوبها الجديد علم المعاني) للدكتور بكري شيخ أمين ، ص١٠٤ .

٥ ــ جزء من الآية (٣) .

عـدم استطاعته العدل ، ولو لم يكن الأمر على التخيير لوجب على الناس أحد هذه الأعداد لا غير(١) .

ومما جاء في هذه السورة على التخيير قوله تعالى :

{ يا أهلَ الكتابِ لا تغلوا في دينِكمْ ولا تقولوا على اللهِ إلا الحقَّ إنما المسـيحُ عيسـى ابنُ مريمَ رسولُ اللهِ وكلمتُهُ ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منْه فآمـنوا بـاللهِ ورسلِه ولا تقولوا ثلاثةٌ انتهوا خيراً لكمْ إنما اللهُ إلهٌ واحدٌ سـبحانَهُ أنْ يكونَ لهُ ولدٌ له ما في السمواتِ وما في الأرضِ وكفى باللهِ وكيلاً }(٢) .

ترك لهم حرية الاختيار الكامل في أمر الإيمان بالله وحده والتصديق برسـله في الفعلين السابقين (آمنوا) ، (انتهوا) . وسبَّق بالإيمان سبحانه لأنـه لـو اختاروا الإيمان على الكفر لانتهوا من تلك السخافات التي تعبئ رؤوسهم الفارغة ، وذيلت الآية بالتأكيد على وحدانية الله سبحانه ، وإن كان لهـم نصـيب في الخير واختاروا الإيمان والانتهاء سينالون الخير وإلاّ فقد اسـتحبوا العـمى عـلى الهـدى . كما يحتمل أن تكون الآية في أوامرها ونواهيها للتحذير أيضاً .

ويخرج الأمر أيضاً إلى غرض التحذير ، ومن ذلك قوله تعالى :

{ وليَخْـشَ الذيـنَ لـو تركوا مِنْ خلفِهِمْ ذريّةً ضعافاً خافوا عليهِمْ فلْيتّقوا اللهَ ولْيقولوا قولاً سديداً }(٣) .

صـيغة الأمـر (ليخش)(٤) افتتحت بها الآية لتثير في نفس المتلقي الانتباه والتشويق والخوف لما يخشاه ، ومعناه : (تذكرْ أيها الوصي ذريتك الضـعاف من بعدك وكيف يكون حالهم ، وعامل اليتامى الذين في حَجْرك

---

١ ــ انظر (الكشاف) للزمخشري ، فقد فصل فيه القول ، م١ ، ص٢٤٤ .

٢ ــ الآية (١٧١) .

٣ ــ الآية (٩) .

٤ ــ صيغة الأمر هنا أتت بلام الأمر الداخلة على الفعل المضارع .

بمثل ما تريد أن يعامل به أبناؤك بعد فقدك)[١] . وبلاغة هذا التحذير في استدعاء صورة أبناء الأوصياء في نفس الوضع الذي يمتلكونه الآن (حتى لا يحسروا على خلاف الشفقة والرحمة)[٢] ، فيحاط اليتيم في كل زمان ومكان يطبق فيه شرع الله بسياج من الرعاية الدائمة ، ويؤكد ذلك قوله تعالى في آخر الآية على سبيل التحذير أيضاً : { فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً } .

ومن التحذير قوله تعالى :

{ يا أيُّها الذينَ أوتوا الكتابَ آمنوا بما نزّلْنا مصدقاً لما معَكُمْ من قبلِ أنْ نطمِسَ وجوهاً فنردُّها على أدبارِها أو نلعنَهُمْ كما لعنَّا أصحاب السبتِ وكانَ أمرُ اللهِ مفعولاً }[٣] .

التحذير في قوله تعالى (آمنوا) ، والذي جعله لذلك الغرض مضمون الآية كلها ، حيث تعلو فيها نبرة التهديد والوعيد ، وقصة إسلام كعب وعبد الله تصور لنا كيف كان وقع هذا التحذير على النفوس الواعية من أهل الكتاب[٤] .

---

١ ـ انظر (صفوة التفاسير) للصابوني ، م١ ، ص٢٦٠ .
٢ ـ انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٥٠ .
٣ ـ الآية (٤٧) .
٤ ـ انظر (المحرر الوجيز) ، ج٢ ، ص٦٣ .
وكذا (إرشاد العقل السليم) ، ج١ ، ص٥٣٢ .
وكذا (التفسير الكبير) ، ج١٠ ، ص١٢٠ ، ١٢١ .
وقصة إسلام عبد الله بن سلام ذكرها ابن الأثير في (أسد الغابة) ، ج٣ ، ص١٦٠ ، وهو صحابي . أما قصة إسلام كعب الأحبار ففي (أسد الغابة) ، ج٢ ، ص١٨٧ . وهو كعب بن مانع يكنى أبا إسحاق أدرك عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان إسلامه في خلافة عمر بن الخطاب ، فهو معدود من التابعين ، وكان أول إسلامه أنه مر برجل من (أليل) وهو يقرأ هذه الآية : { يا أيها الذينَ أوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنا مصدقاً لما معكم .. } فوضع كفيه على وجهه ورجع القهقرى إلى بيته ، فأسلم مكانها وقال : والله خفت أن لا أبلغ بيتي حتى يطمس وجهي .

وكما يكون التحذير للإنذار بالعذاب يكون للتنبيه على الخطأ حتى لا يقع ما يوجب العذاب ، ومثله قوله تعالى :

{ يـا أيُّهـا الذينَ آمنوا إذا ضربْتُم في سبيلِ اللهِ فتبيَّنوا ولا تقولوا لمَـنْ ألـقى إليكُمُ السلامَ لستَ مؤمناً تبتغونَ عرَضَ الحياةِ الدُّنيا فعندَ اللهِ مغـانِمُ كـثيرةٌ كذلِـكَ كنتُمْ منْ قبلُ فمنَّ اللهُ عليكُمْ فتبيَّنوا إنَّ اللهَ كانَ بما تعملونَ خبيراً }[1] .

صـيغة الأمر المكررة مرتين في فعل الأمر (تبينوا) حملت معنى التحذير الشديد ، يؤكد ذلك قوله تعالى { إنّ الله كان بما تعملون خبيراً } وما فيهـا مـن لهجة التحذير أيضاً . ولكن هذه الفئة المخاطبة بهذا التحذير فئة خرجت في سبيل الله أي هي الصفوة ، وإذا أتى خطأ منها هل يُسكت عليه مداراة لها ؟ أو يُعنّفوا كما يعنّف المارقون من طاعة الله ؟ لا ، بل يحذروا بأسلوب فيه الكثير من اللين والرفق والتحنان الذي يخالطه الجد والحزم .

ويتضـح هـذا أكـثر بمقارنة أسلوب الآية بما سبق من تحذير أهل الكتاب[2] ، وهذا هو السياق القرآني الذي يجعل لكل مقام مقال .

ومما جاء صراحة في طلب التحذير قوله تعالى :

{ فليصلوا معكَ وليأخذوا حذرَهُمْ وأسلحتَهُمْ ... }

إلى قوله تعالى :

{ وخذوا حذركُمْ إنَّ اللهَ أعدَّ للكافرينَ عذاباً مهيناً }[3] .

صـيغتي الأمر[4] : { وليأخذوا حذرهم } و { خذوا حذركم } الأولى مـنهما أقـرب إلى حقيقة الأمر أي الوجوب ؛ وذلك لما في هذا الأمر من مصلحة شرعية[5] ، ويؤكده العطف : (وأسلحتهم) عليه وإن كانت حقيقة

---

١ ــ الآية (٩٤) .

٢ ــ تأمل أسلوب الآية (٤٧) تجد الفرق بيّناً واضحاً وضوح الشمس .

٣ ــ الآية (١٠٢) .

٤ ــ الأولى فعل مضارع تسبقه لام ، والثانية فعل أمر صريح .

٥ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٧٩ .

أخذ الحذر مجازاً لأنه شيء معنوي . أما الصلة الثانية فهي أقرب إلى المعنى البلاغي أي استعدوا وانتبهوا بأشد ما يكون عليه ذلك ، والله في الأولى والآخرة متكفل بنصركم وخذلان عدوكم .

ومن المعاني التي وردت لصيغة الأمر في سورة النساء التعجب ، وذلك واضح في قوله تعالى :

{ انظرْ كيفَ يفترونَ على اللهِ الكذبَ وكفى بهِ إثما مبيناً }[١] .

الأمر في (انظر) إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعلى كل واقف على الآية الكريمة ، وهو حتماً لا يقف عند معناه الحقيقي بدلالة القرائن في السياق . والآية تعقيب على ما قبلها وتعجب من الذين يزكون أنفسهم والله سبحانه يزكي من يشاء بعلمه وعدله ، واليهود أول المقصودين بهذا التعجب بدليل حالهم على مر الزمان فترجم هذا الفعل (تعجب إثر تعجب على ما ارتكبوه ، المتضمن لأمرين عظيمين موجبين للتعجب : ادعاؤهم الاتصاف بما هم متصفون بنقيضه ، وافتراؤهم على الله)[٢] عز وجل (بقبوله لهم وارتضائه إياهم)[٣] ؛ لذا استحقوا التهديد والوعيد الذي تضمنه تذييل الآية { وكفى به إثماً مبيناً } تأكيداً على سوء المصير ، أعاذنا الله جميعاً منه .

ومن تلك المعاني البلاغية التي وجدت للأمر في هذه السورة الدعاء . اسمع قوله تعالى :

{ وما لكُمْ لا تقاتلونَ في سبيلِ اللهِ والمستضعفينَ من الرجالِ والنساءِ والولدانِ الذينَ يقولونَ ربَّنا أخرجنا من هذهِ القريةِ الظالمِ أهلُها واجعلْ لنا منْ لدُنْكَ ولياً واجعلْ لنا منْ لدُنْكَ نصيراً }[٤] .

---

١ ــ الآية (٥٠) .
٢ ــ انظر (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود ، ج١ ، ص٥٣٤ .
٣ ــ انظر (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص٥٥ .
٤ ــ الآية (٧٥) .

تــرجم غرض الدعاء هنا الأفعال (أخرجنا) و (اجعل لنا) ، ولا شك أنها ليست على سبيل الحقيقة ؛ لأنه لا استعلاء ولا إلزام ، وإنما هو : (مــبالغة فــي التضــرع والابتهال)[١] من فئة ليس لهم إلا الله في محنة استضعافهم ، والتذلل له سبحانه وتعالى رفعة وعزة ، وقد حقق الله لهم هذا حيــث نصرهم بإخراج بعضهم إلى المدينة المنورة ، ثم بفتح مكة على يد الرحيم الأمين صلوات الله وسلامه عليه .

ومــن الأغــراض البلاغية لصيغ الأمر السخرية ، ويتضح هذا في قوله تعالى :

{ بشِّرِ المنافقينَ بأنَّ لهُمْ عذاباً أليماً }[٢] .

الآية الكريمة على قصرها حملت للمنافقين سخرية[٣] لاذعة ، وردت عــليهم بجــنس عمــلهم ؛ لأنه كما هو معلوم لفظة (بشِّر) تكون فيما هو محبوب[٤] ويُتلهَّف على حصولِهِ ، والإعجاز المدهش فيها ذكرها قبل الآية الــتي صورت سخرية المنافقين واستهزاءهم بالقرآن ، وكأنه سبحانه عجّل لهــم هذه البشارة الساخرة استعجال المرء بما يسره ، ولنتصور خيبة الأمل والخــزي عندما تكون البشارة بالعذاب الأليم . وقد تكون تهكما بالمتذبذبين بين الإيمان والكفر ؛ لأن عملهم ضرب من التهكم[٥] .

وقــد يرد فعل من أفعال الأمر ويراد به غيره تأكيداً على الإلزام ، مثل قوله تعالى :

---

١ ــ انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج١ ، ص٥٥٠ .

وكذا (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص٨٢ .

٢ ــ الآية (١٣٨) .

٣ ــ انظر (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٣٧٣ .

٤ ــ انظر (المحرر الوجيز) ، ج٢ ، ص١٢٥ .

٥ ــ في الآية السابقة (١٣٧) انظر (التحرير والتنوير) ، ج٥ ، ص٢٣٣ .

{ يـــا أيُّها الذينَ آمَنوا آمِنوا باللهِ ورسولِه والكتابِ الذي نزَّلَ على رسولِه والكتابِ الذي أنزَلَ من قبلُ ومنْ يكفرْ باللهِ وملائكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليومِ الآخرِ فقدْ ضلَّ ضلالاً بعيداً }[١] .

وصـــف المخاطبين بأنهم آمنوا ، وأردفه سبحانه بأمرهم بأن يؤمنوا بـــاللهِ ورســـله ... إلى آخره ، وهذا يرشد السامع إلى أن طلب الإيمان ليس عـــلى حقيقـــته بل خرج إلى معنى الثبات . وهذه الآية من شواهد استعمال صيغة الأمر في طلب الدوام[٢] ، ولكن صيغة الأمر المختارة في الآية أقوى فـــي تثبيتهم على الإيمان ، وأنفذ في التحذير من الارتداد . وفي الآية دليل على أن الإيمان يضعف ويقوى ويتجدد بالاستمرار لما في الحياة من عوامل كثيرة تجذب المؤمن جذباً إلى نقيضه . وهذا الرأي يؤيده ما جاء في سورة (الفاتحـــة) من قوله تعالى : **{ اهدِنا الصراطَ المستقيمَ }** ، مع أن الطالب لهذه الهداية هو المؤمن ، إذن معناه : ثبِّتْنا عليه .

---

١ ـــ الآية (١٣٦) .

٢ ـــ انظر (التحرير والتنوير) ، ج٥ ، ص٢٢٩ ، ٢٣٠ .

المطلب الثالث : النَّهْيُ .

وهو خلاف الأمر ، إذ معناه : الكف عن فعل الشيء مثل قولك " لا تفعل " ، وإذا كان على سبيل الاستعلاء أفاد الوجوب[١] والإلزام . وما أكثر صيغ النهي الإلزامي في القرآن الكريم ، ولا غرو فإنه من مصادر التشريع من لدن حكيم خبير . وصيغه الإلزامية في القرآن الكريم لا تخلو أيضاً من مغزى بلاغي .

وللنهي صيغة واحدة فقط في لغتنا ، وهي المضارع المقرون بـ (لا) الناهية الجازمة . ويخرج عن معناه الأصلي إلى معان بلاغية تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال ، مع اصطحاب المعنى الأصلي في معظم الأحيان[٢] .

وقد ورد في سورة النساء في مواضع مختلفة ، اقترنت في معظمها بالنداء أو الأمر أو بهما معاً . وأحسب أن ذلك لطبيعة الموضوعات المحورية[٣] التي تقوم عليها هذه السورة . ومن الصور الإلزامية للنهي قوله تعالى :

{ وآتوا اليتامى أموالَهُمْ ولا تتبدّلوا الخبيثَ بالطيِّبِ ولا تأكلوا أموالَهُمْ إلى أموالِكُمْ إنَّهُ كانَ حوباً كبيراً }[٤] .

---

١ ــ انظر (مفتاح العلوم) ، ص١٥٢ ، ١٥٣ .

٢ ــ والسبب أن كل ما ورد في سورة النساء من صيغ النهي هي من الله سبحانه وتعالى إلى عباده ، فجهة الاستعلاء واردة في الكل ، وعليه فشرط الإلزام موجود .

٣ ــ المحاور الرئيسية التي دارت عليها سورة النساء المباركة كثيرة ، لكن أهمها :

أ ــ تطهير المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية .

ب ــ كشف أعداء المسلمين وكيدهم والتحذير منهم .

ج ــ تنظيم المجتمع على أساس التكافل والتراحم والتناصح بنظم الشرع الجديد .

انظر (من هدي سورة النساء) لحنان لحام ، ص٢٠ .

٤ ــ الآية (٢) .

الشـــاهد فـــي قوله تعالى (لا تتبدلوا) ، وكذلك (لا تأكلوا) ففيهما تشديد على ترك هذين العملين ، يؤكد ذلك تسميتهما بـــ (الحوب) - وهو الذنب العظيم[١] - في جملة تحوي مؤكدين قويين : (إنْ) و (كان) .

وقد تكرر هذا النهي حماية لليتيم ودفاعاً عن حقوقه في قوله سبحانه وتعالى :

{ فـــإنْ آنستُمْ منهُمْ رَشداً فادفعوا إليهِمْ أموالَهُمْ ولا تأكلوها إسرافاً وبِداراً أن يكبروا ... }[٢] .

صـــور هـــذا الآكل بصورة المتلهف البشع الذي يبادر في أكل هذا الحـــرام قبل أن يرشد اليتيم ويطالب بحقه ، هذه الصورة أكدت حرمة هذا الأكل ووضّحت المغزى من النهي وبيّنت نوعه .

ومن صور النهي الإلزامي قوله تعالى :

{ ولا تـــنكِحوا مـــا نكَحَ آباؤكُمْ منَ النساءِ إلاّ ما قدْ سلفَ إنَّهُ كانَ فاحشةً ومَقتاً وساءَ سبيلاً }[٣] .

الـــنهي من جهة الاستعلاء . والنهي هنا ملزم حيث بالغ المولى في التشديد على المنهي عنه - وهو أن ينكح الرجل امرأة أبيه من بعده - وهذا خـــلق ممقوت حتى في الجاهلية عند أهل المروءات منهم ؛ لذا سموا الابن الذي يَوَدُّ بهذا النكاح (مقتيّاً) نسبة إلى المقت[٤] . وقد اتفق القرآن معهم في قوله تعالى : { إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً } . كذلك جعلت السنة جزاء من يفعل تلك الفعلة القتل . (قال البراء بن عازب : لقيت خالي ومعه الراية فقلت : أين تريد ؟ قال : أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى

---

١ ــ انظر (لسان العرب) ، مادة (حوب) .
وكذا (بهجة الأريب) للتركماني ، ص٦٢ .

٢ ــ جزء من الآية (٦) .

٣ ــ الآية (٢٢) .

٤ ــ انظر (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٢٠٩ . وكذا (بهجة الأريب) ، ص٦٤ .

رجـل تزوج امرأة أبيه من بعده أن أضرب عنقه)[١] . وهل بعد هذا من إلزام .

ومنه قوله تعالى :

{ يـا أيُّها الذينَ آمنوا لا تأكلوا أموالَكُمْ بينَكُمْ بالباطلِ إلاّ أنْ تكونَ تجارةً عن تراضٍ منكُمْ ولا تقتلوا أنفسكُمْ إنَّ اللهَ كانَ بكُمْ رحيماً }[٢] .

إن مـا قيـد به هذا النهي بوصفه بالباطلِ مع ما فيه من الاستعلاء جعله إلزامياً ، والمعنى : لا يأكل بعضكم مال بعض ، وقُدِّم النهي عن أكل الأموال على النهي عن القتل مع أنه أشد وأفظع لما فيه من تساهل وخفاء لا يتفقان للقتل[٣] .

وقد يخرج النهي في القرآن عن الإلزام على الرغم من أنه من جهة الاستعلاء . لنتأمل قوله تعالى :

{ ولا تتمنَّوا ما فضَّلَ اللهُ بهِ بعضَكُمْ على بعضٍ ... }[٤] .

لأن الأمـنية عمل قلبي قد لا يستطيع المرء كبحها ، لذا خرج النهي عـن الإلزام إلى معنى بلاغي آخر وهو الإرشاد والتوجيه ؛ لمجاهدة النفس فيهـا وربط مطالبها بما عند الله ، يرشد إلى هذا أسلوب الآية الهادئ وقوله تعـالى : **{ واسألوا اللهَ منْ فضلهِ }** ، وكذلك خلو الآية من أي دليل على عقاب من لا يستطيع ذلك .

ويؤكد عدم إلزام النفس بما لا تستطيع قوله تعالى :

---

١ ـ الخبر في (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٢٠٩ .

والحديـث أخـرجه الحاكم في مسنده في كتاب النكاح ، ج٢ ، ص١٩١ . قال صحيح على شرط مسلم .

٢ ـ الآية (٢٩) .

٣ ـ انظر (التحرير والتنوير) ، ج٥ ، ص٢٣ .

ومما جاء في النهي إلزامياً الآيتان : (٣٦) ، (١٠٧) .

٤ ـ جزء من الآية (٣٢) .

{ ولــنْ تستطيعوا أنْ تعدِلوا بينَ النساءِ ولوْ حَرَصتُمْ فلا تميلوا كُلَّ المَيـلِ فــتذروها كالمعــلَّقةِ وإنْ تصــلحوا وتــتّقوا فإنَّ اللهَ كانَ غفوراً رحيماً }[١] .

الــنهي فــي (لا تميلوا) على سبيل الإرشاد ، بحيث لم تحتو الآية عــلى أي لفظة تدل على عقاب صارم لمن خالف ذلك ، بل ما هو موجود فــي الآيــة تأكيد على عدم استطاعة العدل ، ثم تذييل للآية بقوله تعالى : { فإن الله كان غفوراً رحيماً } . والسبب البيّن أن الميل عمل قلبي ، والقلب يحرك الجوارح . قال أحد المفسرين : (أي محال أن تقدروا على أن تعدلوا بيــنهن بحيث لا يقع ميل ما إلى جانب إحداهن في شأن من الشؤون البتة ، وقــد كــان رســول الله - صلى الله عليه وسلم - يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقــول : اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملكُ ولا أملك)[٢] ؛ ولذا فالنهي للإرشاد وإن وضحت السنة عقاب الجائر[٣] .

وممــا جاء لغرض التوجيه والإرشاد - وإن كان الحكم فيها منسوخاً بغيره - قوله تعالى :

{ يا أيُّها الذينَ أمنوا لا تقربوا الصلاةَ وأنتُمْ سُكارى حتى تعلموا ما تقولونَ ولا جنُباً إلاّ عابري سبيلٍ حتى تغتسلوا ... }[٤] .

---

١ ــ الآية (١٢٩) .

٢ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٩٢ .

الحديث أخرجه أبو داود في كتاب النكاح ، ج٢ ، ص٢٤٢ ، بسنده إلى عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها – قالت : (كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقسم بين نسائه فيعدل ويقول : " اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك ")

٣ ــ جاء في سنن أبي داود في باب النكاح بسنده إلى أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " من كانت له امرأتان فمال إلى إحديهما جاء يوم القيامة وشقه مائل " ، ج٢ ، ص٢٤٢ .

من الآيات التي جاءت للإرشاد الآية (٩٤) .

٤ ــ جزء من الآية (٤٣) .

لم يشأ الرب الرحيم التشديد على المؤمنين في أول أمر تحريم الخمر كمـــا هـــو معلوم ؛ وذلك لعدم الاستطاعة ، بل جعل ذلك بالتدريج ، وهذه درجـــة من تلك الدرجات أتى النهي فيها على جهة الوعظ والإرشاد بتعليل سـبب النهي ، وإنّما نفّرهم الله من هذا الوضع ، وزاد معنى التنفير اختيار الفعل (تقربوا) لدخول النهي عليه دون " لا تصلوا " ونحوه للإشارة إلى أن تـلك حالـة منافية للصلاة ، وصاحبها جدير بالابتعاد عن أفضل عمل في الإسلام[١] للمبالغة في النهي[٢] .

ومن الأغراض البلاغية التي خرج إليها النهي : التحذير ، من ذلك قوله تعالى :

{ وإنْ أردتُـمُ استبدالَ زوجٍ مكانَ زوجٍ وآتيتُمْ إحداهُمَّ قنطاراً فلا تأخذوا منْهُ شيئاً أتأخذونَهُ بهتاناً وإثماً مبيناً }[٣] .

نهـاهم الحـق عـن أخذ ما دفعوه مهراً للزوجة بعد تقرير طلاقها وحذّرهـم منه بوصفه بالبهتان والإثم المبين . والآية تحمل في نبرتها معنى التهديد والوعيد والاستنكار .

ومما جاء للتحذير أيضاً قوله تعالى :

{ يـا أيُّهـا الذينَ آمنوا كونوا قوّامينَ بالقسطِ شهداءَ للهِ ولو على أنفسِـكُمْ أو الوالديـنِ والأقربينَ إنْ يكُنْ غنيّاً أو فقيراً فاللهُ أولى بهِما فلا تتـبعوا الهوى أنْ تعدِلوا وإنْ تلووا أو تعرِضوا فإنَّ اللهَ كانَ بما تعملونَ خبيراً }[٤] .

دليـل الـتحذير فـي الآية الأمر الذي سبق النهي : { كونوا قوامين بالقسـط } ، وزاده تـأكيداً مـا اختتمت به الآية من نبرة الاستعلاء فيها .

---

١ ــ انظر (التحرير والتنوير) ، ج٥ ، ص٦١ .

٢ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٢٣ .

وكذا (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص٣٨ .

٣ ــ الآية (٢٠) .

٤ ــ الآية (١٣٥) .

وتقديـــر المعـــنى : فـــلا تتـــبعوا أي : اتركوا متابعة الهوى حتى تصيروا موصوفين بصفة العدل لأنهما نقيضان[١] لا يجتمعان في شخص ، وهذا ما أكـــده معـــنى (تلووا) ، فهو من اللّي أي اللّي في الشهادة والميل إلى أحد الخصمين[٢] .

ومنه قوله تعالى :

{ يـــا أيُّها الذينَ آمنوا لا تتخذوا الكافرينً أولياءَ مِنْ دونِ المؤمنينَ أتريدونَ أنْ تجعلوا للهِ عليكُمْ سلطاناً مبيناً }[٣] .

قـــال فيهـــا أبـــو السعود ـ رحمه الله – : (نُهوا عن موالاة الكفرة صريحاً وإن كانَ في بيان حال المنافقين مزجرة عن ذلك مبالغة في الزجر والتحذير)[٤] . أي إن هذا النهي الذي أتى صراحة الغرض منه المبالغة في الزجـــر، لأن الآيات السابقة قامت بهذا عند بيان حال المنافقين ، ولكنه كان زجراً تلميحياً وهذا زجر تصريحي .

ومن بديع الأغراض التي خرج إليها النهي في هذه السورة التشجيع والتحميس ، كما في قوله تعالى :

{ ولا تهـــنوا في ابتغاءِ القومِ إنْ تكونوا تألمونَ فإنَّهُمْ يألمونَ كما تألمونَ وترجونَ منَ اللهِ ما لا يرجونَ وكانَ اللهُ عليماً حكيماً }[٥] .

النهي في (لا تهنوا) زاد عن معناه الحقيقي إلى زيادة التشجيع[٦] ، فقـــد يبث في قلوب المؤمنين في كل زمان ومكان دفعة قوية تشد عضدهم

---

١ ـــ انظر (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٣٧١ ، بتصرف .

٢ ـــ انظر (بهجة الأريب) للتركماني ، ص٢٦٦ .

٣ ـــ الآية (١٤٤) .

٤ ـــ انظر (إرشاد العقل السليم) ، ج١ ، ص٥٩٨ .

وقد ورد في هذا المعنى الآية (١٤٠) .

٥ ـــ الآية (١٠٤) .

٦ ـــ انظر (التحرير والتنوير) ، ج٥ ، ص١٨٨ .

لملاقـــاة العـــدو والاستبسال في ذلك فهو (تشجيع لهم)[1] وشد من أزرهم لمقارنة ما تؤول إليه حال كل من الفريقين : هم وعدوهم .

---

١ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٨٠ .

ومعنى تألمون : أي تجدون ألم الجراح ووجعها . انظر (بهجة الأريب) ، ص٦٨ .

المطلب الرابع : التَّمنِّي .

أداتـــه الرئيسية : ليت . وتعني إما طلب المستحيل أو بعيد المنال[١] مـــع شدة تعلق النفس به . ويعاون (ليت) في هذا المعنى أدوات تستعمل أصلاً لمعانٍ أخرى[٢] مثل : (هل) ، و (لو) ، و (لعل) ، و (هلاّ) ، و (ألا) .

وقـــد لاحـــظ البلاغيون أن كثيراً من هذه الأدوات إذا أعطت معنى التمني دمجت معه معانيها الأصلية فتكوِّن بذلك انفعالاً عجيباً يظهر فيه شدة الرغـــبة فـــي مغالطـــة النفس لتتوهم أن ذلك الأمر وإن كان مستحيلاً بعيد المـــنال إلا أنـــه ربما يحدث ولو في الخيال ، وذلك بالتمني بـــ (لعل وهل وهلاّ وألا) .

أما التمني بـــ (لو) فيبرز المتمنى في صورة مالا يوجد[٣] قط مع شـــدة الرغـــبة فيه . ويشترط في دلالة هذه الأدوات على التمني أن يُنصب

---

١ ــ انظر (مفتاح العلوم) ، ص١٤٧ .

٢ ــ هـــل : للاستفهام ، ولو : للشرط ، ولعل : للرجاء ، وهلاّ وألا : للتحضيض أو التنديم . ومن أمثلة خروج هل للتمني قوله تعالى على لسان الكافر يوم القيامة :

{ فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ... } ، الآية (٥٣) ، الأعراف .

ومثال لو على لسان الكفرة أيضاً :

{ فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين } ، الآية (١٠٢) ، الشعراء .

ومثال لعل قوله تعالى :

{ وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب * أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ... } ، الآية (٣٧) ، غافر .

ومثال هلاّ قول جميل بن معمر :

لكِ الخيرُ هلاّ عُجْتِ حتى تُفَهَمي وذو اللُّبِّ في كلِّ الأمورِ فهيمُ

٣ ــ انظر (شروح التلخيص) ، ج٢ ، ص٢٤٠ .

وكذا (علوم البلاغة) للمراغي ، ص٦٠ .

المضـــارع في جوابها بأن مضمرة[١] . وقد ورد التمني بأداته الرئيسة في سورة النساء المباركة مرة واحدة فقط[٢] وذلك مثل قوله تعالى :

{ ولـــئنْ أصابكمْ فضلٌ منَ اللهِ ليقولنَّ كأنْ لم تكنْ بينَكم وبينَهُ مودةٌ يا ليتني كنتُ معَهُمْ فأفوزَ فوزاً عظيماً }[٣] .

الشاهد : { يا ليتني كنت معهم } على لسان المبطئ يتمنى أن لو كان مع جيش النبي لا للنصرة وطلب ما عند الله ، بل للتهالك على حطام الدنيا حسداً للمؤمنين على ما ظفروا به من فوز لم يكن في توقعه ؛ فقد كان يود أن تجـــري المقاديـــر عـــلى وفق مراده ، فإذا قعد عن الخروج لا يصيب المســـلمين فضـــل مـــن الله[٤] ، وقد فضحه الله سبحانه تعالى بتلك الجملة المعترضـــة بيـــن فعل القول والجملة المحكية به ، تلك الجملة الصغيرة : { كأن لم يكن بينكم وبينه مودة } احترازاً من أن يُتوهمَ من مطلع كلامه أن تمنيه المعية لله . أما استخدام لفظة (مودة) فهي على سبيل التهكم[٥] به ، وإلا فهم يتربصون بالمؤمنين الدوائر دائماً .

وقـــد يـــدل على التمني فعل (ودّ) مقترناً بـــ (لو) ، وفي سورة النساء موضعان يمثلان هذه الظاهرة : الأول قوله تعالى :

---

١ ـــ انظر (شروح التلخيص) ، ج٢ ، ص٢٤٠ .
وكذا (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٣١٤ .
وكذا (علوم البلاغة) للمراغي ، ص ٦١ .

٢ ـــ لقـــد وردت (ليت) وهي في الغالب أداة الأمل غير المحقق في القرآن الكريم كله أربع عشرة مرة فقط ، بينها ثلاث مرات بالأمل المُرجّى .
انظر (كشف الغموض) ، ص ٩٥ .

٣ ـــ الآية (٧٣) .

٤ ـــ انظر (التحرير والتنوير) ، ج٥ ، ص١٢٠ .
وكذا (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٢٩٢ .

٥ ـــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٤٨ ، بتصرف .
وكذا (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص٨٠ .

{ ودّوا لـو تكفـرونَ كمـا كفروا فتكونونَ سواءً فلا تتخذوا منْهم أوليـاءَ حـتى يهاجـروا في سبيلِ اللهِ فإنْ تولّوا فخذوهُم واقْتلوهُمْ حيثُ وجدتُموهُم ولا تتخذوا منْهُمْ ولياً ولا نصيراً }[١] .

قال فيها الزمخشري : (" فتكونون " عطف على تكفرون ولو نُصِبَ على جواب التمني جاز ، والمعنى : ودُّوا كفركم فكونكم معهم شرعاً واحداً فيما عليه من الضلال واتباع دين الآباء)[٢] ، وهذا يعني أنه قدّر التمني من الفعل (ودّ) والأداة (لو) ، وقدّر مفعول الفعل ودّ (كفركم) ، أي ودّوا كفـركم لـو تكفرون فتكونون ، وردّ عليه أبو حيان قائلاً : (وكون التمني بـلفظ الفعل ويكون له جواب فيه نظر ، وإنما المنقول أن الفعل يُنصب في جـواب التمـني إذا كـان بالحرف نحو : ليت ولو وألا إذا أشربت معنى التمـني ، أما إذا كان بالفعل فيحتاج إلى سماع من العرب ، بل لو جاء لم يـتحقق فيه الجوابية ؛ لأن ودّ التي تدل على التمني إنما متعلقها المصدر لا الذات ، فإذا نصب الفعل بعد الفاء لم يتعين أن تكون فاء جواب لاحتمال أن يكـون مـن باب عطف المصدر المقدر على الملفوظ ، فيكون من باب : ولبس عباءةٍ وتقر عيني)[٣] .

الأرجـح أن يكـون التركيب من باب التمني ؛ لأنه أدلُ على ما في نفـوس الكفـرة المريضة بالبغضاء والحسد للمسلمين على نعمة الإسلام ، وجعلها كذلك يؤكد بعد منالها واستحالة حصول المتمنى ، والواقع يصدقه ، فمـن ذاق حلاوة الإيمان ودخل في نوره هيهات أن يعود إلى الضلال من جديد .

ومثله قوله تعالى :

---

١ ـ الآية (٨٩) .

٢ ـ انظر (الكشاف) ، ج١ ، ص٢٨٨ .

٣ ـ انظر (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٣١٤ . وكذا ج١ ، ص٣١٤ .

{ ودّ الذينَ كفروا لو تَغْفُلونَ عنْ أسلحتِكُم وأمتعتِكُم فيميلونَ علَيكُم مَيلةً واحدةً ... }[١] .

والمعـنى : تمـنوا أن ينالوا منكم غرة ، ويننتهزوا فرصة فيشدوا عليكم شدة واحدة[٢] ، فقد خرج التركيب إلى التمني بأن تُلهيهم الصلاة عن الاستعداد ، ولكن الله لهم بالمرصاد .

١ ـ الآية (١٠٢) .

٢ ـ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٧٩ .

وكذا (التحرير والتنوير) ، ج٥ ، ص١٨٧ .

المطلب الخامس : النِّداءُ .

وهــو طــلب إقبال المدعو على الداعي بأحد حروف مخصوصة ، ينوب كل حرف منها مناب الفعل (أدعو)[١] . وحروفه سبعة هي : الهمزة و(أي) ، و (أيا) ، و (آي) ، و (أيا) ، و (هيا) ، و (وا) . وهي نوعــان بحسب المنادى : الهمزة و (أي) لنداء القريب ، وباقي الأدوات لــنداء الــبعيد[٢] . ولم ترد في القرآن الكريم سوى (يا) و (أي) ، وكل مــنهما يمــثل طائفة ، وأكثر ما استخدمت (يا) مع (أيُّها) . وقد وردت مائة وخمسون آية استخدم فيها النداء (يا أيُّها)[٣] ، منها خمس عشرة مرة في سورة النساء[٤] حملت معان بلاغية تناسب مقاصد[٥] السورة المباركة . مــنها النداء الأول ، نداء ربِّ العالمين بـــ (يا أيُّها) لعامة الناس في قوله تعالى :

---

١ ــ لقــد عــرّف الــبلاغيون الــنداء بأنماط من التعريفات جميعها يؤدي إلى هذا التعريف الشامل المختصر ، وهو تعريف الدكتور عبد العزيز عتيق في كتابه (البلاغة العربية ، علم المعاني) ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

٢ ــ انظر المرجع السابق ، بتصرف .

٣ ــ انظر (كشف الغموض) ، ص٩٦ .

٤ ــ جــاءت تسع مرات منها نداء المؤمنين بقوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا } . كما جاءت نداء للــناس جميعــاً أربع مرات ، كما نودي أهل الكتاب مرتين فقط . وجاء معنى النداء مع حذف أداته مرتين في الدعاء بقولهم (ربنا) في الآية (٧٥) و (٧٧) .

٥ ــ من المقاصد الرئيسية في سورة النساء واتفق معها النداء :

أ ــ الحث والتنبيه على وجوب التواصل والتراحم وحفظ الحقوق .

ب ــ التأكيد على التكاليف الشرعية في العبادات والمعاملات .

ج ــ التهديد والتحذير من أعداء الإسلام .

د ــ النصح والإرشاد لما فيه صلاح المجتمع وصلاح الفرد من الظاهر والباطن .

{ يا أيُّها الناسُ اتّقوا ربَّكُمُ الذي خلقَكُمْ مِنْ نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجَهــا وبَــثَّ مــنهُما رجالاً كثيراً ونساءً واتّقوا اللهَ الذي تساءلونَ بهِ والأرحامَ إنَّ اللهَ كانَ عليكُمْ رقيباً }[١] .

أمرهم سبحانه (بالتقوى وبالتعاطف والرأفة وإيصال الحقوق وحفظ الأمــوال)[٢] ، وجعــل معجزة خلقهم حجة عليهم لوجوب الامتثال لأمور عظــام ؛ لأن (الــنداء حين يقع بين يدي الأمر والنهي يكون لأمر يهتم به المتكــلم ويحرص عليه فيوقظ المخاطب ويهيئه له قبل أن يلقيه عليه)[٣] . فالــنداء هنا على حقيقته ، واستعمال (يا) التي للنداء البعيد غالباً يدل على مــزيد من التعظيم للمنادى[٤] ولما نودي من أجله ، وثمّة معنى بلاغي آخر في استعمال (يا) ، حيث أعطى بعد المنادى بها معنى يتسع فيه النداء إلى دائــرة الخــلق ، فيشــمل القريب والبعيد في كل زمان ومكان ، وزاد هذا المعــنى تــأكيداً دخول (أل) على كلمة الناس ؛ لتعم كافة الجنس البشري المكــرمين بهذا النداء على غيرهم ، وإن كان الدين للإنس والجن على حد سواء .

ومن قبيل التعاطف والتراحم قوله تعالى :

{ يــا أيُّهــا الذيــنَ آمــنوا لا يحلُّ لكُمْ أنْ ترِثوا النساءَ كَرْهاً ولا تعضُــلوهُنَّ لتذهــبوا بــبعضِ مــا أتيتموهُنَّ إلاّ أنْ يأتينَ بفاحِشةٍ مُبيِّنَة وعاشروهُنَّ بالمعروفِ فإنْ كرهتموهُنَّ فعسى أنْ تكرهوا شيئاً ويجعلَ اللهُ فيهِ خيراً كثيراً }[٥] .

نــودي المؤمــنون لتهيئة نفوسهم ونعتوا بالإيمان لتقبل النهي الذي تحملــه الآية برحابة صدر وشدة حرص ، خصوصاً وأن المنهي عنه أمر

---

١ ــ الآية (١) .

٢ ــ انظر (التفسير الكبير) للرازي ، ج٩ ، ص١٥٧ .

٣ ــ انظر (التصوير البياني) للدكتور محمد أبو موسى ، ص٥٤ .

٤ ــ انظر (البلاغة العربية في ثوبها الجديد) للدكتور بكري شيخ أمين ، ص١١٣ .

٥ ــ الآية (١٩) .

تعارفت عليه الجاهلية ، ورسخ في جِبِلاّتِهم ، وهو أبشع صور الظلم للمرأة حينذاك ، حيث تعد من سقط المتاع فتورَثُ[١] كما تورث الجارية ، بل البهيمة ، فعزها العزيز المنان بهذا النهي إلى منزلة لم تكن تحلم بها في جاهليتها ، وحرر رقبتها من عبودية الرجل ، بل وجعل لها حرية التصرف في مالها أيضاً إلاّ حين تسقط بشهواتها في مهاوي الردى .

ومنه قوله تعالى :

{ يا أيُّها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالَكُمْ بينَكُمْ بالباطلِ إلاّ أن تكونَ تجارةً عن تراضٍ منكُمْ ولا تقتلوا أنفسكُمْ إنَّ اللهَ كانَ بكُمْ رحيماً }[٢] .

قال فيه أبو السعود : (شروع في بيان بعض المحرمات المتعلقة بالأموال والأنفس إثر بيان الحرمات المتعلقة بالأبضاع . وتصدير الخطاب بالنداء والتنبيه لإظهار كمال العناية بمضمونه)[٣] ، هذا المضمون الذي يحمل بياناً واضحاً في حرمة الأموال والأنفس ؛ ولذا جاء النداء بحرف (يا) التي هي للتعظيم مع أداة التنبيه لتدل (على شدة التواصل بين الخالق وخلقه وأن حبل الخطاب منصوب بين السماء والأرض لا يقطع ، وما على الإنسان إلا الاستجابة لربه وتلبية نداءاته وأوامره ، فهي كلها لصالحه وحسن مآله)[٤] .

وقد يأتي النداء للتنبيه على التكاليف الشرعية في العبادات والمعاملات ، في هذا الغرض يقوم النداء بإعلان ظاهري قوي على أن ما

---

١ ـ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٤٩٨ .
وكذا (روح المعاني) ، م٢ ، ج٤ ، ص٢٤٢ .
أو أي تفسير شئت .
٢ ـ الآية (٢٩) .
٣ ـ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٤٩٨ .
والأبضاع : أمور النكاح . انظر (المفردات) ، مادة (بضع)
٤ ـ انظر (كشف الغموض) ، ص٩٦ .

نودي من أجله ملزم لإقامة شرع دينكم فتنبهوا إليه وعضوا عليه بالنواجذ .
فهو نداء للمؤمنين خاصة مثل الذي قبله ، ومثله قوله تعالى :

{ يا أيُّها الذينَ آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتُمْ سُكارى حتى تعلَموا ما تقولـُـونَ ولا جُنُباً إلاّ عابري سبيل حتى تغتسلوا وإنْ كنتُمْ مرضى أو على سفرٍ أو جاء أحدٌ منكُمْ من الغائطِ أو لامستُمُ النساءَ فلمْ تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهِكُمْ وأيديكُمْ إنَّ اللهَ كانَ عفواً غفوراً }[١] .

صــدّر الكــلام بحرف النداء والتنبيه للمبالغة في حملهم على العمل بموجب النهي[٢] ، وتوجيه النهي إلى قربان الصلاة مع أن المراد هو النهي عــن إقامتها ؛ للمبالغة في ذلك ، أي يا من أُفرِدوا بتصديق الرسل وما أتوا بـــه عن الله[٣] الكلام خاص بكم ، فتنبهوا أن يشوب دينكم شائبة شرك في غفـــلة مـــنكم تخرج أعمالكم من القبول . أسلوب يفيض تلطفاً واحتراماً في عرض معجز تخجل النفس من عدم الانتباه له والتمسك بمقتضاه .

وأكثر منه توجيهاً وتكليفاً قوله تعالى :

{ يا أيُّها الذينَ آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمرِ منكُمْ فـــإن تنازعـــتُمْ فـــي شيءٍ فردُّوهُ إلى اللهِ والرسولِ إنْ كنتُمْ تؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ ذلكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلاً }[٤] .

هـــذه أمور لا يستقيم الدين إلا بها ، وهل ألزم من طاعة الله وطاعة الرســـول وطاعـــة أولـــي الأمر[٥] ؟ فخُصّوا بهذا النداء على وجه التعظيم والتكريم ليعلموا أن تمييز هذا سببه هذه الطاعة ، فتنبهوا لها .

---

١ ــ الآية (٤٣) .

٢ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٢٣ .

٣ ــ انظر (نظم الدرر) للبقاعي ، ج٥ ، ٢٨٤ .

٤ ــ الآية (٥٩) .

٥ ــ الرد إلى الله هو النظر في كتابه العزيز والعمل بما جاء فيه ، والرد إلى الرسول هو سؤاله في حياته والنظر في سنته بعد وفاته – عليه أفضل الصلاة والسلام – . هذا قول مجاهد والأعمش وقتادة والسدي . انظر (المحرر الوجيز) ، ج٢ ، ص٧١ .

ومن التنبيه ما جاء لأخذ الحيطة والحذر ، مثل قوله تعالى :

{ يــا أيُّهــا الذيــنَ آمــنوا خــذوا حِذْرَكُمْ فانفِروا ثُباتٍ أو انفِروا جميعاً }[١] .

خــص المولى بهذا الخطاب المخلصين من أمة محمد[٢] - صلى الله عــليه وســلم - فــي كــل زمان ومكان ، نُبِّهوا على أهمية الحزم والعزم والاســتعداد التام قبل ملاقاة العدو ، وهذا ينافي التواكل الذي يظنه البعض من الدين .

ومن المقاصد التي حققها النداء في سورة النساء التهديد والتحذير ، وخير ما يمثله قوله تعالى :

{ يــا أيُّها الذينَ أوتوا الكتابَ آمنوا بما نزّلْنا مصدقاً لما معكُمْ منْ قــبلِ أنْ نطمِــسَ وجوهاً فنرُدَّها على أدبارِها أو نلعنَهُمْ كما لعنَّا أصحابَ السبتِ وكانَ أمرُ اللهِ مفعولاً }[٣] .

خاطــبهم الله خطاب مشافهة مع جميع علمائهم[٤] ، ويدخل فيه عامة أهــل الكــتاب ، ولذلك لما هو موجود في كتبهم من حقيقة الإسلام ، وإنما كفــرهم بــه لمحض العناد والمكابرة والحسد ، فلا جرم أن هددهم المولى ســبحانه بطمــس الوجــوه واللعن تحقيراً لهم ؛ لأن الوجه أكرم عضو في الإنسان ، وفيه يُكرم أو يُهان .

ومن التهديد والتحذير ما جاء للمؤمنين أيضاً ، ومنه قوله تعالى :

{ يــا أيُّها الذينَ آمنوا لا تتخذوا الكافرينَ أولياءَ من دونِ المؤمنينَ أتريدونَ أن تجعلوا للهِ عليكُمْ سلطاناً مبيناً }[٥] .

---

١ ــ الآية (٧١) .

٢ ــ انظر (المحرر الوجيز) ، ج٢ ، ص٧٧ .

ومن هذا النداء الذي هو للتنبيه على التكاليف الشرعية الآيتان : (٩٤) ، (١٣٥) .

٣ ــ الآية (٤٧) .

٤ ــ انظر (التفسير الكبير) للرازي ، ج١٠ ، ص١٢٠ .

٥ ــ الآية (١٤٤) .

حمـــل النداء التهديد والوعيد لتحذيرهم من موالاة الكفرة لما في ذلك مـــن خطر شنيع على الأمة الإسلامية ، فلو فعلوا استحقوا أن يسلط عليهم عقابه[١] الشديد سبحانه عظم سلطانه .

وقريب منه قوله تعالى :

{ يـــا أيُّها الذينَ آمَنوا آمِنوا باللهِ ورسولِه والكتابِ الذي نزَّلَ على رسولِه والكتابِ الذي أنزَلَ منْ قبلُ ومنْ يكفُرْ باللهِ وملائكتِهِ وكتُبِهِ ورُسُلِهِ واليومِ الآخرِ فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً }[٢] .

اختلفت الآراء في المقصود بالنداء ، فمنهم من رجح أنها للمنافقين ، ومـــنهم من جعلها تعريضاً باليهود والنصارى والمشركين ، ، ولكن أرجح الأقـــوال أن الخطـــاب للمؤمنين ، وأنه خرج عن معناه إلى معنى الثبات عـــلى الإيمـــان[٣] . والصيغة الواردة في الآية أقوى في التثبيت وأنفذ في الـــتحذير . وقد أكد آخر الآية هذا المضمون موضحاً أن الذي لا يثبت على الإيمـــان ويـــنجرف فـــي مزالق الشيطان حق عليه الضلال البعيد الذي لا رجوع منه ، والله أعلم وأحكم .

ومنه قوله تعالى :

{ يا أيُّها الناسً قد جاءَكُمُ الرسولُ بالحقِّ من ربِّكُمْ فآمنوا خيراً لكُمْ وإنْ تكفروا فإنَّ للهِ ما في السمواتِ والأرضِ وكان اللهُ عليماً حكيماً }[٤] .

---

١ ــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٩٩ .

٢ ــ الآية (١٣٦) .

٣ ــ انظر (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٣٧١ .

وكذا (الكشاف) ، ج١ ، ص٣٠٤ .

وكذا (المحرر الوجيز) ، ج٢ ، ص١٢٤ .

وكذا تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٥٩٤ .

وكذا (روح المعاني) ، م٢ ، ج٥ ، ص١٦٩ .

٤ ــ الآية (١٧٠) .

هـــذا الخطاب لجميع الناس ؛ لأن المأمور به أمر عام ولو كان فيه تكليف لكان خاصاً بالمؤمنين في الغالب[١] . والتحذير فيه ضمني ، أي : إن لم تطلبوا الخير بإيمانكم فالله عليم بما يضركم في السماء والأرض ، حكيم فـــي أفعالـــه وتصـــرفاته بما يليق بكم . فهو (أمر مشفوع بالوعد بالإجابة والوعيد على الرد ؛ تنبيهاً على أن الحجة قد لزمت ، ولم يبق بعد ذلك لأحد عذر في عدم القبول)[٢] .

ثم خص أهل الكتاب بنداء بعده لنفس الغرض بقوله تعالى :

{ يا أهلَ الكتابِ لا تغلوا في دينِكُمْ ولا تقولوا على اللهِ إلاّ الحقَّ إنّما المسيحُ ابنُ مريمَ رسولُ اللهِ وكلمتُهُ ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منهْ ... }[٣] .

الخطاب لأهل الكتاب من النصارى ، أمروا بترك الغلو في دين الله على الإطلاق ، وأن يوحدوا ، ولا يقولوا على الله إلاّ الحق ، وإذا سلكوا ما أمروا به فذلك سائقهم إلى الإسلام[٤] . وجاء هذا النداء وما بعده من الأمر بأسلوب الإرشاد والتنبيه إلى ما هو خير ، مع ما فيه من تهديد ضمني أكده ســياق الآية في عدة مواقف مثل قوله تعالى : **{ انتهوا خيراً لكم }** ، وكذا الــتأكيد على وحدانية الله في : **{ إنّما اللهُ إلهٌ واحدٌ }** ، وكذا التحذير بقوله تعالى : **{ وكفى باللهِ وكيلاً }** .

أمـــا آخـــر خطـــاب في هذه السورة المباركة فهو جامع للناس كافة يرشدهم إلى أمر من أعظم أمور دين محمد - صلى الله عليه وسلم - الحق ، وهـــو إنزال النور المرشد إلى طريق النجاة . وقد أعقب هذا البيان الساطع ترغيب شديد في الإيمان :

---

١ ـــ انظر (البحر المحيط) ، ج٣ ، ص٤٠٠ .
وكذا (المحرر الوجيز) ، ج٢ ، ص١٣٨ .
٢ ـــ انظر تفسير أبي السعود ، ج١ ، ص٦١١ .
٣ ـــ جزء من الآية (١٧١) .
٤ ـــ انظر (المحرر الوجيز) ، ج٢ ، ص١٣٩ .

{ يا أيُّها الناسُ قد جاءكُمْ برهانٌ من ربِّكُمْ وأنزلنا إليكُمْ نوراً مبيناً * فأمـا الذيـنَ آمنوا باللهِ واعتصموا بهِ فسيُدخلُهُمْ في رحمةٍ منهُ وفضلٍ ويهديهِمْ إليهِ صراطاً مستقيماً }[١] .

(فذلكـة للكلام السابق بما هو جامع للأخذ بالهدى ونبذ الضلال بما اشتمل عليه القرآن من دلائل الحق وكبح الباطل . والجملة استئناف وإقبال على خطاب الناس كلهم بعد أن كان الخطاب موجهاً إلى أهل الكتاب خاصة . ثـم أردف بتفصـيل بمـا دل عـليه " يا أيها الناس " من اختلاف الفِرَق والـنزعات : بين قابل للبرهان والنور ، ومكابر جاحد ، ويكون معادل هذا الشق محذوفاً للتهويل أي : وأما الذين كفروا فلا تسل عنهم)[٢] .

وبعد هذه الجولة مع أداة النداء الواردة في سورة النساء يحق لنا أن نؤكـد عـلى مـا قاله الدكتور بكري شيخ أمين : (أن ظلال معنى الجملة وإيحاءاتـه تضفي على الأداة شفافية مستمدة من هذا المعنى ، فتتلون الأداة فتوحي)[٣] بأنها لكذا أو كذا ، والله أعلم وأحكم .

---

١ ـ الآيتان (١٧٤ ، ١٧٥) .

٢ ـ انظر (التحرير والتنوير) ، ج٦ ، ص٦٢ ، ٦٣ .

٣ ـ انظر (البلاغة العربية في ثوبها الجديد) ، ج١ ، ص١١٧ .